كتاب الهلال

http://arabicivilization2.blogspot.com/
Amly

ساعة عدل واحدة

تأليف: د. سيسيل ألبورت

ترجمة: سمير محفوظ بشير

الكتاب الأسود عن أحوال المستشفيات المصرية

(١٩٣٧ - ١٩٤٣)

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن مؤسسة دار الهلال

الإصدار الأول/ يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة

عبد القادر شهيب

رئيس التحرير

مجدى الدقاق

المستشار الفنى

محمد أبو طالب

مدير التحرير

أحمد شامخ

الإدارة

القاهرة ، ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) ، المكاتبات: ص. ب ٦١ العتبة ، القاهرة ، الرقم البريدى ١١٥١١ ، تلغرافيا: المصور ، القاهرة ج . م . ع.

تلكس:

Telex 92703 hilal u n

فاكس:

(20) 362 5469

العدد ٦٩٨ - فبراير (شباط) ٢٠٠٩م محرم ١٤٣٠هـ

أمشير ١٧٢٥ق

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ١٢٥٠ فلسا - السعودية ١٧,٥ ريالا

البحرين ١,٢ دينار - قطر ١٣ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١,٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال

- المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٢,٥ دولار - سويسرا ٤ فرنكات - سودان ٢,٥ جنيها

البريد الإلكترونى:

darhilal @ idsc. gov . eg

ساعة عدل واحدة

الكتاب الأسود
عن أحوال المستشفيات المصرية
(١٩٣٧ - ١٩٤٣)

تأليف : د. سيسيل ألبورت

الطبيب الإنجليزى

زميل الكليات الملكية البريطانية

ترجمة : سمير محفوظ بشير

دار الهلال

الخطوط للفنان : محمد العيسوى

المتابعة : علـى حـامـد

مقدمة المؤلف

هذا هو الكتاب الأسود الثانى الذى ينشر فى مصر فى غضون ثلاث سنوات؛ الأول أصدره مكرم عبيد باشا، وهو أحد أبطال مصر الذين سعوا لاستقلالها الذى تحقق بالفعل سنة ١٩٢٢؛ وفى كتابه هذا ـ هاجم الفساد واستغلال النفوذ الذى ابتليت به الحكومة المصرية حينذاك. أما هذا الكتاب فهو يكشف عن الظروف المخيفة التى يحيا فى ظلها فقراء مصر، والحالة المزرية التى آلت إليها مستشفيات القطر المصرى كله.

وقد بدأت فى كتابته وأنا مقيم فى كينيا، حيث لا أتمتع إلا بالقليل من ضرورات الحياة، لدرجة أننى اضطررت إلى اقتراض مائدة مخصصة للعب البريدج من صديقة عزيزة لأكتب عليها.

مادة هذا الكتاب استقيتها من خلاصة تسع مذكرات كتبتها حين تواجدى بمصر، بالإضافة إلى استعانتى بالعديد من الأوراق الخاصة بالمستشفى التى عملت بها فى مصر، مع مستندات أخرى ملأت جميعاً شنطة سفر صغيرة.

لعدة سنوات، نميت فى نفسى خاصية استظهار

أى أمر مثير للاهتمام، ثم أسجله فوراً لعله يكون ذا منفعة لى فى المستقبل. وقد أفادنى هذا تماماً فى تدبيج كتابى هذا.

بعد مغادرتى مصر، ظلت الشنطة التى بها الأوراق تائهة لمدة ثلاثة شهور طوال، بسبب ظروف الحرب (الحرب العالمية الثانية ٣٩-١٩٤٥) وإجراءات الرقابة المشددة، مع احتمال مصادرتها فى حالة العثور عليها.

أما عنوان هذا الكتاب (ساعة عدل واحدة) فقد أوحى به إلى سكرتير الأمير محمد على ولى عهد مصر، والتى استقاها من قول نبى الإسلام: «ساعة عدل واحدة تعدل سبعين عاماً من الصلاة المقبولة».

أعتبر نفسى مديناً بالفضل للكتب التى قرأتها عن مصر، ومنها «كتاب مصر الحديثة» للورد كرومر، «مصر منذ عهد كرومر» للورد لويد، «مصر الآن» لهيلارى وايمان، «تاريخ التعليم الطبى فى مصر» لنجيب محفوظ باشا. وأدين بالفضل أيضاً، نيابة عن ملايين الفقراء المرضى من المصريين، لدار النشر التى قبلت نشر هذا الكتاب.

د/ سيسيل ألبورت

(كينيا، عام ١٩٤٦)

مقدمة المترجم

عثرت على كتاب الدكتور ألبورت هذا، منذ حوالى عشرين سنة خلت، وأعجبت بالرجل وموضوعه، فهو طبيب إنجليزى عمل أستاذا للطب الإكلينيكى بمستشفى القصر العينى خلال الفترة ما بين عام ١٩٣٧ حتى عام ١٩٤٣، إبان الحرب العالمية الثانية، بينما تجثم بريطانيا على صدر مصر مدعية أنها قد منحتها استقلالا بموجبه تستطيع أن تحكم نفسها طبقا لتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢، الذى ألغى الحماية على مصر التى فرضت مع بدية الحرب العالمية الأولي.

ينصب موضوع هذا الكتاب كله على دفاع هذا الرجل المستميت عن الفلاحين المصريين الفقراء، خاصة المرضى منهم. ويوجه خطابه ومظلمته هذه مخاطبا الرأى العام فى بريطانيا وأمريكا، وكان قد أتم كتابته فى ظل أقسى الظروف التى يتصورها إنسان، حيث استقر به المقام فى كينيا بعد رحيله من مصر فى أوائل عام ١٩٤٤، وسط الأحراش، متمتعاً بأقل الإمكانيات المعيشية وسط حرب عالمية ما زالت ناشبة أظفارها فى العالم كله، ليكتب مذكراته عن تلك الفترة التى قضاها كأستاذ محاضر فى المستشفيات التعليمية بالقاهرة.

إن دفاعه هذا أشبهه بملحمة دون كيشوت التى

صارع فيها طواحين الهواء، لجدير أن نطلع عليه ونستوعبه ونستخلص منه النتائج والعبر.

هذا الطبيب من جنس المستعمرين الذين أرهقوا مصر أكثر من سبعين عاماً. مع ذلك، هو ينتقد ساسة بلاده بعنف شديد، ويبدى إعجاباً غريباً بالإنسان المصري، ولو أنه أيضا ينتقد هذا الأخير لأسباب كثيرة سنلاحظها فى هذا الكتاب.

إنه لم يتخيل يوماً أن تصل إحدى نسخ كتابه هذا إلى يد واحد من المصريين، مما ينفى عنه مظنة محاولة توجيه خطابه لنا والتأثير علينا بما يخالف الحقيقة.

علينا نحن المصريين أن نقارن بين حالتنا أيام الحرب الثانية وبين أيامنا الحالية. بلا شك حدث تقدم ورقى ومدنية، لكن هل حدثت طفرة مماثلة فى طرق التفكير والتصرفات والأخلاق ؟.. ويقع عبء كبير على الأطباء خاصة، لإجراء هذه المقارنة طالما أن مسرح هذا الكتاب يدور كله فى عالمهم.

الكاتب يتمتع بروح مرحة، بالرغم من معاناته وقتاله بمفرده ضد عديد من الفئات، منها زملائه أساتذة كلية الطب ورؤسائه والباشاوات وساسة بلاده والساسة المصريين، وكذلك التمورجية وعباد الروتين.. إلخ.

معظمنا لم يعاصر فترة حكم الإنجليز على

مصر، أو ربما شاهد حواشيها قبل أفولها، ولم يعاصر حكم طبقة الباشاوات، وأغلبهم تجرى في دمائهم جينات غير مصرية، كأن تكون تركية أو شركسية، ويصفهم الرجل بأنهم مصاصى دماء الفلاحين المصريين، وأنهم السبب الوحيد لتخلف البلاد وفقر العباد، لأنهم غير أكفاء سواء فى الحكم أو الأخلاق. لقد تم الآن القضاء على تلك الفئة بفضل الثورة المصرية، لكن ألم يحل بدلاً منهم طبقة مماثلة وشبيهة، من ضمنها هؤلاء المليونيرات الذين يلهفون نقود البنوك ويهربون للخارج ؟

إذا كان وصف هذا الكتاب لبعض أحوالنا فى زمانه قاسياً، أو أنه أبدى إعجاباً وفخراً بشخصيات لا نكن لها هذا القدر من الإعجاب مثل كرومر المندوب السامى البريطانى على مصر والحاكم الفعلى للبلاد خلال الفترة من ١٨٨٣ حتى ١٩٠٧ أو إنه انتقد بشدة شخصيات مصرية نقدرها ونجلها مثل الدكتور على إبراهيم باشا، فإننا نتلمس له العذر... فهذا ما شاهده بعينيه ولمسه بحواسه وجرح مشاعره وألهب فؤاده... فى زمن غير الزمان.

سمير محفوظ بشير

Amly
http://arabicivilization2.blogspot.com

الفصل الأول

مصر والطب الإنجليزى

لسنوات عدة، ارتبطت المستشفيات الجامعية المصرية بالكليات الملكية البريطانية لأطباء وجراحى إنجلترا؛ من خلال أساتذة هذه الكليات نشأت صلة وثيقة بالمستشفيات الإنجليزية أيضاً.

البريطانى الأول الذى خدم فى أجهزة الصحة المصرية هو الدكتور ساندوتش الذى عين هناك سنة ١٨٨٤، ونشأت الرابطة الأولى بالكليات الملكية البريطانية سنة ١٩٠٢ .

لأن المواطن الإنجليزى أو الأمريكى لا يدرى شيئاً عن المستشفيات المصرية، وأظنه لا يهتم بهذه المعرفة، لذا ألمح أمامى مهمة صعبة للغاية لإقناعه أنه بدون اهتمامه الجدى المتفهم، سوف يقع ظلم فادح على طبقة من البشر جديرة فعلاً بعطفه وتقديره، هؤلاء هم الفلاحين المصريين المغمورين المهملين الذين يكونون تسعة أعشار الشعب المصرى.

الفلاحون المصريون يمتازون بأنهم على قدر كبير من اللطف والأدب والكرم والقدرة على العمل المجهد الشاق، وهم سلالة حضارة أقدم كثيراً من الحضارة اليونانية والرومانية

والأمـريكيـة، وللأسف رزحـوا تحت نيْر حكم عـدد كـبـيـر من المستغلين وأصبحوا عبيداً لقرون عدة.

لقد أُستغلوا بدون شفقة أو رحمة من قاهريهم الأجانب، ولم تتح لهم أبدا أى فرصة للفكاك، وعاشـوا دائما تحت خط الفـقـر والجـوع وتأثروا لأجيـال طويلة بكل اللعنات التى حلت بمصر.

منذ سـتين عـامـا وتحت حكم كـرومـر، ارتفـعت مـعنويات الفـلاح المصـرى إلى أعـلا درجاتـها ! .. ولكن عمـر الإنسـان مـحدود وقـصـيـر، وبعـد انتـهاء حـكم هـذا الرجل تتابع عدد من رجـالات الحكم ذوى المهـارات المتـدنيـة وعـجـزوا عن مـتـابعـة جهوده وإصلاحاته.

اليوم يتحكم فى مصـر طبقة انتـهازية من البـاشـاوات لا تبـحث سوى عن مصـلحـتـها الشـخـصية، لذا درجت البـلاد فى ظلام مدقع، وأصبحت حالة الفلاح فى أسوأ أحوالها تستدعى الحزن العميق والرثاء البالغ.

لأن هنـاك صلة قـوية بين الكليـات الملكيـة البـريطانيـة ومستشفياتها ومثيلتها المصرية، أرى لزاما على أن أسترسل فى شـرح تاريخ الكليـات الملكيـة لمنفـعـة من ليـسـو على دراية كاملة بتاريخها.

تدين الكليـات الملكيـة بإنشـائهـا - وأتشـرف بكونى أحـد

أبنائها المخلصين - للطبيب المشهور والباحث المدقق توماس ليناكر، ففى عام ١٥١٨ وتحت رعاية الكاردينال الشهير ولسى، حصل هذا الطبيب الفذ على رخصة إنشائها من الملك هنرى الثامن، وأصبح هذا الرجل رئيسا لها حتى وفاته، كان النظام التأسيسى لهذه الكلية ينص فى أحد بنوده: أن الغرض من إنشاء هذه الكلية هو "كبح جماح الجهلاء ومدعى الطب وردهم على أعقابهم"، وينص النظام الأساسى أيضا على أن يعاون الرئيس أربعة أوصياء "يصححون ويراقبون الأطباء وأدوائهم فى مدينة لندن وما يحيط بها حتى سبعة أميال، وأن يعاقبوا أو يوقعوا غرامات مالية أو يطالبوا بسجن المخالفين أو المدعين". ويتكون هيكل الكلية من الزملاء والأعضاء المرخص لهم بالعمل فى المجال الطبى، وينتخب الزملاء من البارزين فى عالم الطب والأدوية أو العلوم العامة والآداب، أما الأعضاء فهم الأشخاص الذين تخرجوا من جامعات معروفة أو حصلوا على رخصة من هذه الجامعات، ولا يحصل على عضوية هذه الكلية كل من كان تاجرا أو صانعا أو صيدليا أو ذاك الذى يرفض نشر طبيعة العلاج الذى يستخدمه.

أما "كلية الجراحين الملكية" فلها تاريخ أطرف من زميلتها، حيث يعود التفكير فى إنشائها لسنة ١٤٦٠، عندما أذعن

الملك إدوار الرابع للالتماس الذى رفعه إليه أعضائها -بإنشائها للطبيب المشهور والباحث الدكتور / توماس ليناكر، ففى عام ١٥١٨ ، وبمعاونة من الكاردينال الشهير ولسى، حصل هذا الطبيب على رخصة إنشائها من الملك هنرى الثامن ، وأصبح هذا الرجل رئيسا للكلية حتى وفاته فى عام ١٥٢٤ .

وكان النظام التأسيسى لهذه الكلية ينص على أن الغرض من إنشائها هو "كبح جماح الجهلاء ومدعى الطب وردهم على أعقابهم " . وينص النظام الأساسى أيضا على أن يعاون الرئيس أربعة أوصياء " يصححوا ويراقبوا الأطباء وأدوائهم فى مدينة لندن وما يحيط بها حتى سبعة أميال .. وأن يعاقبوا أو يوقعوا غرامات مالية أو يطالبوا بسجن المخالفين من الأطباء أو المدعين " . ويتكون هيكل الكلية من الزملاء والأعضاء المرخص لهم بالعمل فى المجال الطبى ."وينتخب الزملاء من البارزين فى المجال الطبى أو علم الأدوية أو العلوم العامة أو الآداب " أما الأعضاء فهم " الأشخاص الذين تخرجوا من جامعات معروفة أو حصلوا على رخصة من هذه الجامعات وليسو ممن يمتهنون مزج الأدوية أو يبيعونها .. وأن يكون تعليمهم كافيا وجديرا بالتحاقهم بكلية الأطباء . ولا يحصل فرد على عضوية هذه الكلية إذا كان تاجرا أو صيدليا

أو ذاك الذى يرفض نشر طبيعة العلاج الذى يستخدمه

أما كلية الجراحين الملكيه، فلها تاريخ أطرف من زميلتها، حيث يعود التفكير فى إنشائها إلى سنة ١٤٦٠، عندما أذعن الملك إدوار الرابع لالتماس الأحرار من حلاقى مدينة لندن الذين يحافظون على أسرار جراحاتهم الناجحة، وأن يسمح لهم بتكوين جماعة دائمة موحدة. وربما يبدو هذا غريبا، ولكن لو علمنا أن الشعوب البدائية كانت تنصب ساحر القبيلة كطبيب لها يعالجهم بالتعاويذ السحرية، بينما يكون الجراح هو حلاق القبيلة الذى يقوم بإجراء عمليات غامضة. على كل فان الإنشاء الفعلى لكلية الجراحين الملكية تم عام ١٥١١ م.

فى عام ١٥٤٠، توحدت كليتى الأطباء والجراحين فى جماعة واحدة ولم ينفصلا إلا عام ١٧٤٥، وتسمت كلية الجراحين الملكية باسم، "رؤساء ومحافظى فن وعلوم لندن". وفى بداية القرن التاسع عشر أصبح اسمها الرسمى "كلية الجراحين البريطانية".

لا يضاهى هذه الكليات أى جماعة فى العالم من حيث نهجها وتأثيرها، وبالمقارنة أصبحت فى منزلة تناطح الكليات الشهيرة بجامعات أكسفورد وكامبردج.

هذه الكليات تمتلك سمعة مدوية على مستوى العالم أجمع، لذا فان أى جهة علمية – كالجامعات المصرية مثلا– تشعر

بالفخار يملأ جوانحها إذا اعترفت بها هذه الكليات الملكية الاعتراف يعنى أن ترسل الكليات الملكية زائرا من عندها سنويا، ليعطى تقريرا يسجل فيه رأيه على مستوى الامتحانات، بمقتضى ذلك يتسنى للمتخرجين المصريين أن يتقدموا مباشرة لدخول امتحان نيل درجة الزمالة فى الطب أو الجراحة في لندن بعد العمل لمدة سنة كاملة على الأقل فى مستشفى بانجلترا. تمنح أيضا ميزة أخرى، هى السماح للدخول مباشرة لأداء الامتحانات التى تؤهل للحصول على درجة الزمالة فى الجراحة أو الطب (L.R.C.P, M.R.C.S) وذلك بناء على توصية الطاقم الطبى المصرى المختص، وبدون دخول الامتحانات التمهيدية للنجاح.

هذا الزائر الإنجليزى الذى يحضر لمصر فى الشتاء يتمتع بمزايا عديدة ممتعة، فهو يذهب إلى القصر الملكى ويتشرف بمقابلة جلالة الملك. ولأنه ضيف عزيز على الحكومة المصرية فإنه يتعرض إلى فيض من الكرم الحاتمي، فتقام على شرفه المآدب وتقدم له كل أنواع المشروبات الروحية الفاخرة وتوضع سيارة خاصة تحت تصرفه، لذا هو يتمتع بإجازة رائعة، هذا بخلاف ما تتكبده الحكومة المصرية من نفقات قدومه إلى مصر وكذلك مكافآته التى قد تزيد على خمسمائة جنيه إسترلينى.

عند مغادرته مصر، يكتب تقريرا يرفعه إلى الكليات

الملكية شارحا فيه حالة المستشفيات المصرية. نسخة من هذا التقرير يرسل لجامعة فؤاد الأول التى تحوله بالتالى الى كلية الطب ليتناقشوا فيما أثار انتباههم فيه، ثم يحفظونه فى ملفاتهم انتظارا لقدوم زائر جديد بعد سنة أخري.

عندما هبط الإلهام على الدكتور ليناكر لينشئ الكلية الملكية للأطباء، لم يتصور إمكانية أو ضرورة أن تمنح هذه الكلية زمالة أو اعتراف لأى كلية خارج الوطن. كان جل اهتمامه هو العمل على رفع مستوى وكفاءة وأخلاقيات المهنة داخل إنجلترا فقط، أما سياسة الاعتراف هذه، فإنها تعتبر حديثة نوعا. أخشى القول أن ليناكر ما كان ليوافق على مقتضيات إنشائها.

باختصار، فيما يختص بمصر، فإن الكليات الملكية تحرص على أن تكون الامتحانات المصرية على مستوى الامتحانات الإنجليزية، وأن تقدم النصائح - وهى نادرا ما يؤخذ بها - وتترك الأمور عند هذا الحد.

توضيحاً لهذا الأمر الأخير، فإنى أجزم أن مستوى الكليات الملكية بانجلترا مرتفع للغاية، فالتقليد الذى يحكمها هو التأكيد على المستوى الثقافى والأخلاقى وكذلك العادات والسلوك المهنى لطلابها، لكنها لا تهتم بشكل مكثف بتمام القيم الأخلاقية والمهنية للمتقدمين إليها لنوال درجة الزمالة من

المصريين. في رأيي وطبقا لخبرتي، فإن هذا السلوك خاطئ في حق الكليات الملكية ويصل الى درجة مأساوية، فهو لا يعطي المصريين فكرة مغلوطة عن الكليات الملكية فقط، بل يسيء إلى إنجلترا ذاتها !

لنواصل حديثنا، حيث أوضح هنا أنه بالإضافة إلى الاعتراف السابق ذكره فإن كلية الطب المصرية تستفيد من صلاتها بالمستشفيات الإنجليزية، فإلى حد ما تتشابه نظم ولوائح المستشفيات المصرية مع مثيلاتها بإنجلترا، فإدارة المستشفيات الإنجليزية، وعلى مدى سنوات عديدة اقتربت إلى حد الكمال، وربما تجد بعض الهنات هنا وهناك ولكنها على أية حال طفيفة ونادرة.

من البديهي أن المستشفيات أنشئت لخدمة المرضي، لكنه ليس هكذا الحال في المستشفيات المصرية، كما سأوضحه لاحقاً.

المستشفيات الكبرى في إنجلترا وويلز واسكتلندا، أنشئت وأديرت وتم تدبير التمويل اللازم لها بشكل تطوعي، فمواطني بريطانيا يعتبرون أن هذا واجب وضرورة ملقاة على عاتقهم ومصدر للسرور والفخار عندما يعطفون على تلك المؤسسات التي ترعى مواطنيهم الفقراء الأقل حظاً في الحياة، فيا لبهجة الروح عندما يضع الإنسان يده في جيبه ليساعد إخوته في

المواطنة، بالأخص المرضى منهم، وهو موقن أنه عندما تقتطع الدولة منه ضرائب مخصصة لنفس الغرض، ينتابه فورا شعور متفهم، كأنما هو قد تزوج بالوكالة، لكنه فى نهاية الأمر لن يرى عروسه أبدا.

إذا كان هناك ما هو حسن وفريد فى عالمنا البائس يفوق نظام مستشفياتنا التطوعية هذه، أعترف بأننى لم أسمع عنه بعد.

بلا استثناء، فإن طاقم العمل التطوعى لا يتقاضون أى أجر، ويراعون بصفة منتظمة زيارة أقسامهم ومرضاهم وطلابهم. بعض من هؤلاء الأطباء والجراحين، عندما يوجه إليهم تساؤل من مصرى يستفسر عن أسباب عدم حصولهم على أى أجر، فإن ردودهم ربما تكون كالتالى:

"نحن نفعل هذا لأنه واجب وعمل، إذا لم يتم بهذا الشكل فانه لن تقوم له قائمة أبدا"، وربما يرد نفر آخر قائلا، "إنه ليس من النخوة أن يسيء المرء إلى مريضه أو تلميذه"، ثالث يقول: "لأن هذا هو عملنا وواجبنا، ليس إلا".

فى الواقع، السبب الواضح لعملهم هذا هو كونهم قوم متحضرين أنشئوا بشكل راق منهجى ولهم خلفية متميزة نشأت من تراكم قرون عديدة من الحرية والثقافة الرفيعة.

إنه شيء بالغ العظمة والنفع أن يكون الإنسان حراً فى

دولة حرة، ولكن الحرية تحمل فى طياتها مسئولية هائلة تجاه من لم يذوقوا الحرية أصلاً، كفلاحى مصر الذين يرسفون فى الأغلال والعبودية.

لقد حكمت إنجلترا مصر ستون عاماً ثم سلمت الحكم لحفنة من الطبقة العليا المصرية من الباشاوات الذين أثبتوا جميعاً أنهم فاسدون وعديمو الكفاءة، لقد استغلوا الفلاح المصرى إلى أقصى حد ممكن.

لذا فإن شرف إنجلترا فى خطر، لا يمكن أن نترك هؤلاء التعساء لمصيرهم المظلم بدعوى أنه ليس لنا "مطامع استعمارية بعد انتهاء الحرب".

إن الفلاحين المصريين يستحقون أن يحصلوا على العدل والإنصاف، وبسبب العلاقات الوثيقة بين إنجلترا ومصر فى الماضى، لذا على الأولى إلتزام أخلاقى تجاه تلك الفئة المهيضة من البشر.

□□□

الفصل الثانى

لماذا أصبحت مدرساً للطب

تخرجت فى كلية طب جامعة أدنبرة ثم قضيت تسع سنوات كممارس فى جوهانسبرج بجنوب أفريقيا، بالإضافة إلى عدة سنوات أخرى قضيتها فى الجبهات المتقدمة أثناء احتدام معارك الحرب العالمية الأولي. وسرحت بعد انتهاء الحرب برتبة ميجور وعدت مرة أخرى إلى جنوب أفريقية لأكتشف أن العيادة التى أنشأتها هناك وكانت تدر علىَّ دخلا سنويا قدره ٢٠٠٠ جنيها إسترلينيا قد اختفت. وقد عرض علىَّ الطبيب الذى اغتصب مكانى مبلغ ٣٥ جنيها كنصيب لى فى العمل الذى أنشأته، ولن أطيل عليكم عما حدث بيننا من أمور، لكن يكفى القول إننى جهزت له هدية ثمنها ٣٥ جنيها وقدمتها له قبل مغادرتى إلى انجلترا.

بعد رحلة شاقة على ظهر الباخرة "سيراميك"، وهى سفينة ضخمة بيضاء - علمت أنها غرقت أثناء الحرب العالمية الثانية بطوربيد - حططت رحالى فى مدينة لندن مملوءا بالآمال العراض والحماسة الدافقة للعمل..

إلتحقت فورا بوظيفة طبيب نائب فى ريف انجلترا، وتبع ذلك إلتحاقى بعدة وظائف متشابهة، إلى أن صادفنى الحظ

الحسن وعينت كمساعد ثان فى مستشفى سانت مارى فى قسم الطب الإكلينيكى التعليمى فى مدينة بادنجتون. بشكل عام كانت خبرتي السابقة كممارس عام فى جوهانسبرج ذات فضل كبير عليَّ من جهة ترسيخ المبادئ الأساسية للطب الإكلينيكى للمتحمسين من طلبة الطب بمستشفى سانت ماري. مع ذلك، فإن الشهور القليلة التى قضيتها كطبيب فى الأرياف هى التى زودتنى بدرس بليغ لوّن بعد ذلك كل جهودى فى مجال التعليم سواء فى انجلترا أو فى مصر.

لقد ذهبت إلى الأرياف مسلحا بشهادة البكالوريوس التى حصلت عليها من جامعة أدنبرة وكذلك درجة الزمالة من الكلية الملكية للأطباء بلندن، هناك حصلت على خبراتى الأولى فى وصف الدواء. هذا كان يمثل لى عقبة بسيطة، لأن الدواء فى ذلك الحين كان عبارة عن مزيج جاهز فى زجاجات. لم يكن مطلوبا منى سوى إحكام إغلاق غطاء الزجاجة ثم أطوى حولها قطعة من الورق وأسلمها بعد ذلك للمريض. إنها عملية فى غاية البساطة، إلى أن حدث فى يوم ما أن عاد إليَّ أحد المرضى مستفسرا عن شيء ما، ولاحظت مندهشا أن زجاجته ملفوفة بإتقان بالغ وقمتها مدموغة بالشمع الأحمر بطريقة تخجل أعظم صيدلى فى شارع بوند.. إنها معجزة حقيقية، لكن كأى معجزة لها تفسير بسيط، فالسيدة العجوز

التى تعمل فى خدمتى وقد امتلأت حنانا وغيرة على عملى وممارستى تنتظر خارج الغرفة، وعندما يخرج المريض تأخذ منه زجاجة الدواء وتعيد تغليفها بشكل متقن ثم تشمع فوهتها بالشمع الأحمر كأى خبير محنك وبذلك تحفظ للمكان سمعته المقدسة.

أما رئيسى فى ذلك الوقت فقد أثبت أنه شخص لطيف للغاية ومدهش فى آن واحد، فهو طبيب ويشغل فى نفس الوقت وظيفة عمدة القرية بالإضافة إلى كونه لاعب جولف متميز، وكان يقضى أجازاته دائما فى نادى الجولف بالجوار. ذات يوم أعطانى قائمة مكتوب فيها أسماء كل السادة المعتبرين فى البلدة، وحذرنى من أن استجيب لنداء أحدهم قبل مخاطبته هو شخصيا تليفونيا من نادى الجولف وسوف يحضر هو على الفور. كان يعتمد فى معظم علاجاته على دواء واحد هو مزيج به "أيوديد البوتاسيوم" معتبرا إياه "المفضل" لديه.

فى أحد الأيام طلبته إحدى السيدات المبجلات فأسرع إليها ثم عاد مسرعا إلى العيادة متمايلا يهتز سرورا وطربا وقال لى، "لقد كشفت على سيادتها، يمكنك يا دكتور أن ترسل إليها (المفضل) بأسرع ما يمكن". بالفعل نفذت أوامره بكل دقة.

لقد قضيت فى هذه البلدة وقت طيب، قضيته فى الكشف على مرضاى وأصحح فيه تشخيص المرض وأغير من طرق وسائل العلاج.

أتذكر على وجه الخصوص حالة ورم سرطانى فى صدر سيدة عجوز غير قابل لإجراء عملية جراحية، عندما رأيتها للمرة الأولى لاحظت أنها تعانى من ألم ممض يحيل حياتها إلى جحيم لأسابيع متوالية، وقد وُصف لها أن تحقن بالمورفين دوريا، إلى أن حدث عجز فى هذه الحقن، وعجبت عندما قالت لى يوما إنها "ستكون ممتنة لى وحافظة لجميلي!"

كان هناك أيضا زميل مثلى مكلفا، تعلم هو أيضا درسا بليغا لا يقدر بالمال، فقد وجد فى يومه الأول إنه ملزم بالكشف على حوالى ثمانين من المرضي. عندما بدأ عمله الساعة التاسعة صباحا، أخذ فى فحص كل مريض يدخل له بكل عناية ودقة كما تعلم فى كلية الطب، وما أن بلغت الساعة الثانية عشر ظهرا حتى اكتشف أن هناك أربعون مريضا لم يكشف عليهم بعد، وصادف أن حضر إليه الطبيب الآخر الذى لم يدرك القطار المسافر إلى بلدته.. عبّر هذا الأخير عن بالغ دهشته قائلا له، "يا إله السموات، ماذا تفعل، ليست هذه هى الطريقة التى تدار بها عيادة للدولة.. تعال أعلمك كيف تتصرف فى مثل هذا الموقف". ثم اتجه نحو المرضى وخاطبهم

بشكل مرح، "أيها السادة من رجال أو نساء، كل من يشكو من كحة يرفع إصبعه" ثم أخذ يعد "واحد. اثنين. ثلاثة . خمسة عشر، من فضلك يا دكتور سلّم كل واحد من هؤلاء المزيج رقم ٢"، ثم عاد مرة أخرى ينادى "من يشكو من وجع البطن يرفع إصبعه، ماذا أحد عشر مريضاً فقط ؟ هذا أفضل بالتأكيد، من فضلك أعط كل واحد منهم زجاجة من المزيج رقم ٥". وهكذا حتى خلى المكان سريعا من كل المرضي. ثم خرج الطبيبان سويا ليستمتعا بالغذاء فى مكان آخر.

مثل هذه الأمور تحدث دائما عندما يقبض الطبيب راتبه، ليس لما فعله للمرضى ولكن لما يفعله للحكومة. لقد رأيت مثل هذا يحدث فى مصر، حيث يعتبر غالبية الأطباء موظفين فى الحكومة.

كثير من أطباء التكليف قالوا وهم فى النفس الأخير، "لو إننى خدمت مرضاى كما خدمت الدولة لما خشيت مقابلة أحدهم فى المكان الذى سأتوجه إليه الآن".

الممارس العام فى إنجلترا قبل تطبيق نظام التكليف كانت له سمعة حسنة ولا يماثله أحد من وجهة نظر المرضي، لأنه كان أكثر من طبيب – هو صديق. وأكثرنا ادعاءا لا يمكن أن يخون صديقه.

اليوم ليس أمامنا سوى ذلك الطاقم المحترم من أطباء المستشفيات، هؤلاء الرجال الذين لا يعملون من أجل المرتب، لكن ما يقود خطاهم هو تقليد مقدس متوارث ممن سبقهم.. وتحت أى ظرف أدعو الله أن يحفظ التقليد من الترس الحكومى المدمر.

لقد استقر فى ضميرى نتيجة لخبرتى أن هناك خطأ ما فى الطبيب المكلف كإنسان، أو ربما العيب فى طريقة تدريبه ومرانه.

من دراستى لطبيعة أخطاء الأطباء المكلفين، قرّ فى ذهنى أن العيب يعود لأسباب ثلاثة: إما ادعاء المعرفة والتصنع، أو الجهل المطبق، أو الإهمال فى فحص المرضى، مما ينتج عنه حالات التشخيص الخاطئ وبالتالى وصف العلاج السيئ.

من المعلومات المعروفة، أن المرضى الذين يحضرون للأقسام الخارجية بالمستشفيات وهم يعانون من صعوبة فى التنفس وتشخص حالاتهم بأنها قصور فى القلب، يتضح بعد ذلك، وبالفحص الدقيق، أنهم ربما يعانون من انسكاب بلورى أو أى مرض آخر يختص بالرئتين.

أنا نفسى عندما عرض علّى بعض مرضى الأقسام الخارجية وشخصوا بأنهم يعانون من قصور قلبي، وجدت بعد الفحص الإكلينيكى الدقيق أنهم مصابون بالتهاب رئوي..

هناك أمثلة كثيرة لأخطاء التشخيص، ولا يوجد عذر مقبول لمثل هذه الأمور.

أما ادعاء المعرفة فهى آفة موروثة فى كثير من طبائع البشر ويصعب استئصالها، ويجب أن يحذر طالبو الطب من خطورتها أثناء دراستهم.

أما الجهل فلا عذر له، فإما أن الطالب لم يستفد من الفرص التعليمية المتاحة له كاملا، أو أن معلميه فشلوا فى إرساء الأسس القويمة التى يستند عليها فى حياته العملية بعد ذلك كطبيب.

أما الإهمال والفحص غير الدقيق للمرضى فإن عذره أقبح. هنا ألوم مرة أخرى مدرسيه الذين يقع على عاتقهم واجب مقدس مفاده أن من واجبهم أن يدربوا طلبتهم جيدا فى المستشفيات التعليمية.

التعليم الطبى فى السنوات الأولى من الدراسة يمكن أن يحل كل هذه المشاكل. فعلى المدرس أن يرسى أساس طالبه طوبة إثر طوبة ويجعله ثابتا كأنما هو تلك الأحجار الضخمة المحيطة بالهرم الأكبر حتى يجد الطالب فى مستقبل حياته ما يتقنه ويسر به، وإذا فشل الطالب عن المتابعة والتحصيل الجيد وإذا لم يكن لامع الذكاء وذو فطنة واضحة، فإن أمله فى المستقبل سيكون عند حده الأدنى.

لا ينجح أى فرد فى الحياة إذا لم يكن واثقا من نفسه. الإنسان الذى لا يثق فى نفسه ويعتمد فقط على معارفه وأصوله لن يسعد أبدا فى حياته. ربما يستطيع خداع الآخرين فترة - معظمهم يفعل ذلك - لكن بأى ثمن !

فى الطب يقبض الطبيب فى راحة يده الواحدة على حياة مواطنيه. تشخيص خاطئ أو دواء خاطئ قد يؤدى إلى مأساة حقيقية، أو ربما تؤدى إلى موت مريض. الطبيب الذى يؤسس جيدا فى شبابه ينقذ عديد من الأرواح فى حياته.. ربما لا يحصل على التقدير الواجب، لكن ما الذى يهم ؟ إنه ينال رضى النفس لنواله النجاح بينما فشل الآخرون. فوق كل اعتبار يرى نفسه كرجل متميز فى عمله سعيدا فى مهنته.

لمدة ربع قرن عاهدت نفسى على غرس هذه المبادئ وأنا أدرس لطلبتى من الإنجليز أو الدومين أو المصريين. ربما سقطت بعض البذور على أرض مجدبة، لكنى مقتنع أن الكثير منها سقط على أرض طيبة مثمرة. أعلم هذا تماما لأننى تتبعت بكل دقة جهد وعمل عديد من تلاميذى بقدر كبير من المتعة والاهتمام.

فى أكتوبر ١٩٢١ التحقت بالهيئة العاملة من أطباء وحدة الفحص الإكلينيكى بمستشفى سانت مارى تحت رئاسة مديرها الدكتور فردريك لانجميد. هناك شملنى خوف وتردد

لأنني عادة متمسك بأفكارى الخاصة وخشيت أن لا يرضى هذا رئيسي، ولأنه دارس نظري، فربما يعتبر أفكارى بدائية وليست مناسبة للتدريس فى وحدته.

المعلومات الطبية الأساسية، أو الطب الإكلينيكى (السريري)، هو الفرع الذى يخشاه الطلبة، أما الأساتذة فهم لا يقبلون على تدريسه ويفضلون عنه ما يتيح لهم أن ينفشوا ريشهم أمام طلبة لا يفقهون شيئا وغير قادرين على تقدير ما يلقى عليهم، وقد لاحظت أن المدرسين المصريين متمسكون بهذا الاتجاه.

الدكتور لانجميد يعتبر من أفضل الأطباء وأعظم المدرسين الذين صادفتهم فى حياتي. لقد أعجبته أفكارى التى تطابقت مع وجهة نظره، وأطلق يدى فيما أراه مناسبا. فى الواقع، يجب أن يقوم بتدريس الطب الإكلينيكى القدامى من المدرسين، فالخبراء والمتخصصين العظام هم الذين يقدرون ويفهمون الأهمية الكبرى لتدريس هذا المنهج وضرورة فهمه على أسس قويمة. من الضرورى أن يتمكن الأستاذ أن يفرق بين الأصوات المختلفة لجسم الإنسان عند الفحص السريرى للمريض بدون تردد، وأن ينقل خبرته هذه للطلبة.. هذا بالطبع يستلزم سنوات طوال من التدريب فى أقسام المستشفى المختلفة. لقد عرفت العديد من المدرسين الذين يعارضون على

خط مستقيم أهمية هذا العلم ويؤكدون أنه ليس أساسيا بالمرة.

بعيدا عن مجال التدريس فى مستشفى سانت ماري، كنت مشرفا على المعمل الاختبارى، يعاوننى فى ذلك المساعد الثالث الذى يدرس مادة الكيمياء الحيوية ويفحص أيضا العينات الواردة من الأقسام المختلفة للمستشفي.

هنالك اندمجت تماما فى مجال الفحص المعملي، لكن معظم مهامى كنت أنجزها فى معامل الدكتور ألمورث رايت فى مدرسة الطب. هذا الرجل العظيم، هو الذى اكتشف تطعيم T.A.B الذى أنقذ عشرات الآلاف من الأرواح خلال الحرب العالمية الأولى وكذلك الحرب الدائرة الآن. هو من أعظم رجالات الطب، وطوال فترة الحرب واصل هذا الرجل أبحاثه فى معامل مستشفى سانت مارى وبالرغم أنه بلغ الثمانين من العمر، إلا انه كان منتظما فى الحضور ثلاث مرات كل أسبوع. إننى أحسد السير ألمورث، لأن هناك القليل من الرجال الذين يستطيعون إلقاء نظرة متفحصة على ماضيهم، ثم يقولون بكل ثقة، "وزنت بالموازين ولم أوجد ناقصا".

بمناسبة حديثنا عن الأبحاث، صدمت عندما توجهت لمصر واكتشفت أن العلماء المصريين نادرا أو أبدا ما يعترفون

بالجهود التى ساهم فيها مساعديهم، بينما يحدث العكس فى انجلترا. فإذا ساهم المساعد ولو بجزئية صغيرة فإنه يشار إليه عند النشر. أعرف أستاذا فى جامعة فؤاد الأول بالقاهرة نشر ١٧٥ مقالا بحثيا على مدى تسع سنوات، دون أن يشير أبدا لمساهمات مساعديه. مثل هذه الأمور تثبط همم الشباب المصرى وتقلل من حماسه للعمل البحثي.

كانت هناك اختلافات طفيفة فيمن قمت بالتدريس لهم فى مستشفى سانت مارى سواء من الصغار المبتدئين أو الأكبر منهم، ففيهم من تميز بالذكاء والمثابرة مما يؤهله أن يشق طريقه فى الحياة العملية بنجاح، وبعض منهم متوسط الجهد والفهم، والبعض الثالث – وكلى أسف فى القول– كانت عقولهم مركزة فى أقدامهم، لا تصل أبدا إلى مستوى أدمغتهم – هؤلاء الأخيرين كانوا هم مصدر سعادتي!

لقد مارست مهنة التعليم الطبى وفى ذهنى دائما هذه النوعية من المخفقين. عندما يحضرون لى للمرة الأولي، أقضى أسبوعا كاملا فى تقييم الفصل، وعندما أحدد أقلهم استجابة فى الفهم، كنت أركز جهدى عليه ولا أهتم كثيرا بالنابهين من المجموعة، بل أجعل هؤلاء كبطانة لى أستخدمهم وقت الحاجة.

طالما أن الأقل استيعابا منتظمين فى الحضور ومنتبهين لما أشرحه، كنت واثقا أنهم سيستوعبون ما ألقيه على مسامعهم

أو أريهم إياه. نتيجة لذلك، فإن الأقل موهبة أصبحوا قادرين على استيعاب كل المنهج فى الزمن المخصص لاكتماله، أما النابهين من الطلبة فقد تشربوا الطب الإكلينيكى كالاسفنجة، هؤلاء كانوا يتناقشون معى بعمق، يتضح بعدها إننى لم أكن ذلك المتخصص الذى كنت أظنه فى نفسي. من استثارة ويدعو للابتهاج أن ترى أمامك قماشة خام لا شكل لها ولا لون كأنما هى كأس الزهرة المنغلق على ذاته، ثم بعد فترة وجيزة يتفتح ليصبح زهرة رائعة تسر العيون، ثم تشاهد متعجبا باقى الأزهار وهى تتفتح تباعا بسرعة مدهشة. بعد شهرين من الزمان، تمسك بين يديك باقة جميلة يانعة من زهور شباب الإكلينيكيين الذين يبعثون فى القلب دفق متتابع من الزهو والسرور.

لكن على أية حال، كان هناك دائما عمل شاق وطحن مستمر يستغرق ساعتين كل يوم، حيث يجب على مدرس هذا الفرع من الطب أن ينشغل بعمله تماما باستغراق وحب متحملا كل مشاقه. أنصح كل من لا يلتزم بهذا النهج والأسلوب عند تدريس الطب السريرى أن يتنحى عن تدريس تلك المادة فهو لن يفيد طلبته أبدا، لأننا سوف نكتشف بعد ذلك، ونتيجة لعدم كفاءة من دربهم، أنه قد أضر بهم وهدد مصلحة أمة بأسرها.

من السـهل جدا أن يحضّر المدرس الدرس مستخدما المراجع الطبية، ثم يقف منتصبا أمام طلبته ويفرغ ما فى جعبته أمامهم، مع العلم بأنه يمكن لهم أن يطلعوا عليه من أى مرجع طبى وربما انتفعوا به أكثر. المدرس الناجح هو الذى لا يترك الطالب إلى أن يتأكد أنه قد علم كل ما يعرفه هو شخصيا عن الطب الإكلينيكي، وكذلك الطرق المتنوعة لفحص جسم الإنسان ويتيقن أن الدروس قد رسخت فى عقل ومدارك تلميذه، مما يؤهله للنجاح مستقبلا فى حياته العملية.

أخشى القول بأننى ركزت على مسألة تدريس مبادئ الطب الأساسية، لكن عذرى هو إنه خلال حياتى العملية لم أدرس سوى تلك المادة الحيوية.

فى مذكراته، يعترف الدكتور سكودا - وهو الطبيب الأوروبى العظيم - أنه خلال أربعين عاما لم يدرس سوى مبادئ الطب الأساسي. يذكر الرجل دائما فى تاريخ الطب أنه مكتشف لرنين غريب يسمع عند النقر على صدر بعض المرضي- سمى باسمه بعد ذلك - وهو بعبع طلبة الطب لأنه لا يسمع سوى بنقر الأصابع فوق تجمع السائل البلورى لرئة المريض.

فى خريف سنة ١٩٢٦ كنت فى مخبأ فى أحراش دوفنشاير، بينما البط البرى يطير متهاديا فى العلا ممتطيا

بساط الريح آتيا من جهات وزوايا مختلفة بعيدا عن نطاق بندقيتي، لذا اخترت مراقبة زوج أختى فى حفرة مجاورة وهو يصوب بندقيته ويطلقها بمهارة.. لقد أصاب ثمانية عشر طائرا، بنفس عدد الخراطيش التى أطلقها. لقد توصلت إلى هذه النتيجة بحصر عدد الخراطيش الفارغة الملقاة فى حفرته، كذلك بحصر عدد الطيور التى التقطها بعد ذلك. لو كنت فى حفرته هذه لتمكنت من اصطياد خمس بطات فقط وأصبحت فى منتهى السعادة والسرور بهذا الإنجاز.

هنا نرى مثالا عن إتباع الأسلوب العلمى المنهجى الذى نشأ من تراكم الملاحظة المستمرة وإعمال الذكاء، لقد حسدت قريبى هذا ولكنى لم أكن محبطا بأى شكل من الأشكال. كان هناك دائما أمام عينى حافز يدفعنى باستمرار لأن أتفوق وأن أصل الدرجات العليا من الكمال وخاصة فى عملى بمستشفى سانت ماري.

كرّت السنوات كرا وأنا أقضى حياتى فى رحاب المستشفي، أجد دائما أمامي كل ما يسر القلب ويثير الاهتمام، فى جو مملوء بالتوافق والزمالة الحقة التى يسندها نظام كفء رائع.

فى سنة ١٩٣٥ عينت مديرا مساعدا للوحدة الطبية فى المستشفي، هذا لم يؤثر على وضعى المالي، لكنه زاد من

فرصة حصولى على كرسى لتدريس الطب.

بعد سنة أخري، بالتحديد فى يونيو ١٩٣٦، فوجئت وأنا أسير فى إحدى دهاليز المستشفى بأحد الأفراد يضع يده على كتفى وهو يقول لى، "هل تود أن تحصل على كرسى لتدريس الطب ؟" فأجبته، "بالطبع أود .. ولكن أين ؟" فقال، "هناك وظيفة تناسبك تماما فى جامعة فؤاد الأول بالقاهرة.. ادرس هذا الموضوع جيدا واسعى فيه لأنى أرى أن فرصتك كبيرة"، فرددت عليه مبتهجا، "أشكرك يا دكتور فلمنج.. وسوف أتبع نصيحتك".

الدكتور ألكسندر فلمنج هو المدير المساعد للمعامل الضخمة بمستشفى سانت ماري، تحت رئاسة الدكتور ألمورث رايت ومن المتوقع أن يخلفه فى رئاستها. الدكتور فلمنج كما هو معروف، هو مكتشف البنسلين.

منذ خمسة عشر عاما كنت منهمكا فى بحث عن مرض الروماتزم الحاد، فى صباح يوم ما، ذهبت إلى معمل الدكتور فلمنج لأستشيره فى أمر ما، فأخذ بيدى قائلا، "تعال وأنظر إلى هذا". أشار إلى طبق يظهر داخله مجموعتين من التكوينات البنفسجية التى يتضح من مظهرها أنها نوع من العفن المختلط ببعض مستعمرات البكتريا staphylococci التى تسبب أعراض مرضية، مثل الدمامل وتسمم الدم. بعد

تفرسى فيها تساءلت، "وما شأنها ؟". قال لى، "هذا العفن ثبط من نمو البكتريا المجاورة لها".

من هذه الملاحظة ظهر إلى الوجود ذلك الدواء العجيب، ألا وهو البنسلين الذى يعتبر أهم اكتشافات القرن.

إننى أدين بالفضل للدكتور فلمنج لتشجيعه المستمر لى واقتراحاته البناءة فى أبحاثي، وقد زاد فضله عندما اقترح علّى التقدم لكرسى أستاذ للطب فى مصر. لكن من جهة أخرى، رمانى هذا العالم المتميز بدون قصد منه فى خضم معركة عنيفة وفى صراع يفوق كل جهد بذلته إثناء الحرب (العالمية الثانية).

ليس مما يسر القلب أن يناط بفرد واحد كشف أمور غير محببة تستغرق جامعة تعليمية بأسرها، لكن عندما تنضم الحكومة لهذا، ثم تجعل الأمور كلها كأنما نحن فوق خشبة مسرح عبثى متاح للجميع أن يلغوا فيه، فان هذا يفوق ويتجاوز أى محددات سياسية أو أكاديمية مهما كانت درجة فحشها وبذاءتها.

□□□

الفصل الثالث

مصر القديمة والمصريون

ربما من المناسب فى هذه المرحلة من الكتاب، أن أحكى لكم عن هذه المدنية الموغلة فى القدم والتى ارتفعت إلى الذرى ثم رزحت بعد ذلك تحت الحكم الأجنبى المتعدد لآلاف السنين وأصبحت كالهباء.

كمقدمة لهذه القصة وتعضيدا لها أرى لزاما علىَّ أن أوضح هنا أننى استقلت من وظيفتى كأستاذ للطب الإكلينيكى بجامعة فؤاد الأول بنهاية عام ١٩٤٣، بسبب الحالة المزرية للمستشفيات المصرية واستحالة تحقيق أى تقدم أو إصلاح لها، أيضا لأننى صممت أن أكافح تلك الحالة حتى نهايتها المرة.

قبل مغادرتى مصر سألنى محرر بجريدة البورص "LA BOURSE" قائلا، "إننى أتعاطف معك تماما لما تحاول صنعه للمرضى الفقراء من الفلاحين المصريين، لكنك فى الواقع تحاول مناطحة الصخر ولن تنجح أبدا، إنه أمر يحتاج إلى مسيح آخر يصنع معجزة" فأجبته، "فى الواقع إننى أخطط لبعث مليونين مسيح ليتعاملوا مع هذا الموضوع"،

فضحك المحرر وتسائل، "من أين ستحصل عليهم ؟" فأجبت، "أنهم موجودون فعلا، أنهم الرأى العام فى بريطانيا وأمريكا".. ما أن استمع إلى هذا القول، حتى بدت على وجهه دهشة بالغة. بالطبع لم يبدو عليه إنه مصدق لما أقوله، لذا بعد برهة من التفكير قال، "أعتقد إنه فى استطاعتك عمل نقرة فى الحائط برأسك، لكن على أية حال الهدف الذى تسعى إليه يستحق ذلك. أتمنى لك كل التوفيق".

إن مأساة مصر تنحصر فى أن الشعب البريطانى يعرف القليل عن أحوال الشعب المصرى، فالإنجليزى الذى يعيش فى مصر لا يهتم كثيرا بهذا البلد الذى حكمتها دولته سنوات عديدة. وقد علق اللورد كرومر المندوب السامى البريطانى السابق فى مصر قائلا في مذكراته كدبلوماسى، "إنه يأخذ فى اعتباره، أو بالأصح حكومته تأخذ فى اعتبارها، مصالح فلاحي يوركشاير وصيادى السمك في بارموث والصناع فى شيفيلد وإخوانهم من دافعي الضرائب، لكن ما شأن هؤلاء إذا سلخ جلد فلاحي مصر وهم أحياء بواسطة الباشاوات الجشعين أو عمد ومشايخ القرى المستبدين".

إن مصر بلد غنى قادر على البقاء، يستطيع بكل سهولة أن يدفع ثمن الإصلاح اللازم لإعطاء الفلاحين حقوقهم

المشروعة من معاملة طيبة ومستوى معيشي ملائم، بعد خمسة آلاف سنة من العبودية.

قبل الحرب مباشرة كنت أسير في أحد شوارع القاهرة عندما اقترب منى سائح أمريكي بادرني بالقول، "من فضلك، هل يمكن أن تدلنى على مكان المتحف المصرى ؟" .. كان اليوم جمعة - وهو يوم العطلة الأسبوعى للمصريين - كنت أنا بالمصادفة فى طريقى إلى المتحف، لذا دعوته لمرافقتي. بينما نسير، أبدى ملاحظة بقوله، "لقد أخبرونى أنه في أيام توت عنخ آمون، كان هؤلاء الناس متحضرين مثلنا، أنا لا أصدق ذلك"، هذا القول ضايقنى للغاية - كان رد فعلى مباشرا، "يا سيدى العزيز، هؤلاء الناس كانوا فعلا في غاية التحضر أيام أن كان أجدادك متدلين علي الأشجار وهم قابضين علي فروعها بذيولهم"، فنظر إلىَّ مندهشا وقال، "إذن أنت تؤمن بنظرية التطور لداروين". أجبت، "طبعا أؤمن بها، وأؤمن أيضا بنظرية الانحدار." فقال، "الانحدار؟ .. إننى لم أسمع بهذه النظرية" فأجبت، "إن شرح مفعولها أمر بسيط، لقد تطور الإنسان وبلغ الذروة أخلاقيا وثقافيا في حدود الأسرة الثامنة عشر المصرية، ثم بدأ بعدها فى الانحدار نتيجة لتغيرات حدثت فى إحدى غدده، هى الغدة

النخامية المستقرة فى المخ. كان التغيير الأول الملاحظ عليه هو نقص تدريجى فى الإدراك وتقدير القيم الأخلاقية، ثم تبع ذلك انحدار فى المستوى الثقافي. أخيرا عندما ينتهى التاريخ، فإنه سيصبح كالقردة، كله شعر ويظهر له ذيل، وسوف يُرى وهو معلق على أغصان الشجر، أو أن نراه وراء قضبان قفص فى حديقة الحيوان". هنا اهتم صديقى الأمريكى على مراقبتى بأطراف عينيه متشككا.

لكنه عندما شاهد آثار توت عنخ آمون، تملكته دهشة بالغة، لقد جعلته أولا يشاهد تاج الوجه القبلى والبحري، ثم قناع توت الذهبى، ثم الأثاث الملكى الذى يعتبر عصريا بكل المقاييس، كذلك شاهد المراوح المصنوعة من ريش النعام والتابوت والمركبات الملكية والمقتنيات الذهبية والزينات الأخرى.

يعتبر تاج توت عنخ آمون هو الأقدم فى العالم أجمع. كنت قد اقترحت على الصحافة المصرية أن يتوج الملك فاروق وهو لابسا هذا التاج، لكن تلك الفكرة غض النظر عنها باعتبارها ذات مظهر وثني. مع ذلك، أعتقد أنها لو نفذت، لجذبت إليها عشرات الآلاف من خارج البلاد ليشاهدوا التتويج، وأصبحت ذات فائدة عظمى لاقتصاد مصر وتعود بالتالى بفائدة

ملموسة للطبقة الفقيرة من المصريين.

يشرح السير آرثر ويجول فى كتابه المختصر عن تاريخ مصر القديمة، عن أحوال المجتمع المصرى خلال حكم الأسرة الثامنة عشر ويكتب، "كانت بيوت العظماء حينذاك متسعة تزين قاعاتها رسوم جدارية، وأحيانا يزين سقف الحجرة كلها معلقات خشبية محفورة تمثل عناقيد العنب المدلاة الملونة باللون الأخضر أو الأزرق. كانت المضاجع والكراسى والأسرة تكسوها جميعا الوسائد الوثيرة المزخرفة. فى كل مكان ترى الذهب المطعم باليشب والزمرد والبلور والعقيق واللازورد والعاج. الملابس أتقن صنعها عما قبل، فالنبلاء يرتدون الملابس الكتانية الرقيقة الشفافة، وأحيانا يتداخل فى نسجها الذهب وتزين حواشيها رسم الزهور. كل من الرجال والنساء يرتدون الباروكات الفخمة، كما فعلها أجدادنا منذ مائتين من السنين، وهذه الباروكات كانت تدهن بالعطور وتزين بالورود. كنت تستمع فى كل مكان للموسيقى تصدح وترى المغنين والراقصات واللاعبات على آلة الهارب والنافخين على الأرغول والعازفين والعازفات على الأعواد. سار النبلاء فى الشوارع ممتطين مركبات مذهبة تجرها أزواج من الخيول المطهمة التى تختال فى مشيتها وقد اعتلا رأسها ريش النعام". من

الواضح أن ما كان ينقص هذه المدنية هو تواجد السيارات والطائرات !

وبعدما غادرنا المتحف المصرى أسترد صديقى الأمريكى قدرته على الكلام والتفت إلىَّ قائلا، "أعتقد أنك كنت على حق عندما أخبرتنى أن أجدادنا كانوا يستخدمون ذيولهم للتعلق على الأشجار، عندما كان هؤلاء فى قمة المدنية".

إن الجهل بأحوال مصر منتشر فى كل بلد، لذا أرى لزاما علىَّ لكى أنجح فى مسعاى لعمل أى شىء لهذا الشعب التعس، هو أن ألقى بعض الضوء على مصر القديمة والحديثة.

مصر بلد مساحته حوالى ٣٥٠٠٠٠ ميل مربع. المساحة المزروعة منها لا تتجاوز ١٣٦٠٠ ميل مربع، الباقى عبارة عن أراضى صحراوية. الأرض المزروعة طويلة وضيقة ويبلغ طولها حوالى ١٠٠٠ ميل من وادى حلفا حتى الإسكندرية. عرضها عند قاعدة الدلتا حوالى ٢٠٠ميل. القطاع العامر المزروع من الدلتا فى اتجاه الجنوب يضيق تدريجيا، فى بعض الأماكن ما بين حلفا وأسوان قد لا يزيد الاتساع على بضع ياردات قليلة من كلا الضفتين

النيل هو حياة أو موت هذا البلد، انزع النيل فلا يتبقى

سوى الصحراء وروث البهائم. يعيش على ماء النيل ١٧ مليونا من البشر، لكن هذا الماء عامر أيضا بمسببات مرض خطير هو البلهارسيا، التى تقضي على آلاف من البشر كل عام، فى القرى وخصوصا فى الدلتا يعاني ٩٠٪ حتى ١٠٠٪ من البشر من هذا المرض اللعين.

التاريخ القديم يرجع إلى الملك مينا، الفرعون المؤسس للأسرة الأولي حوالى سنة ٥٥٤٦ قبل الميلاد. تابوت هذا الملك اكتشفه فلاحان كانا يحفران بحثا عن الماء فى بلدة أخميم بالصعيد فى نهاية عام ١٩٤٣، ثم تعثرا فى هذا التابوت المستكين في مكانه منذ آلاف السنين. عثرا أيضا على بعض العملات الذهبية تزيد قيمتها عن ٥٠٠٠٠ جنيه إسترلينى يرجع تاريخها إلى أيام تحتمس الثالث (١٥٠١-١٤٤٨ ق.م) وخبأ الكنز، لكن أمرهما انكشف وقبض عليهما. الآن ترعى الحكومة المصرية هذه المقتنيات وتهتم بهذا التابوت.

اسأل أى إنجليزى عن مصر، فيجيبك بأنه المكان الذى تتواجد فيه الإهرامات وأبو الهول، وهى الآثار الوحيدة المتبقية من عجائب الدنيا السبعة.

الإهرامات هم ثلاثة، الأكبر بناه الملك خوفو(٤٧٧٧ ق.م) والثانى بناه خفرع والثالث منقرع، كلهم من ملوك الأسرة

الرابعة. خوفو هذا يأتى ترتيبه الثانى فى ملوك تلك الأسرة.

كلما شاهدت الأهرام تملكنى الذهول والعجب من ذلك العقل الجبار الذى صممها وأنشأها. كيف استطاع المهندسون منذ خمسة آلاف من السنين أن يبرعوا بهذا الشكل المنقطع النظير وليس لديهم من أدوات العمل سوى الأيدى العاملة الوفيرة ؟

هرم خوفو هذا يرتفع ٤٨٠ قدما، بذلك هو أعلى من كاتدرائية القديس بولس ب ١٥٠ قدم. استخدم الفرعون فى بنائه مئة ألف عامل لمدة ثلاثين سنة يعملون ثلاثة شهور كل عام أثناء شهور فيضان النيل عندما تتوقف أعمال الزراعة، وكانوا يعملون بطعامهم فقط دون أى أجر. ولعل سخرة الفلاحين بدأت منذ ذلك الحين. فى داخل حجرة دفن الملك خوفو تابوت حجرى يزن حوالى ٣٠ طنا. كيف استطاع الفلاحون رفع هذا التابوت لمسافة ٢٠٠ قدم ليستقر فى منتصف الهرم تماما ؟ شىء لا يصدقه عقل. بالتأكيد هناك المئات الذين دهسوا حتى الموت، وآلاف غيرهم ماتوا أثناء إنشاء هذا الهرم.

يحكى هيرودوت أن خوفو أجبر الفلاحين على العمل فى خدمته، وادعى أنهم تعرضوا لكل أنواع الذل والبؤس أثناء

حكمه، ثم حكم بعده الملك خفرع الذى بنى الهرم الثاني.

وقد فتح باب الهرم الأكبر عنوة وتعرض للتشويه أثناء فترة حكم أحد الخلفاء المسلمين (المأمون) فى القرن التاسع الميلادى ونزعت كسوته الخارجية لاستعمالها فى بناء بعض المساجد وكذلك سور القاهرة. بالرغم من كل هذا، فهو يعتبر من أعظم أعمال البشر روعة وجلالا. هذا ويغطى قمة هرم خفرع كسوة من الألابستر، أما بقيتها فقد أُنتزعت، ويمكن مشاهدة بعضا منها الآن فى مسجد محمد على باشا بالقلعة.

يقع أبو الهول بجوار الاهرامات. هو ذا جسد أسد ووجه إنسان ويظن أنه نحت ليكون بمثابة حارس لمدخل وادى النيل. هذا التمثال المهيب يحملق متأملا الأبدية بعيون حزينة مطموسة، لا أعتقد أنه يمثل الموت كما يعتقد بعض المصريين، لكنه فى رأيى ما هو إلا مذكر دائم بالتدهور التدريجى للحضارة المصرية خلال عهود متوالية من العبودية.

إن القيم الأخلاقية للمصريين القدماء كانت فى المستوى الأعلى من التقدم والرقى والتحضر، وقراءة الاعتراف السلبى الذى يردده المصرى الميت عندما يوزن قلبه وهو فى حضرة أوزوريس تعطينا لمحة عن الأفعال التى كانت تعتبر حينذاك خاطئة وموجبة للعقاب. فبالإضافة إلى الخطايا العشر التى

وردت مثيلتها فى الوصايا التى تسلمها موسى النبي، فإن قائمة المصرى تشتمل أيضا على:-

"إننى لم أظلم الفقير أو الأرملة أو اليتيم، ولم أتدخل فى حقوق الآخرين فى استخدام المياه ولم أغش فى الموازين، لم اشترك فى أى عمل مذر. ولم أبذر بذرة النزاع والخصام بين الناس......".

فى الواقع، هى قائمة أخلاق شاملة ومدهشة نعجب لصدورها فى ذلك الوقت المبكر من حكم الأسر الملكية المصرية,

هناك دائما سؤال ملح يصعب الإجابة عليه: هل حُكمت مصر أبدا بملوك مصريين حقيقيين ؟ فمثلا حكم مصر الهكسوس أو الملوك الرعاة الذين أتوا من شمال وشرق سوريا حوالى سنة ١٨٦٠ ق.م وأصبحوا ملوك الأسرة ١٣ حتى الأسرة ١٧ التى انتهت سنة ١٧٠٠ ق.م، من المحتمل أن يوسف كان مشيرا لأحد الملوك المتأخرين من الهكسوس.

أثناء مُلك الأسرة ١٨ (١٥٨٠ ق.م) تحت حكم الملكة حتشبسوت التى تعتبر من أعظم ملكات مصر وكذلك تحت حكم ابن زوجها تحوتمس الثالث بلغت مصر أوج ثرائها المادى والحضاري.

أما توت عنخ آمون الذى وُجد قبره فى وادى الملوك سليما ولم يتعرض للنهب واكتشفه مستر كارتر بتمويل من اللورد كارنافون سنة ١٩٢٢، فقد نال شهرة صنعتها الصدفة البحتة. هو ملك صغير ظهر فى أواخر حكم الأسرة ١٨، توفى فى سن السابعة عشر وبعد وفاته استولى أحد الموظفين الكبار فى البلاط على قبره. بكل حرص وعجلة نقل مومياء توت ومتعلقاته الجنائزية إلى مدفن صغير مجاور وأوصى أن تدفن مومياته ومتعلقاته فى مدفن توت. بمرور الزمن، نقب اللصوص قبر هذا العظيم واستولوا على كل ما فيه، لكنهم لم ينتبهوا للمدفن المجاور. بذلك أصبح مدفن توت عنخ آمون هو الوحيد الذى بقى سليما تقريبا ولم ينهبه اللصوص.

لأننا أشرنا إلى موضوع النهب هذا، نتذكر تلك السرقة الحقيرة التى حدثت قبل الحرب العالمية الأولي، حيث يوجد الآن فى ألمانيا رأس الملكة نفرتيتى زوجة اخناتون. هذا الفرعون هو الذى نشر بين أتباعه عبادة الإله الواحد، إله الشمس (آتون)، أو بالأصح القوة التى تقف خلف الشمس، وقد خلف اخناتون فى الملك زوج ابنته توت عنخ آمون.

رأس نفرتيتى هذا يعتبر من أجمل المقتنيات المكتشفة فى مقابر المصريين القدماء وقد سرقه رجل ألمانى وهرب به خارج

مصر بعدما وضع فوقه طبقة طبقة غبية مشوهة من الجبس تمثل رأس إنسان. عندما يُجبر الألمان على لفظ ما اغتنموه، فإنه يجب أن يعيدوا هذا الرأس إلى البلد الذى سلب منه.

أثناء حكم الأسرة ١٩ وبعد انتهاء حكم رمسيس الثانى، تدهورت الحضارة المصرية ولم يتوقف بعد ذلك هذا التدهور. طبقا لوجهة النظر التقليدية، فإن خروج بنى إسرائيل من مصر حدث فى أيام هذه الأسرة فى عهد الملك مرنبتاح (١٢٣٤-١٢١٤ ق.م)، لكن الأكثر احتمالا هو أن الخروج حدث قبل هذا التاريخ بمئة من السنين.

إذا ذكرنا الأسرة ٢١ فإننا نتذكر أن الملك سليمان بن داود (١١٠٠ ق.م)، الذى تزوج من بنت آخر فرعون من هذه الأسرة. أما الفرعون شيشنق (٩٥٠ ق.م) فهو من الأسرة ٢٢ وهو الذى هجم على أورشليم وحمل معه "خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ أتراس الذهب التى عملها سليمان" (إخبار الأيام الثانى ٩:١٢). وقد عرضت جمجمة هذا الفرعون على المؤتمر الطبى الحربى الإنجليزى بقسمى فى مستشفى فؤاد الأول بالقاهرة فى مارس , ١٩٤٣

وفى عهد الأسرة ٢٥ (٧٠٠ ق.م)، قهر السوريون مصر، وأصبحت مصر منذ ذلك التاريخ تحت حكم الآخرين. فى عهد

الأسـرة ٢٧ حـتى ٢٩ أصـبحت مصـر تحت الحكم الجـائر للفـرس، ثم طرد الإسكندر الأكـبـر هؤلاء الفـرس سنة ٣٢٢ ق.م، وبذلك بدأ الحكم البطلمى منذ سنة ٣٢٣ ق.م، ثم تبعه بعـد ذلك فى سنة ٣٠ ق.م حكم الرومـان. ثم هزم العـرب الرومان سنة ٦٤٢ م واستولوا على مصر، وأسس الفاطميون القاهرة والأزهر الذى هو أقدم جامعة فى العالم سنة ٩٦٩، ثم انتـزع صـلاح الدين الأيوبى (١١٦٩-١١٩٣ م) الحكم من الفـاطميين، وهو كمـا نعلم الخصم الشريف لريتشـارد قلب الأسد إثناء الحرب الصليبيـة. بعد ستين عـامـا، فى عام ١٢٥٠م استولى المماليك على الحكم، واستمر حكم العبيد لمصر مـدة قرنين ونصف من الزمـان حتى استولى السلطان سليم الأول التركى على حكم مصر سنة ١٥١٧ م.

المماليك هم عبيد بيض الوجوه جلبهم سلاطين العرب من بلاد القـوقـاز وآسـيـا الصـغـرى ليـصـبـحـوا حـراسـهم الخـصـوصـيين. هناك عـهـدين لحكم سـلاطين المماليك وهمـا المماليك التركية والمماليك الشركسية.

حكم هؤلاء المماليك يعتبر من أغرب الأمور التى حدثت فى التـاريخ، فملوك العـالم أجمع كـانوا يقـتنون العـبـيد على مـر العصور، لكن سلاطين المماليك كانوا عبيدا يباعون فى أسواق

النخاسة وكانوا يفتخرون دائما بأصلهم هذا. لم يكن بينهم نظام لوراثة العرش وكقاعدة عامة كان السلطان يتم اختياره بسبب شجاعته الشخصية وقوة شخصيته ومدى دهائه، إلا أنهم كانوا أكثر الحكام استنارة منذ عهد الفراعين. لم يكونوا فقط أسخياء فى رعايتهم للفنون والآداب بل أن مشروعاتهم الهندسية والإنشائية ولا سيما فى مجال الرى والصرف كانت متقدمة بشكل ملحوظ فى زمانهم. مع ذلك، فقد كانت أخلاقهم شرسة، فهم عديمو الرحمة، يهتمون أولا وأخيرا بالحرب والقتال واستطاعوا إخضاع كل المصريين لسيطرتهم، فاستسلم هؤلاء ولم يبدوا إلا القليل من المقاومة، بذلك أصبح المصريون عبيدا للعبيد ! . لا توجد أمة سوى تلك التى دمرت روحها تماما، تقبل وتتحمل مثل هذا الوضع الشائن. للأسف، فإنهم ما زالوا عبيدا للعبيد حاليا، حيث يتحكم فيهم طبقة الباشاوات الرجعية.

لنواصل التاريخ المختصر لمصر ونقول: استولى نابليون بونابرت على مصر سنة ١٧٩٨م، وبعده حكم البلاد محمد على باشا التركي الألبانى وهو مؤسس الأسرة العلوية الحالية، ثم بدأ الاحتلال البريطانى لمصر سنة ١٨٨٢ واستمر ٤٠ عاما حتى سنة ١٩٢٢ عندما مُنح المصريين استقلالهم !

ولمدة ٢٠ عاما تالية أصبح الإنجليز حكاما افتراضيين لمصر. لكن ما النتيجة ؟

قبل تصريح سنة ١٩٢٢ بخمسة عشر عاما ذكر اللورد كرومر فى مذكراته الآتي، "دعنا نفترض أن التكامل الأخلاقى والإمكانيات الايجابية، ولو لنفر قليل من المصريين، قادر فى سنوات قليلة أن يؤهلهم للتدريب على أساليب الحكم والإدارة لدرجة أن يسمح لهم وبمفردهم قيادة بلد ملئ بالمطيات السياسية، ويملك أعقد الأجهزة الحكومية التى عرفها العالم، ويسيروا دفة الحكم تحت ظل حكومة تسير أمورها إلى حد ما باستقامة وبدون تعثر.... كل هذا تصور يعتبر سخيفا وغير واقعى. اعتذر لقرائى الذين على معرفة جيدة بالأحوال المصرية عندما أشركهم فى هذا التصور الشاذ، وقد عبرت عن نفسى بهذه الطريقة لأن هناك من لا يزالون يحلمون أحلاما مستحيلة التحقيق".

هل كان اللورد كرومر على حق فى قوله هذا ؟ فى الواقع الحكومة الحالية التى يسيرها الباشاوات المتخلفين تدل على صدق كلامه.

إذا نظرنا إلى الموضوع من زاوية أخري، ونضرب بذلك مثلا عن حالة الجامعة المصرية، بالأخص كلية الطب

والمستشفيات المصرية، فإننى سأبرهن لكم أن الحالة أصعب بكثير مما تصوره اللورد كرومر.

فآلاف السنين من العبودية كانت كفيلة بسحق القيم الأخلاقية للمصريين، وواربت فعلا قدراتهم العقلية والأدبية، لدرجة أنهم أصبحوا غير قادرين على حكم أنفسهم، أو حكم أى أحد غيرهم. لقد فشلوا فى ذلك تماما. أيضا فشل الإنجليز بعد عهد كرومر، باستثناء لويد وكتشنر.

يجب أن تُتبع سياسة جديدة لتسيير أحوال الحكومة المصرية. يجب أن يبدأ الإنجليز من جديد. مما لا شك فيه أنها مهمة صعبة، لكن إذا اتبعت الخطوات الصحيحة فربما تنجح، على أية حال فإن تلك السلالة من الناس الذين بنوا الهرم الأكبر العظيم ولو بالسخرة، هم مؤهلين تماما لأن يحصلوا على العدل، ولو انه عدل متأخر، فالأحوال الحالية لمصر لا يمكن السكوت عليها. فالعبيد من الفلاحين الغلابة يجب أن يعتقوا ويتحرروا بالقوة إذا لزم الأمر.

□□□

الفصل الرابع
الطلاب المصريون هذه الأيام

حصلت على الانطباع الأول عن خصائص الطبقة الحاكمة كأستاذ لتعليم الطب الإكلينيكى بكلية طب القاهرة فى أكتوبر ١٩٣٦، وكانت جريدة (لانسيت) قد أعلنت عن هذه الوظيفة كعقد يستمر مدته خمس سنوات قابلة للتجديد.

بمجرد تعيينى أُخطرت بأن الوظيفة غير قابلة للتجديد. لكنى لم أكن مستعدا لقبول هذا الأمر، فأخطرت مسئولى الكليات الملكية للأطباء بذلك، إلا أن المسجل نصحنى بعدم رفض هذا التعيين، وأخبرنى بأن العلاقات وطيدة بين الكليات الملكية والمستشفيات المصرية، وإنهم مهتمون بشكل جدى بتقدم الطب فى مصر، وإننى إذا رفضت المنصب فإنهم سيعينون طبيبا مصريا مكاني، وأن الطب المصرى ليس مستعدا لذلك بعد. فى النهاية، قبلت العرض وقدمت استقالتى من عملى بمستشفى سانت مارى وانتظرت تعليمات القدوم إلى القاهرة المتوقع صدورها من عميد كلية الطب بالقاهرة.

لكن وللعجب لم يحدث شيئا ! مرت أسابيع وشهور ولم يحدث شىء ما. ابتدأ القلق يأخذ بتلابيبى ويزحف إلى أفئدتنا جميعا بمستشفى سانت مارى، بالأخص لمن سيخلفنى فى

منصبى وكذلك رئيسى الدكتور لانجميد.

كتبت خطابا إلى الدكتور على إبراهيم باشا عميد كلية طب القاهرة، لكنى لم أتلقى أى رد منه، فكتبت له مرة أخرى، لكن أيضا بلا جدوى. بعد ست شهور كاملة وصلنى خطاب يخطرنى بضرورة حضورى للقاهرة فورا.

وصلت القاهرة فى ٢٨ مايو ,١٩٣٧ كان هذا الوقت هو بداية موسم الصيف، حيث ترتفع درجة الحرارة والرطوبة بشكل لا يطاق. تقريبا كان طاقم التدريس بأكمله فى أجازة، إلا أن الطلبة كانوا متواجدين للدراسة، لذا لم أضيع الوقت بل شمرت عن ساعد الجد وبدأت فورا بالتدريس الذى أعتبره عماد حياتي.

عميد كلية الطب بجامعة فؤاد الأول الذى قدمت له نفسى بمجرد حضوري، كان يشغل هذا المنصب منذ عشر سنوات. هو أول مصرى يحقق هذا، وقيل لى انه من أعظم الرجالات المصريين، فهو الجراح الأول ومؤسس المستشفى الجديد التابع للكلية. أما عن نفوذه – كما قيل لى – فهو بلا حدود. هو على علاقة طيبة بالقصر ومجلس الوزراء، ونظرا لمهارته الجراحية فهو محبوب لدى كل الأحزاب المصرية والدوائر الاجتماعية المختلفة، فلا يوجد ما لا يستطيع تحقيقه سواء لكليته أو مستشفاه، لذا فكرت– إذا كان هذا الكلام صحيحا

- أننى فى الواقع وجدت الشخص المناسب لأتعاون معه لجعل الطب المصرى مقاربا فى مستواه للمستشفيات الكبرى بانجلترا.

مظهر هذا الرجل يشبه فى شكله بعض تلك التماثيل التى تراها فى متحف الآثار بالقاهرة، فهو صغير الحجم، غليظ الشفتين، عيونه بنية مقاربة للسواد، بشرته سمراء داكنة، هو من سلالة وصفها شامبليون وآخرين بأنها لا تمت بصلة ما بقدماء المصريين.

بعد أن قدمت نفسى إليه بكل احترام، وجهت ناظرى واهتمامى لطلبة كلية الطب، هنا بدت لى مفاجأة سارة وغريبة فى نفس الوقت، هؤلاء الشبان ممتازين فعلا ومماثلين لمن كنت أدربهم بمستشفى سانت ماري، واثنين من المجموعة الأولى يمكن أن يوصفوا بأنهم بارعين .. هما الآن نائبين بمستشفى الكلية. لذا نحيت موضوع الجو الملتهب بالحرارة والرطوبة، وبدأت فورا فى حفر الأساس القوى الذى عرفت مثيله بمستشفى سانت ماري. كل الطلبة استجابوا لى وتناغموا معى، سوى طالب واحد، هو للأسف ابن سيادة العميد.

هذا الفتى كان دمث الأخلاق، إلا إنه لم يبد أى اهتمام بالطب الإكلينيكي، كان واضحا أنه ينوى أن يصبح جراحا مثل أبيه، لذا بالكاد حضر لى محاضرات الطب السريري.

فى نهاية الفصل الدراسى الأول دفعنى اهتمامى به أن أكتب للعميد عنه، مخبرا إياه بأن ابنه سيواجه مصاعب فى اجتياز الامتحان النهائى للتخرج إذا لم يهتم أكثر من ذلك بدراسة مبادئ العلوم الطبية.

كانت هذه هى غلطة العمر بالنسبة لي، لم يستوعب سيادة العميد مقصدى النبيل، وبدا كأنما هو رافض تماما لأى كلمة نقد توجه لأحد من أفراد عائلته. لو كنت قد علمت مسبقا عن السياسة التعليمية الطبية المصرية لما فكرت أو حتى حلمت فى إبداء اقتراحات وتحذيرات تقول بأن ابن العميد الذى يعلم القليل من العلوم الطبية الأساسية، هناك احتمال أن يرسب فى هذا العام.

فى نهاية صيف ١٩٣٧، كنت قد أنهكت تماما لدرجة أننى أجبرت على السفر إلى قبرص لمدة أسبوع واحد لألتقط أنفاسى وأجدد نشاطي. كانت الرطوبة فى القاهرة لا تطاق لدرجة أننى كنت مضطرا أن أغير ملابسى الداخلية أربع أو خمس مرات نهارا ومثلها ليلا، فمصر ليست دولة مناسبة لأوروبى يتعايش فيها فى موسم الصيف، والأثرياء المصريون غالبا ما يقضون الفترة من شهر يونيو حتى سبتمبر فى أوروبا هربا من حر مصر.

بعد عودتى من رحلة قبرص ذات الجو البارد والتلال

المبدورة بأشجار الصنوبر، وجدت فى انتظارى مجموعة من قدامى الطلبة لأقوم بالتدريس لهم. بعد احتكاكى بهم، أدركت أن تعليم مبادئ الطب الإكلينيكى العملى بالمستشفيات لا يكاد يذكر، فهؤلاء الطلبة درسوا سنة كاملة سابقة وكثير منهم على علم بأحدث المستجدات فى الطب، إلا إنهم أحيانا لا يستطيعون التمييز بين طرفى السماعة الطبية، لذا اضطررت أن أغوص أكثر مما أتوقع فى شرح مبادئ الطب الإكلينيكي.

أكدت لهم فى محاضراتى أن الطب هو أسمى ما يناط للبشر من مهام، انه ليس مجرد وسيلة لكسب المزيد من المال، واستعرت قول اللورد ليستر، "جسم الإنسان هو معبد الإله الحي، يجب أن ينظر إليه دائما ويعامل كمخلوق مقدس".

أخبرتهم أنه فى الطب، ليس هناك فرق بين الباشا والفلاح، وإنهم عندما يفحصون أى مريض فى أى قسم من أقسام المستشفي، يجب أن ينظروا إليه كأب أو أم أو أخ أو أخت، وأكدت عليهم أن الفلاحين الذين يأتون إليهم هم فى الواقع أناس طيبين معترفين بالجميل إذا عوملوا معاملة حسنة، بدلا من النظر إليهم كما لو كانوا قطع من الأثاث.

بعد انتهاء إحدى محاضراتي، أتى إليَّ طالب وتساءل، "لماذا لم يعلمنا أحد مثل ما تقوله لنا ؟ بينما هناك ما يؤكد أقوالك من نصائح رسول الإسلام الذى قال: ليس مؤمنا من

لا يحب لأخيه ما يحبه لنفسه".

كنت أهتم بمبدأ إتباع الخطوات العلمية السليمة مع مراعاة الدقة الكاملة فى فحص المرضي، لتحقيق ذلك شرحت لطلبتى نظرية الموسيقي، فمعظمهم كان يتفاعل مع النغمات الموسيقية، بالتالى لا يصعب عليهم تفهم الأصوات المختلفة لدقات القلب.

شرحت لهم أن رتم النغمات لا تعنى فقط التمايل معها، فكل شيء فى العالم له رتم خاص، القلب والرئتين وأمواج البحر وصوت الآلات والحياة نفسها كل له لحن ورتم مميز، والكثير من وسائلى التعليمية فى أقسام الكلية المختلفة التى عملت بها كانت تنصب على تشريح دقائق الطبقة والمقام والرتم فى الطب. كنت دائما أحث طلبتى أن يدققوا جيدا عند فحص المرضى وينتبهوا للأصوات المختلفة عند الدق على أجهزة الجسم المختلفة أو التسمع عليها، إنه واجب عليهم أن يبحثوا ويدققوا عن أى اختلاف فى الرتم أو الطبقة المعتادة. إننى لم اسمع عن أى مدرس اهتم بتعليم تلاميذه نظرية الأصوات الموسيقية هذه، كما فعلت أنا.

فى إحدى الحفلات الترفيهية التى أُقيمت بجزيرة الشاى بحديقة الحيوانات بالجيزة، تقدم أحد الطلبة الصغار وقدم عرضا مرحا يقلد فيه هوايات أساتذته، وركز على أن هوايتى

الوحيدة هى فى مجال النغمة والمقام والرتم، لكنه كان مخطئا بالطبع، لأن هوايتى المفضلة هى لعب الجولف.

سنوات عديدة من الخبرة علمتنى أنه عندما يقترب الدارس من جانب المقام والرتم والطبقة فى المؤشرات الجسدية، فإن تقدمه فى مجال الطب الإكلينيكى سوف يصبح مؤكدا ومستمرا، وأن أساسه العلمى سيكون راسخا غير مزعزع.

كان لدى طالبة واحدة فقط لا تستطيع تمييز النغمات الموسيقية المختلفة التى يصدرها الجسم الإنساني، كانت هى طالبة لى فى مستشفى سانت مارى التحقت بدراسة الطب فى سن متأخرة، كان الصوت الخافت والعالى كليهما بالنسبة لها متماثلان. أخبرتنى يوما أن كل ما تعرفه من أنغام هو نشيد "حفظ الله الملك"، ولا تميزه مؤكدا إلا عندما ترى الناس وقد وقفوا زنهارا عند انتهاء حفلة موسيقية. لقد اضطرت هذه السيدة إلى هجر دراسة الطب لأنه كان مستحيلا عليها أن تجوز الامتحان النهائي. قالت لى أنها لو كانت قد نجحت، لتحولت حياتها إلى جحيم حقيقى ومأساة، لأنها لن تكون متأكدة بشكل قاطع من تشخيصها للمرض، بالتالى لن تتمكن من وصف الدواء المناسب.

الطالب المصرى له ميزة تفضل الطالب الأوروبى، فهو له

ذاكرة ممتازة، وهذا يعود إلى أن أجداده لم يكونوا متعلمين، ولمدة ١٥٠٠ سنة حفظوا القرآن شفاها، هناك بعض شيوخ المساجد يستطيع تسميعه من البداية إلى النهاية عن ظهر قلب.

لكن للأسف، يبدو أن مركز الذاكرة فى ذهن الطالب المصرى قد نما على حساب قدرته على تحكيم المنطق وكيفية الاستخدام العملى للمعلومة التى استظهرها فى ذاكرته العجيبة، كثيرا ما كنت أسال طالبا سؤالا فى الامتحان النهائي، فأجده ينظر إلى السقف ثم يستعيد السؤال لنفسه ثم يسرد أمامى ما كُتب فى صفحة كاملة من مرجع طبى طبعت كلماتها فى تلافيف ذاكرته من التكرار المستمر، مثل هذا الطالب يصدم عندما يواجه بامتحان الطب الاكلينيكى حيث يجب أن يعتمد على نفسه وعلى قدرته الخاصة فى الملاحظة والإدراك.

مع ذلك، ففى أغلب الأحيان يعتبر التطور العملى لتعليم الطالب المصرى هو نتاج جهد ونشاط مكثف من جهته ومن جهة أستاذه أيضا.

الصعوبة تنشأ هنا فى محاولتك كأستاذ أن تجعل الفصل يفكر ويمنطق الأشياء، إنهم يتوقعون دائما أن يقوم الأستاذ باستخدام ملعقة يسقيهم بها العلم، ليحصلوا على أكبر قدر

من المعلومات بأقل قدر من الجهد.

على جدار معملى الطبى بجامعة فؤاد الأول انتصب أو كان ينتصب رسمين، الأول يمثل الطلبة النابهين - حيث ترى مجموعة من الكتاكيت تنبش الأرض باحثة عن الطعام، والأخرى تمثل الطلبة الفاشلين - حيث ترى مجموعة من العصافير الجائعة وأفواهها مفتوحة عن آخرها يصرخون فى طلب الطعام. فكرة هذين الرسمين قديمة كنت قد استعرتها من أحد أساتذتي.

هاتين الصورتين أثارتا فضول الطلبة واهتمامهم لدرجة أنهم طلبوا منى السماح لهم بنشرها فى مجلتهم، بالطبع وافقت لأن رغبتهم هذه وضحت أنهم بدءوا فعلا إدراك موطن الضعف لديهم وإنهم على استعداد لفعل شيء ما لعلاجه.

كان أسوأ أخطائهم، وهو خطأ شائع لكل طلبة الطب، نقص الاهتمام بتقصى الحالة المرضية التى أمامهم، أى ضرورة التسجيل الفورى لتاريخ المرض ثم إجراء الفحص الروتينى على مرضاهم. لذلك ما أن وصلت مصر، حتى عكفت على تأليف كتيب يشرح أسلوب تدوين مذكرة عن الحالة المرضية، ووضحت فيه أنواع التحاليل المعملية الروتينية المطلوبة والاختبارات اللازمة الملائمة للمناطق الحارة خاصة. مسودة هذا الكتاب قدمته إلى الحكومة المصرية وأرفقت به

مذكرة أطلب فيها أن يوزع هذا الكتيب مجانا على الطلبة المصريين -حيث لاحظت أن عددا كبيرا منهم فى فقر مدقع.

وقُبلت شروطى بترحاب، لكن بعد الطبع لاحظت أنهم يقتضون من كل طالب خمسة قروش عن النسخة، فاحتججت لكن بلا فائدة. أذكر هنا أن مثل هذه الأمور توضح تماما الحالة النفسية والذهنية للطبقة الحاكمة فى مصر.

الموضوع هذا له جانب فكاهي، فقبل مغادرتى مصر رغبت فى الاحتفاظ بنسخة من كتابي، فاكتشفت بعد تسلمى إياه أننى مطالب بتسديد مبلغ خمسة قروش !

دارسو الطب من المصريين لهم خاصية عجيبة، فعندما اصطحبهم إلى جانب سرير مريض يعانى من لغط فى القلب مثلا، يتجمعون حوله مبدين عظيم اهتمامهم، لكن ما أن أتركهم ولو لمدة ربع ساعة ليفحصوا الحالة بأنفسهم، تجدهم عند عودتك متجمعين فى الشرفة يتحدثون ويتحاورون.. فيما يتكلمون ؟ لم أكتشف هذا الأمر أبدا.

ومن المدهش أن الطالبة المصرية تبدى اهتماما أكبر بدراسة وتقصى الحالات الإكلينيكية عن الطالب، فعندما أدخل جناحا فى المستشفى التعليمى أجد الآنسات منهمكات فى فحص الحالات، مجتهدات فى اكتساب الخبرة والمعرفة العملية، بينما ينتظر الشبان فى أماكنهم متوقعين أن يحضر

إليهم المدرس ليسقيهم العلم، لكن على أية حال هذا لا يدعو للدهشة، فلقرنين ونصف من الزمان كانوا يلقمون العلم والمعرفة والثقافة لأنهم كانوا محكومين منذ عهد الفراعنة، لذا أعتقد أنهم فقدوا خاصية الإبداع والطموح والقدرة على وزن الأمور بالمنطق، وهذا ما يميز الشعوب المتقدمة، علاوة على أن مناهج تعليمهم الطبى متأخرة أربعين عاما على الأقل بالمقارنة بنظيره الغربي، ولم يتغير النظام التعليمى من نظرى إلى عملى كما حدث فى انجلترا، فكل الدروس تلقى عليهم كمحاضرات فى مدرجات أو أجنحة المستشفى المختلفة.

أخبرنى أحد المدرسين حديثى التخرج يعمل بمستشفى فؤاد الأول، أنه أثناء سنواته الدراسية بكلية الطب، لم تتح له أبدا فرصة دراسة الطب الإكلينيكى على الجسم البشري، لكن حصل على كل معلوماته عن طريق الرسوم التى كانت تنقش على سبورة فى أحد ممرات مستشفى القصر العينى القديم. وحدث خلال السنة قبل الماضية، أن قدم الطلبة التماسا للعميد يطلبون فيه إزالة كل السبورات المعلقة فى أجنحة المستشفى، وهاجموا هذا الأمر في مجلتهم الخاصة.

السبب الذى من أجله فشل بعض مدرسى الطب المصرى فى تفهم وإدراك أعراض بعض الأمراض، مثل لغط القلب والأصوات المختلفة للتنفس ومؤشراتها، هى أنهم وهم طلبة لم

يؤسسوا التأسيس الجيد، لذا أصبحوا على غير ثقة من قدراتهم على تقصى الحالات المرضية التى من المفترض أن يعرفونها جيدا.

بالرغم إننا فى وحدة الطب الإكلينيكى التى أرأسها قد حرصنا على تعليم الطب بالطرق الحديثة، إلا أن باقى الأقسام استمرت فى طريقة التدريس النظرى العتيقة، وفى أول امتحانات حضرتها فى ديسمبر ١٩٣٧ اندهشت وصعقت من مستوى الطلبة فى الطب الإكلينيكي، لذا فكرت فى ضرورة عمل شىء ما بالإضافة إلى إتباع وسائل التعليم الحديث، فتقابلت مع الدكتور على إبراهيم باشا واقترحت عليه عمل تغيير فى درجات الامتحان، فبدلا من أن تكون الدرجات المخصصة للامتحان التحريرى ١٢٠ درجة والعملى ٩٠، اقترحت أن يحدث العكس، وبذلك يضطر الطلبة إلى التزاحم على أقسام المستشفى للتدريب على الطب العملى وتكون فرصهم للنجاح أكبر. وافق سيادة العميد على رأيى هذا، وعرض الأمر على مجلس الكلية للاعتماد.

يعتبر هذا التصرف من سيادة العميد سابقة مذهلة ومدهشة، ليس لأن الخطة التى اقترحتها أثبتت نجاحا، لكن لأن هذا الاقتراح هو الوحيد الذى قبله من عديد من الاقتراحات التى قدمتها إليه وكانت جميعا مستقاة من النظم

المتبعة فى مدارس الطب بانجلترا. للأسف، كان مصيرها جميعا الرفض والتجاهل إذا كانت شفهية أو سلة المهملات إذا كانت مكتوبة.

لعلى ملزم أن أشرح هذه النقطة الأخيرة، فالباشا العميد يرفض تماما أى بادرة لتحسين مستوى المؤسسة التى يرأسها، لأنه موقن بكمال ما أنشأه، فهو المؤسس الأول لمستشفى فؤاد الأول التعليمى وعميدها، وبلا شك يشعر أن أى تحسين مطلوب يجب أن يصدر منه هو شخصيا وليس من أحد المدرسين.

□□□

الفصل الخامس

مصر الحديثة والفلاحين

مصر تعتبر قطعة من أوروبا. يحضرنا هنا ما قاله نابليون بونابرت لحاكم جزيرة هيلانة أثناء نفيه سنة ١٨١٦، "مصر هى أهم دولة فى العالم". هذه المقولة التى نطق بها الإمبراطور الشهير ما زالت فى رأيى صادقة، فقناة السويس هى الشريان الحيوى الذى يربط الشرق بالغرب، ويضاف إلى ذلك الخطوط الجوية الملاحية التى ستبرز قيمتها وأهميتها بعد انتهاء الحرب سواء من الناحية الاستراتيجية أو التجارية.

من المتوقع أن يهجم الزائرون على مصر بنهاية الحرب، لذا فمشكلة الصحة عموما ذات أهمية قصوى وأفضلية أولى.

سكان مصر كما نراهم الآن هم خليط من كافة الأجناس، فهم يتكونون من الأهالى المصريين، الأتراك المصريين، الإنجليز، الأمريكان، السوريين، الجزائريين، المالطيين، السودانيين، البدو.. بالإضافة إلى فئات أخرى من أصول أوروبية وآسيوية وأفريقية.

أغلبية السكان ذوى عيون سود وبشرة سمراء، كأنما هى كانت بيضاء فى الأصل، لكنها تعرضت لشمس الشواطئ فاكتسبت بصفة دائمة ذلك اللون البرونزى المعروف. لكن فى

عديد من قرى ومدن الدلتا تجد الأهالى بيض الوجوه تماما وعيونهم ملونة، هؤلاء هم نسل جنود نابليون الذين استقروا فى مصر. فى القاهرة شاهدت من يرتدون الجلابية بينما شعور رؤوسهم حمراء، وإذا ألبستهم بذلة فإنك لن تفرقهم أبدا عن سكان شمال انجلترا.

يجب أن يطرد الشعب الإنجليزى من مخيلته كون المصريين من الشعوب السوداء الأفريقية، ولأنهم نتاج حضارة متميزة، فإن قدراتهم العقلية تتساوى مع الأوروبى المتوسط فى عموميتها. بعد جيلين، فإن مستوى حضارتهم ستتساوى مع أحسن ما فى الجنس السكسونى الإنجليزي.

أما الأفارقة فهم برابرة بلا تاريخ معروف، ينتمون لحضارة بدائية ويحتاجون إلى ثلاثة أو أربعة أجيال ليتحضروا ويبلغوا مستوى المصرى والأوروبي، إلا أن الإفريقى لا يتساوى مع المصرى إلا فى افتقاره لدليل أخلاقى ثابت. الأفريقى لا يمتلك أبدا منهجا ثابتا للتصرفات ترضى عنه المدنية الحديثة، بعكس المصرى الذى يمتلك ميزة وراثته لمعايير أخلاقية متميزة استقاها من أجداده الفراعين، وفى العهود الحديثة استقى ذلك من تعاليم نبى الإسلام.

القرآن يرسى قواعد سليمة للأخلاق والقيم، وإذا أُتبعت بحذافيرها وبدون التواء، فإنها بالقطع ستنفى عن العرب ما

يؤخذ عليهم من تصرفات غير سوية. قانون المسلم الإيمانى هو، "عبادة الله الواحد والتكلم بالحق والإيمان بالله ورسله والحث على الكرم والضيافة وتقديم الزكاة والحفاظ على العدل والرحمة"، لكن المصرى يفشل فى تطبيق هذا المسار الصحيح، هو دائما مستعد أن يكسر هذه التعاليم كما لو كانت فرع هش من شجرة مشمش.

الضعف الأخلاقى ونقص المبادئ التى قد نلحظها فى الدوائر السياسية والثقافية، لا تعود إلى فشل الإسلام، لكن بسبب إخفاقهم فى إتباع تعاليمه الإيمانية، فالفساد ينخر فى الداخل وينمو بشكل طفيلى ويؤدى إلى إفساد المبادئ الدينية التى لا يجسر أكثر "الكفار" جرأة أن ينكر أنه يحتوى فى حقيقته على الكثير من المبادئ النبيلة. دع بنو الإسلام يعودون إلى القواعد الأساسية التى أرساها نبيهم العظيم، ستجد على الفور أن المعاملة الظالمة التى تتلقاها الطبقات الدنيا على أيدى نفس مواطنيهم قد تلاشت واختفت تماما، ونتذكر هنا الناصر صلاح الدين الذى لا يقرّظ فقط بسبب شجاعته وانتصاراته، لكن بسبب أخلاق الفروسية التى اتسم بها وإنسانيته المتحضرة المشهود بها له. المصريون يتكونون من طبقتين فقط هما: الطبقة العليا الموسرة والطبقة السفلى التى يعضها الفقر بأنيابه، ولا توجد طبقة وسطى.

الطبقة العليا ليس لديها ما تفخر به والطبقة السفلى لا تملك شيئا، لذا فمن أين يأتيها الفخار أصلا ؟

طبقة الباشاوات الغنية تتحكم تماما في البلاد، والحكومات تتعاقب ما بين حكومة دكتاتورية إلى حكومة أقلية. حكومة الوفد التي يرأسها النحاس باشا، من المفترض أن تكون ديموقراطية، لكن بسبب الجهل ونقص التعليم، أصبحت هذه الحكومة دكتاتورية، فالنحاس باشا هو الحكومة.

الانتخابات في مصر ليست كذلك إلا بالاسم فقط، فالغصب والرشوة منتشرين بشكل بشع، وأثناء انتخابات سنة ١٩٤١ لم يدلِ خدمي أو ممرضي المستشفى بأصواتهم. قالوا لي أنهم خائفون من الرجال المنتصبين أمام كل مركز انتخابي يراقبون. إذا أدلى أحد الناخبين بصوته ضد الوفد فإنه بإشارة صغيرة تصدر لمجموعة من البلطجية خارج المكان يتلقى الناخب علقة لن ينساها طوال حياته. وفي القرى ولأن كل الفلاحين مدينين لجناب العمدة، لذا ليس هناك صعوبة في انتخاب من يرغبه ذلك الرجل.

الفلاحون - وهم الطبقة التي أهتم بها وأكتب عنها هذا الكتاب - هم عماد ذلك البلد، فمن ١٧ مليون مصري هناك ١٢مليون يعملون في مجال الزراعة.

أصدر مستر هيلارى وايمنت بالاشتراك مع الجماعة

الثقافية، كتيب يصف أحوال فلاحى مصر بتكليف من قيادة القوات الحربية البريطانية سنة ١٩٤٣، وفيما يلى بعض مما اقتبسته من هذا التقرير:

"يحمل الفلاح المصرى فوق كاهله كل وزن الهرم الاجتماعى تقريبا، فهناك أربعة ملايين من الفلاحين يعملون فى الحقول مع عائلاتهم، لدعم اثنى عشر ألفا من مالكى الأرض ومائتى ألف بيروقراطى وألوف من تجار القطن والمرابين المنتشرين فى القرى بالإضافة إلى البنوك المتخصصة فى رهن الأراضى ومصدرى القطن الكبار الذين تنبع كل أرباحهم من جهد وعرق الفلاح.

□□□

الفلاح والأرض وصغار الملاك

من بين ٦ . ٣ مليون فلاح ذكر البحث أن ٢ . ١ مليون منهم لا يملكون أرضا، ٣٧٪ من الأرض المملوكة للأفراد يملكها ١٢ ألف شخص، ٣٠٪ من الأرض المملوكة يحوزها ١٥٠ ألف شخص من متوسطى الحال، ٣٣٪ من الأرض المملوكة يحوزها ٥ . ٢ مليون فرد من صغار الفلاحين بمساحات صغيرة جدا، بالكاد تكفى إشباع حاجات فرد واحد، لذا يلجأ الفلاح من هؤلاء إلى استئجار أرض إضافية من كبار الملاك، أو أن يؤجر جهده كعامل زراعى للحصول على الكفاف من العيش الذى يطعمه هو وأسرته كبيرة العدد .

المستأجرون

المستأجر إما شريك بالعمل مع المالك الأصلى للأرض، أو أن يستأجر منه الأرض بأسعار مرتفعة، وفى الحالة الأخيرة هو بالكاد قادر على تغطية احتياجاته الشخصية، بالإضافة إلى أنه يخوض مغامرة غير مأمونة، فإذا كان المحصول فى سنة ما ضعيفا، فإنه ربما يفقد جاموسته أو أدواته الزراعية أو حماره أو كل ما يمتلك.

عمال اليومية والتراحيل

هناك طبقة كبيرة من العمال الريفيين الذين لا يملكون

أى أراضى زراعية، ومعرضين لكل أنواع المخاطر عند العمل لحساب كبار الملاك أو لحساب الحكومة فى إصلاح الطرق مثلا أو شق القنوات وكثيرا ما يكون هذا العمل بعيدا عن بيوتهم وعائلاتهم. فى الصعيد يعتبر هؤلاء الفئة من البشر تابعين للضياع الكبرى، يعيشون حياة تقارب حياة العبيد. فى يوم العمل وقدره ١٢ ساعة مع استراحة قصيرة ظهرا، يقبض الرجل منهم ما بين ٣-٣,٥ قرش (٧,٥ -٨,٥ بنس) ،المرأة تحصل على ٢-٢,٥ قرش، بينما يحصل الطفل على ١-١,٥ قرش، وقد رفعت حكومة الوفد الأجر إلى خمسة قروش، ولكن هذه الفئة من الأجر تطبقه قلة من ملاك الأراضي.

منزل الفلاح

بغض النظر عن قلة كميات الطعام وعدم انتظامها، فإن الفلاح يتعرض لظروف تشجع على انتشار كل أنواع الأمراض، خصوصا السل وحمى التيفود. منزله مبنى بالطوب اللبن وأرضيته طينية وسقفه من حطب الذرة أو القطن، لذا هى متربة بشكل مزعج. تحتوى تلك البيوت على أماكن لمبيت الحيوانات كالجاموس والحمير والخرفان والمعز والدجاج، التى يتم إدخالها البيت بمجرد قدوم الليل خوفا من سرقتها أو خوفا من أن تخرب المزروعات. يمكن بسهولة تصور مدى

صعوبة منع انتشار القاذورات وتوالد مختلف أنواع الحشرات في مثل تلك البيئة.

مياه الشرب

لا توجد مطهرات طبيعية لمياه الشرب في القرية. هي مياه يستحيل على الأوروبي أن يستسيغها. هناك عدد قليل من القرى التي توافرت لها مياه نقية نوعا مثل تلك المستخرجة من الآبار الارتوازية أو القرى المجاورة لنهر النيل، لكن معظم القرى الأخرى ليس لديها سوى مياه الترع الساكنة الملوثة بكل أنواع الجراثيم والقاذورات التي لا يمكن تصورها.

رأيت مرة إحدى الفلاحات تملأ جرتها من ماء ترعة للأغراض المنزلية وبجوارها يعوم حمار ميت منتفخ البطن، وقد أخبرني الأمير محمد علي ولي العهد أنه كان يركب يوما مركب نيلي بجوار الإسكندرية ورأى بنفسه جاموسة غارقة في الماء، علما بأن هذه الترعة تغذي مدينة الإسكندرية بأسرها. بعد أسبوع كامل، لاحظ أن الجاموسة ما زالت في مكانها، لكن بجوارها كلب ميت كأنما ليؤنس وحدتها. قال أنه من واجب البوليس والمختصين إزالة هذه الملوثات، لكن لا حياة لمن تنادي. عند وصوله للإسكندرية أبلغ كل الجهات المسئولة، ثم أنهى كلامه بقوله، "مثل تلك الأمور تحدث كثيرا وبشكل فاضح".

الفلاح ككائن إنسانى

عندما يتعرض الإنسان إلى مستوى منحط فى الحياة يصاحبه عمل مضن ومجهد فى الحقول بينما تنهش الأمراض الفتاكة فى جسده، فلكى يستمر فى العيش، يجب أن يعتمد على العمدة أو مالك العزبة أو تاجر القطن، لكن عندما يتعرض لإساءات متنوعة تصبها على رأسه السلطة الحكومية، فإنه بالتأكيد سيتحول من إنسان إلى بهيمة. كل هذه الأمور تحدث للأسف للفلاح المصرى وتقبض بيد من فولاذ على مسار تطوره الطبيعى وتتركه أقل تحضرا وإنسانية عما يجب أن يكون.

هو ينام بجوار حيواناته لأنها ضرورية له أكثر من الزوجة والأولاد ولا يفكر أبدا أن يتركها خارج بيته وإلا سُرقت. هو دائما تجده ملاصقا لأديم الأرض غائصا فى الطين، يسير تقريبا عاريا حافى القدمين معرضا جسده لسياط لهيب الشمس ولسع الرياح. إن طبيعة عمله تشده وتقسيه، لكنها أيضا تعرضه لكل أنواع الأمراض التى تجره إلى أسفل وتهده سنة بعد أخري. ثقل الضغوط التى يتعرض لها تجعله صبورا قدريا لا يهتم بغده، لكن أحيانا تنفجر مرارته وينطلق فى ثورات بركانية، هنا لا تهمه الحياة أو الحفاظ على الجسد مما قد يورده مورد التهلكة والموت والفناء.

يوما ما سوف يكسر هذا البائس قيوده بالقوة، حينئذ فليكن الله فى عون من ظلموه وحكموا عليه أن يظل هو وعائلته فى حالة مزرية يعانى الفقر والجوع والمرض.

هنا أود أن أضيف تحذيرا إلى ضباط الجيش والسائحين الذين يحضرون لمصر، ويفكرون فى زيارة المناطق الريفية لممارسة رياضاتهم المفضلة، فبالإضافة إلى ضرورة قيادة سياراتهم بحذر وبطء شديد فى الطرق المتعرجة المؤدية إلى القرى، عليهم أيضا اصطحاب أحد الأهالى الذين على معرفة وثيقة بعادات وتقاليد القرويين. أحذرهم أيضا من أن يسمحوا لأحد من الفلاحين أن يحمل بنادقهم وذخائرهم، لأنه بسبب فقرهم المدقع قد يحاولون اختلاس بعض الرصاصات مع تصويب عين حاسدة إلى البندقية الثمينة.

حديثا ذكرت الجرائد الإنجليزية أن اثنين من الضباط الإنجليز قتلا وهم فى رحلة صيد للبط بجوار الإسكندرية، أتضح بعدها أن اثنين من صيادى السمك الذين تطوعا حمل البنادق لهما، استخدما نفس تلك الأسلحة فى القتل.

أيضا نتذكر ما حدث منذ عدة سنوات قبل الحرب عندما ذهب اثنين من الضباط إلى منطقة ريفية لاصطياد الحمام، ولأنهما ليس على دراية كاملة بعادات وتقاليد المكان، هجم عليهما الأهالى وقتلوهما,

لشرح أسباب هذا الحادث المؤسف أقول أن الحمام ليس نافعا فقط كغذاء للفلاح، لكن أيضا يستفاد من مخلفاته لتسميد الأرض. هو سماد غني بالنتروجين وله الأفضلية الأولى فى تسميد أرض الفلاح الصغيرة المساحة، التى بالكاد تكفى غلتها معيشته هو وأسرته، علما بأنه لا يستطيع شراء المخصبات الصناعية ذات الأثمان المرتفعة.

صحوة الفلاح

كل من عرف ودرس أحوال الفلاحين المصريين يتعاطف معهم، لأنهم يحوزوا على مزايا إنسانية عظيمة ويتمتعون بذكاء نادر، إلا أن الفقر وضيق ذات اليد يطمس ويعتم تلك المزايا.

أما الساخرون والمستهزئون الذين يقطنون القاهرة أو غيرها من المدن الكبرى سواء كانوا مصريين أو إنجليز، باشاوات أو أفندية، فإنهم ينظرون للفلاح دائما كأنما هو أقل من سائمة وليس له منفعة على الإطلاق سوى أن يعمل جاهدا سنة بعد أخرى فى خدمتهم. لكن يبدو أن هذا الشعور يتغير حاليا بشكل تدريجى، فصحوة الفلاح المصرى وإن كانت خافتة بطيئة الخطى إلا إنها مستمرة، ويتعاطف معها جمع من الطلاب والمثقفين الذين نبع الكثير منهم فى حضن الريف، حتى الحكومة أبدت اهتماما بالفلاح، فخططت مشروعات

مؤثرة لإعادة إعمار القرى وإنشاء عيادات طبية وإدخال المياه النقية، لكن للأسف- وفيما عدا قرية أو اثنتين محظوظتين- فإن تلك المشروعات ما زالت حبرا على الورق ومن المحتمل أنها لن تنفذ إلا إذا عرف الفلاحون حالتهم هذه وأصروا على التغيير.

طعام الفلاح

المعلومات التالية تقدم بها إلى الحكومة طبيب مصرى انتدب للعمل بالصعيد، حيث تقدم بتقرير شرح فيه الأحوال المعيشية للفلاحين هناك. بالمناسبة، تتطابق هذه المعلومات مع ما توصلت إليه من معايشتى للمرضى فى المستشفى التعليمى وأقوالهم أيضا. يذكر التقرير:

"يتكون إفطار الفلاح عموما من الخبز المصنوع من الذرة المخلوط أحيانا بقليل من القمح أو الحلبة ويُبلع هذا الخبز بقليل من الشاى الأسود المحلى بسكر القصب، ثم يذهبون إلى الحقول قبل شروق الشمس وربما يشترون أو يقطفون بما قيمته مليما بعض من الخضراوات التى تشبه الخص (يقصد الفجل). أحيانا يأخذون معهم قليل من العدس أو الفول، وهذين مع ماء الشرب يمثلان غذائه ظهرا. بعض العمال الزراعيين يأخذون معهم شرش مملح ينتج بعد صناعة الجبن (يقصد المش)، ملئ بديدان صغيرة تتراقص وتتقافز

ويغمسون الخبز فيه، وعند غروب الشمس يعودون لمنازلهم ليتناولوا العشاء الذى يشبه إفطارهم تماما المكون من الخبز الأسمر مع الشاى الأسود المحلى بكثير من السكر. ربما يأكلون فى العشاء نوع من الخضراوات المفروكة التى تشبه السبانخ (الملوخية) وتطبخ لتصبح شوربة خضراء كثيفة، مثل هذه الشوربة تقدم أحيانا للمرضى فى المستشفيات.

أما المحظوظين الذين لديهم جاموس وطيور، فإن النساء يأخذن من نتاجها الجبن والزبد والبيض ويتجهن إلى السوق لبيعها أو المقايضة بها بالحنة أو العقود والأساور الزجاجية أو أى أغراض منزلية أخرى - وتحصل النسوة على القليل من القروش نظير بيعهن روث البهائم الذى يشكلونه بأيديهم على هيئة أقراص مستديرة (جلة)، تجفف أولا ثم تستخدم كوقود فى الأفران المنزلية.

من النادر أن تصل النقود ليد الفلاح، فهو دائما مدينا للعمدة أو شيخ البلد. الدين يترجم كأيام عمل يقضيها فى خدمة هؤلاء، ومن النادر أن يحصل على مقابل مادى نتيجة لعمله.. من كل هذا يمكن القول أن الفلاح ليس إلا عبدا لأسياده.

مرة أو مرتين فى الشهر يأكل الفلاح اللحوم، والموسرين منهم يأكلون كتحلية البلح أو الحلوى الريفية.

بسبب عمله فى الحقل يحصل الفلاح على البذور والسكر والملح والملابس التى بالكاد تفى باحتياجاته من العمدة أو من دكان ملك أحد أقرباء هذا العمدة. هذه المشتريات يضمنها الأخير وتسدد قيمتها كأيام عمل يلتزم الفلاح بقضائها".

من أكثر الأمور بشاعة فى حياة الفلاح هو مصير أطفاله، فبمجرد أن يفطم الرضيع حتى يفقد الوزن تدريجيا ثم يموت. السبب غالبا هو نقص البروتين في غذائه، لذا تحرص الفلاحات على مد فترة فطام الطفل حتى يبلغ من العمر سنتين أو أكثر. الأطفال المفطومين حديثا يأكلون من نفس نوعية طعام والديهم المكون أساسا من خبز الذرة وكثير من الشاى الأسود، ومن يعيش منهم يحصل على القليل من اللبن إذا كانت العائلة تملك بقرة أو جاموسة، أما إذا كانت تملك ثورا مثلا فالطفل سيموت بالتأكيد جوعا.

معدل وفيات الأطفال فى مصر هو الثانى على مستوى العالم، إذ تبلغ نسبته مقارنة بإجمالى المواليد ٢٦.٥٪ ، بذلك تزيد بمقدار أربعة مرات ونصف عن انجلترا وسبع مرات عن هولندا" .

□□□

الأرض التى يزرعها الفلاحون إما إنها مملوكة للحكومة أو ملاك الأراضى أو الشركات الكبرى التى تمنح مساهميها أرباحا مرتفعة، وأؤكد لعمال انجلترا وأمريكا -الذين يفقهون جيدا هذه الأمور - إننا لو قارنا حالة هؤلاء المصريين بمزارعى روسيا القيصرية أو الهند أو جنوب الصين، فإنهم سيتفوقون عنهم فى المناخ السيئ الذى يعيشون فى ظله.

أؤمن أن كثير من المفكرين المصريين مهتمين بالحالة المزرية التى يعيش الفلاحين فى ظلها، ولكن ما الفائدة من مجرد الكلام إذا لم يتحقق أى شىء للإصلاح.

فى افتتاح الأسبوع الثقافى فى المنتدى الملكى المصرى بلندن سنة ١٩٤٣، لخص نشأت باشا سفير مصر فى انجلترا الموقف بقوله:

١- "الصناعة المصرية تعتبر فى طور الطفولة، ولكى تفكر الحكومة فى فرض ضرائب عليها فإن هذا سيعوق تقدمها تماما"

وفى رأيى أن الطبقة الحاكمة المصرية تعتبر من أغنى الطبقات وأقلها تعرضا للضرائب، حيث أن معظم ثروتها نابعة من الصناعة الأولى - ألا وهى الزراعة.

٢- قال أيضا، "سمعت اقتراحا بأن توزع الأرض توزيعا عادلا، لكن الإحصاءات تشير إلى أن معظم الملكيات الزراعية

تحت يد شركات متخصصة تؤجرها للغير.

ينسى سيادة السفير أن الفلاحين هم الأرض، وهم فيها ولها منذ آلاف السنين. أقترح عليه أن يقرأ القصيدة الشعرية المسماة (الأرض) لكبلنج التى قال فيها:

ثلاثون جيلا من أمواته
يرقدون فى المقبرة الخلفية
أسماؤهم قديمة قدم التاريخ
سجلت يوم خط الله كتاب القيامة
الفرح والتقى والجراءة منحت لهم
غرست فى أديم الأرض وقويت وأفرخت
لأن الشريعة والحق قالا،
هى كلها لك يا بنى، وإليك.

٣- أضاف سيادة السفير قائلا "سمعت اقتراحا بأن يعاد توزيع الدخل القومى بشكل عادل، لكنه اقتراح غير عملى، فلو وزعنا ولو ثلاثة قروش على كل فلاح، فمعنى هذا فناء الدخل القومى الذى تجنيه الدولة من التصدير سنويا !"

أخشى القول أن سيادته نسى أن ذلك الدخل القومى الذى يمتصه هو وطبقته، نتج من دم وعرق ودموع هؤلاء الفلاحين.

من الأدلة المقدمة سابقا يتضح أن الفلاحين المصريين ربما يكونون من أكثر الشعوب فى العالم إرهاقا وفقرا، وتعتبر الطبقة العاملة الإنجليزية بالمقارنة بهم كأنهم فى نعيم مقيم.

كنت كثيرا ما أذهب لاصطياد البط فى الفيوم أو بقرب التل الكبير فى الصباح الباكر، كنت أرى الفلاحين وهم يتوافدون إلى الحقول مع شروق الشمس، ثم أراهم بعد ذلك وهم عائدين مساءا رجال ونساء وأطفال متجهين إلى جحورهم البائسة المسماة بيوت. يتقاضى العامل الزراعى كما أوضح وايمنت ما بين ٢-٥ . ٢ قرش عن يوم العمل ، لكن بسبب ظروف الحرب رفعت الحكومة أجره بزيادة قرش صاغ واحد ، بينما نعلم جميعا أن غلاء المعيشة ارتفع بأكثر من ثلاثة مرات.

أى إنسان يقود سيارته فى الطرق الريفية سيكتشف أن الفلاح متواجد بصفة دائمة فى الحقل يعمل ويكد. إنهم عمال حقيقيين وليسوا هم كذلك بالمعنى السياسى الفاسد.

إننى أتعاطف تماما مع الرجل الذى يجد سلواه فى العمل فقط، أما من يعمل من أجل المال أو لا يعمل ويحصل على المال دون عناء، فإنه يستحق منى كل احتقار وازدراء، يبدو الفلاح دائم الانشغال بعمله فى الحقل، بينما هو نصف جائع، مع ذلك تظهر عليه بعض أمارات السعادة لأن لديه ما يؤديه.

الطبقة الدنيا من المجتمع المصرى تتمتع بأقل القليل من أسباب المرح. كنت دائما ما ألاحظ الفتيات بملابسهن المزركشة يجلسن فى دوائر بالحدائق العامة يتحدثن ويتهامسن، أما الأولاد فإنهم يتجمعون فى دوائر كبرى يبدو عليهم كما لو إنهم يجهلون أى فكرة عن الألعاب الجماعية، كل ما يفعلونه هو رفع عقيرتهم فى المخاطبة أو يتعاركون.

فى بعض شوارع القاهرة كنت أرى الأولاد الأكبر سنا يلعبون "الحجلة"، بينما تلعب البنات "الأولي" فى وسط الشارع، أما فى الريف فإن التسلية الوحيدة للأطفال هى قيادة الحيوانات. من المناظر المألوفة أن ترى طفلا صغيرا ممتطيا ظهر جاموسة ضخمة، لذا يمكن القول أن تسلية أطفال الريف تنبع من العمل وما شابهه.

من أجل هؤلاء الفئة من البشر، هؤلاء العاملين، هؤلاء العبيد الجائعين الذين يعيشون بلا أمل أو مستقبل منذ آماد موغلة فى التاريخ، أرفع التماسى هذا.

نعلم أن الفلاح الإنجليزى يحصل على ٨٠ شلنا عن عمله فى الأسبوع، بينما يحصل الفلاح المصرى على ٨ شلنات فقط أسبوعيا شاملة علاوة غلاء المعيشة. المقارنة بين الرقمين توضح لماذا يعيش الفلاح المصرى عند حد الكفاف أو أقل من ذلك. يعيش الرجل منهم وهو نصف جائع يكافح ويشقى ليدبر

قــوت أســرتـه، لكن إذا مــا كــان يعـانى فى نفس الوقت من مـجـمـوعـة منتقـاة من الأمـراض، كـالأنيـمـيا والبلهـارسـيا والإسكارس والإنـكلسـتـومـا والبـلاجـرا –وهو مـرض ناتج من نقص الغذاء– فإن مظهره العام سيبدو بائسا يستحق الرثاء، ثم نراه بعد ذلك وقد أُرغم على التوجه إلى المستشفى، هناك يهمل شأنه ويهدد ويُضرب كما يحدث كثيرا، لذلك لا عجب أن يكون مـصـيره لا مـحـالة هو الموت البطيء – وهـذا مـا يحـدث غالبا.

أخبرنى أحد الروس الذين عـاشـوا الفـترة القيصـرية، أن علاج الفلاحين المصريين أسوأ بكثير مما كان يعانيه فلاحى عهد القياصرة. العبودية أُلغيت من انجلترا منذ مئة سنة، ومن أمريكا بعد الحرب الأهلية ومن السودان بعد الثورة المهدية، أمـا فـى مـصـر فـهى مـا زالت مـسـتـمـرة، وأن لم تكن بذات الاسم، فـالفلاح لا يبـاع فى سـوق مـفـتـوحـة لمشـتـرى أجنبي. للعجب، هو مطالب بأن يدلى بصوته فى الانتخابات، مع ذلك هو فى الحـقـيقـة، عـبـد للحكومـة وعـبد للأغنياء من أهل بلده وللشركات الأجنبية الغنية. لعل مـصـيره كان سـيبدو أحسن حالا لو أصبح بالفعل عبدا، هنا سيجد العون والرعاية الكافية من سيده ولا يتـرك بلا أمل فى الحياة متـأرجـحـا مـا بين حـد الكفاف والجوع الكافر.

تنبأ كنجزليك سنة ١٨٨٢ أن الإنجليزى سيزرع قدميه بقوة وثبات فى طين وادى النيل، وصدقت نبوته، لكن هذا الإنجليزى عندما حاول نزع رجليه من الوحل فشل فشلا ذريعا، وأثناء جهوده تلك تمكنت شلة من الوطنيين من تسديد ضربة موجعة إليه وحصلوا على الاستقلال سنة ١٩٢٢.

إن الإنجليزى يستحق ما حدث له، لكن الحكومات المصرية المتعاقبة منذ الاستقلال أثبتت أنها ليست سوى فشل متكرر شاحب. عليه الآن ومن أجل الحفاظ على الديموقراطية التى طالما نادى بها أن يغصب نفسه وينهض من سقطته الفاضحة ويتمسك بالكرامة المفقودة، إذا كان هو الرجل الذى يحكى عنه العالم، عليه أن يتحقق جيدا من معدن الشعب المصرى الأصيل. إذا تردد الإنجليزى أو ارتبك وفشل فإن الفلاحين الذين هم جزء هاما من مسؤولياته، سيسقطون فى بئر لا قرار لها، فى حمأة من اليأس والقنوط، وهو نفس المصير الذى جاهد هو نفسه بالخروج منه بأقل القليل من الكرامة وعزة النفس، وتتعلق بأذياله نتفة بسيطة من السمعة الحسنة يعزى بها نفسه.

ربما تكون المسألة المصرية بعد نهاية هذه الحرب، هى الاختبار الأعظم لرجال الدولة من البريطانيين، حيث ستكون سببا فى تجلى المعدن الحقيقى لانجلترا اللائق بتاريخها

المجيد وتقاليدها العريقة وعزمها الأكيد على التمسك بتنفيذ تعهداتها التى خُطّت فى نور الماجنا كارتا وميثاق الأطلسى.

لا يجب أبدا أن يُسمح للأحزاب الإنجليزية أن تتجاهل هذا الموضوع الحيوى. إذا فشل الرأى العام الإنجليزى من أسماع صوته فإن النتائج ستكون وخيمة العاقبة، ونؤكد انه نتيجة لحربين كبيرتين، فإن ضمير الأمم سينهض من غفلته ويستيقظ.

لقد تعرضت بريطانيا ذات الامبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس، لهجوم مضاد وعنيف من رجالات ونساء الولايات المتحدة الأمريكية، أمثال: بيرل بك، هنرى لوس وونديل ويلكي. بسبب هذا أعلن وزير خارجية انجلترا فى أكتوبر ١٩٤٣ الآتي:"... فى بعض أجزاء الامبراطورية البريطانية لم يكتمل بعد التطور السياسى، لذا لا يمكن منح الأهالى حكما ذاتيا بدون اكتمال أسباب النمو الاجتماعى والثقافى والاقتصادي"

بغض النظر عما ادعاه مستر هربرت موريسون، إلا أننى متأكد أن الهجوم الذى قاده مستر وندل ويلكي سيتبعه هجوم متتالى ومتتابع من أكثر من جهة فى العالم المتمدين.

كل هذا يلزم انجلترا أن تنهض بواجباتها التى تتناسب مع عظمتها ومجدها، وتعلم انجلترا - وهذا ما أكده كرومر

وآخرين- مقدار فساد ذمة وكفاءة الباشاوات الذين عهدت إليهم حكم مصر. الرأى العام الديموقراطى يطلب ويلح فى أن تواجه انجلترا مسئولياتها - مهما كان رأى رجال الحكم فيها وما يشغل بالهم - فيما يختص بمصير الفلاحين المصريين.

قال لورد سالسبورى يوما - وهو من عظماء رجال الإنجليز- فى مجلس اللوردات، "على كل من يملك السلطة فى منع الكوارث المحققة ويعلم تماما مجريات الأمور، ثم لا يفعل شيئا، أعتبره مسئولا مسئولية كاملة عما يحدث من تدمير".

فى برقية أرسلها أيضا اللورد سالسبورى فى مناسبة عزل الخديوى اسماعيل، قال فيها، "إن القوى العظمى العالمية لم تشترك بالطبع فى مجد مصر القديم، لا تهتم أبدا بمستقبل هذا البلد. لذا أنصحها بإتباع النهج السليم وتتنكر لما هو حادث من علاقات سيئة تربط حاكم مصر (إسماعيل باشا) بشعبه. لكن هذا لا يسرى على انجلترا بسبب موقع مصر الجغرافى ومسئولية بلدنا التى نهضت بها منذ أمد بعيد، كل هذه الاعتبارات تدعنا نطيل التفكير ولا نهمل ما يحدث فى مصر. إن واجب انجلترا ومصلحتها تحتمان أن تقف بحزم وثبات أمام أى فساد فى الحكم قبل حدوث ضرر ودمار شامل لا يمكن علاجه. إن خبرتنا فى حكم الأمم الشرقية يؤهلنا أن نعرف تماما ما قد يؤدى إليه هذا

الفساد".

لا ننسى أيضا ما كتبه اللورد كرومر فى نهاية كتابه الشهير (مصر الحديثة) حيث قال، "لقد وجهنا ضربة موجعة إلى قوى التخلف فى مصر ولن تقوم لها قائمة بعد الآن. إذا التزمت انجلترا بواجباتها نحو نفسها ونحو الشعب المصرى ونحو العالم المتحضر، فإن هذه القوى لن تتاح لها الفرصة لترفع رأسها عاليا مرة أخرى".

لكن– ويا للأسف – لقد تسبب إفلاس وإهمال السياسة الخارجية الإنجليزية فى أيامنا تلك إلى ما حذر منه لورد كرومر.

ما الذى سيفعله الشعب الإنجليزى بشأن ما أثرته ؟ إنى أتساءل.

□□□

الفصل السادس

المجتمع الإنجليزى فى مصر

هم لا يعرفون عن مصر سوى نادى الجزيرة. أليس كذلك؟.

ما أن يجتمع إنجليزيان فى مكان واحد حتى يفكران فى إنشاء ناد رياضي، ونادى الجزيرة بالقاهرة يعتبر من أرفع المنتديات على مستوى الشرق كله.

هذا النادى ما هو إلا قطعة من انجلترا زرعت وسط النيل. الأعضاء يتكونون من ضباط الجيش الإنجليزى والمدنيين الإنجليز بالإضافة إلي الأجانب وهناك استثناء لقلة بسيطة من المصريين. الموظفون الإنجليز عموما يتعايشون فى مصر كأنما هم ما زالوا على أرض جزيرة معزولة مشابهة لبلدهم، هو نادى الجزيرة الرياضى. فهم يقضون كل وقتهم، إما فى بيوتهم أو أعمالهم أو فى ذلك النادى، لذا يعرفون أقل القليل عن مصر والمصريين ولا يهتمون بذلك، والنقود التى يحصلون عليها بعد خروجهم على المعاش ينفقونها فى انجلترا

لم يتلق المصريون أى دعم ثقافى أو تدريب على يد الإنجليز طوال مدة حكمهم المباشر لهذه البلاد. ما يحظى به

المصريون من مستويات ثقافية مرتفعة، أصلها فرنسى فى الأساس، ولدى قناعة أوقن بها تتلخص فى أن طريقة الحياة السكسونية وجوهر الأخلاق الإنجليزية المتمثلة فى الشعور الرقيق الراقى الرياضى، لو شاركوا فيها إخوانهم الأقل حظا فى الحياة، لأصبح هو النهج الأفضل.

استبعادنا للمصريين - وهم بين أهاليهم وعلى أرض وطنهم- من المشاركة الوجدانية والثقافية المهمة لنا ولهم، يعتبر عائقا خطيرا فى سبيل تقدمهم وبعثهم من جديد.

منذ عام مضى اقترحت أن ينضم أحد الأطباء الممتازين، يعمل معى فى مستشفى جامعة فؤاد الأول، إلى نادى الجزيرة. هذا الرجل أعرفه جيدا لأنه عمل معى خمس سنوات متصلة ويتمتع بأخلاق سامية نبيلة وثقافة عالية، إلا اننى فوجئت بمعارضة أستاذين إنجليزيين من نفس الكلية، ورفضا أن يزكياه قائلين، "نحن لا نسمح لمثل هؤلاء أن يلتحقوا بالنادى". لقد دهشت لأن هذا الأستاذ المصرى يلتحف بخصال نادرة، وزوجته إنسانة لطيفة مرحة ومثقفة، وعضويته لو تمت لكانت مصدر فخار للنادى، علما بأنه حاصل على درجة الزمالة من لندن ويعتبر من أكثر الأطباء مهارة فى عمله، علاوة على ذلك فهو عاش فترة ليست قصيرة بانجلترا، ويستطيع أن يتحاور مع غيره بكل اللهجات الإنجليزية.

إنني لا افهم أبدا ذلك الشعور العجيب الذى يسيطر على الإنجليز عندما يأخذون كل شيء من بلد ما ولا يعطون ما يقابله.

يبدو أن هذا الشعور هو الغالب ويتمسك به كل بريطانى يعيش فى مصر. أعرف بالطبع أن الكثير من المصريين ليسوا لائقين للالتحاق بنادى الجزيرة، لكن يماثلهم فى ذلك أغلبية من الإنجليز.

ما يضايقنى أيضا ذلك التعبير الدارج الذى ينطق به كل الإنجليز بكل استهانة واحتقار عندما يدعون كل مصرى بلفظة (ووج (WOG) هذا اللفظ أعتبره نوع من الوقاحة الرخيصة التى لا تحقق شيئا، هذا التعبير ظهر أولا فى الإسكندرية وبورسعيد أثناء الحرب العالمية الأولى. كان يطلق على الرجال الذين يعملون فى الموانى ويلبسون على أذرعهم شارة مكتوب عليها W.O.G.S ومعناها أنهم يعملون فى خدمة الحكومة WORKING ON GOVERMENT SERVICE لكن هذه الصفة تطلق الآن على أى مصرى كنوع من الاتهام والتحقير، ولا يستثنى من ذلك وزير أو غفير. مثل تلك العبارات اختلقها الإنجليز للإشارة إلى الشعوب الأخرى، لا سيما الأجناس التى تعيش فى حوض البحر الأبيض المتوسط، وكنت اسمعها دائما وهى تنطق بصوت عال، لتصل لأسماع المقصودين بها.

إن الوقاحة المدروسة والغرور والحط من اعتبار الآخرين التى يتعامل بها أغلبية الإنجليز فى مواجهة الغرباء، لن تؤدى إلا إلى تلطيخ سمعة انجلترا فى أعين العالم أجمع.

من أسباب الحروب كما نعلم هى موجة الكراهية المتبادلة بين الشعوب، وطالما نحن نطوف العالم أجمع نوبخ ونحقر بقية الشعوب، وننظر لأنفسنا بكل عظمة وكبرياء بسبب تفوقنا وإنجازاتنا ونتعامل بأخلاق متشامخة، فإن انجلترا ستجد نفسها دائما فى حالة حرب مع الآخرين.

لقد فات الوقت الذى نستطيع فيه بسبب غنانا وقوتنا فى البحر والبر أن نعادى ونستهزئ بالآخرين بدون تحقيق ضرر بليغ وأكيد لأمننا القومى. الشعوب الأخرى وبعض الإنجليز الذين يعيشون فى الخارج يعلمون هذه الحقيقة علم اليقين.

عندما تتقابل مع الإنجليزى فى بلده تجده متحليا بأرق المشاعر ويذوب رقة وأدب جم، لكن عندما تقابل نفس الرجل خارج بلده تجده مخالفا تماما لما عرفته عنه، تراه وقد تخلى عن أى قدر من المشاعر الإنسانية والأخلاق النبيلة.

لم أستطع أبدا فهم أسباب هذا التصرف الشاذ. هل يحس الإنجليزى وهو خارج بلده أنه متفوق ومتميز عن غيره، بينما هو فى وطنه ليس إلا مواطنا عاديا كمثل غيره ؟ . هناك تفسير آخر، لعله لكونه مكتفيا بذاته كطبع غالبية مواطنيه،

يجعله هذا غير مهتم بأى إنسان أو شيء سوى رياضته المفضلة. مرة ثالثة أقول كتفسير لهذه الظاهرة، إنه ربما يود أن يظهر أمام الآخرين بمظهر الإنسان القوى الصامت، لعل تكوينه الذى ينقصه القدرة على تذوق الفكاهة والمداعبة- بعكس الأسكتلندى - تجعله غير قادر على التمييز، فيعتبر أن الخشونة والمسلك الفظ ما هما إلا وقارا يليق بالإنسان المتحضر.

لكن مهما كانت الأسباب، ومهما قيل أن الإنسان يخشى سماع الحقيقة، أقرر هنا أن تعاملنا مع الأجناس الأخرى ينقصه كثير من مبادئ الأخلاق النبيلة السوية، وإننا لسنا محبوبين على مستوى العالم كله.

مع ذلك، هناك نقطة واحدة مضيئة فى هذه المسألة أراها تلمع وسط الضباب الذى يكتنف الإنجليزى عندما يتعامل مع الأجنبى، فخبرتى الطويلة فى مصر وبلدان أخرى تسمح لى بالقول أن النساء الإنجليزيات أكثر احتمالا من الرجال الإنجليز بوجه عام، فهن ودودات مهذبات فى معاملة الرجال والنساء من الجنسيات الأخرى، سواء فى المقابلات العامة أو المناسبات الاجتماعية.

ربما يعيب علّى البعض حساسيتى المفرطة فيما يختص بضرورة التصرف المهذب مع الآخرين، لكن أؤكد أن هذا

الشحن الزائد والغرور الذى يتصف به أهلينا يلزمه تهذيب أكثر من ذلك، لا سيما بالنسبة للموظفين العموميين الإنجليز الذين يعملون بالدول الأخرى.

فى السنوات الأخيرة ونظرا لانتهاء خدمة عدد كبير من الموظفين الإنجليز فى الحكومة المصرية، اضطر نادى الجزيرة لقبول أعداد متزايدة من الأعضاء الأجانب، لذا يعتبر هذا النادى دوليا حيث تجد فيه كل جنس ولون، إلا أن الطبقة المتميزة من المصريين ما زالت محرومة من ولوجه، إلا فيما ندر.

إذا كان من الضرورى أن نسمح لغير البريطانيين الالتحاق بعضوية هذا النادى، فلما لا يكون المصريون هم الاختيار الأول ؟ نحن ملتزمون بتحقيق رفعة ورفاهية مصر والتزامنا هذا الذى استمر ستين عاما يجبرنا أن نشجع ونرفع المستوى الثقافى للمصريين ليتساوى مع مستويات العالم الغربى. فى استطاعتنا أن نفعل هذا بأن نختلط بهم ونعطى لهم المثل والقدوة فى التصرف، لكن للأسف، لم نفعل شيئا على الإطلاق. أقول هنا بكل ثقة أنه ليس هناك ما تفخر به إنجلترا فى مصر.

هناك جانب مشرق فيما يختص بنادى الجزيرة، فإمكانياتنا الرياضية على مستوى عال متميز، والشقة التى

أسكنها تطل عليه، فعلى البعد أرى الأهرامات الثلاثة، ومن شرفتى أشاهد سباقات الخيل التى تجرى فى النادى كل يوم سبت بعد الظهر، وأشاهد أيضا مباريات البولو والكريكت والجولف والكروكيه وكافة النشاطات الرياضية. لإعجابى بهذا النادى، ألّفت تلك القصيدة التى أقول فيها:

وقفت فى دهشتى أنظر
من مطلة نافذتى العلوية
نهر النيل يسرى أمامى
يطوف ويجرى كما الأنهار
فى حركة لانهائية بعظمة وسكون
بينما انتصبت بجانبى أعواد النخيل
إنها القاهرة بلد المساجد والمنارات
تسبح فى نور مصر الباهر
ألمح أمامى علامات مجىء المساء
توحى بأبدية الوقت والزمان
ثم تخفت وتبهت الأضواء
ويهبط الظلام ساحبا خلفه
ذكرى الأيام والأمسيات

والشجر والنخيل.. وأيضا نفسى والكيان.

أشك فى تواجد أى مكان فى الدنيا يفوق مسكنى هذا فى الجمال. فيه قررت أن أرفع عقيرتى مناديا العالم الديموقراطى أن يساندنى فى الدفاع عن الفلاح المصرى.

لقد فشل البريطانيون كلية فى أن يزرعوا أى من ثقافتهم فى التربة المصرية أثناء الاحتلال، عندما أحسوا بتأنيب الضمير، أرسوا ما يسمى بالاتحاد الإنجليزى المصرى، ووظفوا عدد من الشباب المثقف الإنجليزى بهدف غرس الثقافة الأوروبية فى أذهان المصريين، لكن كل هذا بلا جدوى حقيقية.

انضممت إلى هذا الاتحاد بمجرد وصولى القاهرة، ثم استمعت للمحاضرين من الإنجليز وهم يلقون محاضرات شتى تحكى عن نوادر وعظمة الثقافة الإنجليزية - لا تتعدى هذا المجال أبدا- واستجاب المصريون أيضا وألقوا محاضرات تشيد بحضارتهم التليدة، وكيف كانوا فى ماضى الزمان، واستقر الوضع على ما هو عليه، ولم يستفيد أحدهم بشيء من الآخر، ما عدا بالطبع الجانب الترفيهى الذى تفوق فيه المصريون تماما، واستمر بعد ذلك المصريون ملازمين مقاهيهم كالمعتاد، وتواجد الإنجليز بصفة مستمرة ودائمة بنادى الجزيرة الرياضى، أما عن نفسى فلم يكن لدى الوقت

الكافى لأقضيه فى هذا الاتحاد، كنت أشعر أن هذا الموقف عموما يعتبر مهينا للمصريين ومشينا لذكاء الإنجليز. المصريون ليسوا بالأغبياء، يدركون أن الإنجليز ينظرون إليهم كفئة أدنى منهم بكثير وإنهم غير جديرين بالالتحاق بنادى الجزيرة، وعرفوا أن إنشاء هذا الاتحاد ما هو إلا اعتذار عن عدم قبول التحاقهم بذلك النادى.

أخبرنى أحد المصريين أن معظم المنتمين للاتحاد منهم، هم فى الحقيقة معارضين للوجود الإنجليزى، وأن هذا الاتحاد ما هو إلا مقر للفضائح والمؤامرات، هو مكان يستطيع فيه الإنجليزى أن يرحب بزميل مصرى بدون اللجوء لدعوته إلى منزله، بذلك يزيل عن نفسه الحرج الذى قد يستشعره بين بنى جلدته من مواطنيه.

فى رأيى أن هذا الاتحاد قد فشل من الوجهة السياسية والاجتماعية والثقافية، لكن كان له ميزة وحيدة، هى مكتبته العامرة بأحدث الكتب وتفضل كل المكتبات على مستوى الشرق كله. بالرغم من استفادتى من المراجع، إلا أن هذه المكتبة كانت السبب فى تقديم استقالتى من الاتحاد.

اتضح يوما أن هناك خمسون كتابا سرقت من هذه المكتبة خلال عام ١٩٤٢، كنت أرى أن السبب فى ذلك هو سكرتير الاتحاد الإنجليزى الذى بدلا من أن يعين متخصصا فى

المكتبات يتحدث الإنجليزية والعربية ويكون متواجدا بصفة مستمرة، خصص سفرجي نوبي صغير يبلغ الخامسة عشر من العمر ليراقب البهوات والباشاوات والأفندية، بالإضافة إلى الإنجليز ليمنعهم من اختلاس الكتب أو التدخين في حجرة الإطلاع. هذا الغر الصغير أصبح مصدر إزعاج للجميع. مرة ضايق البروفسير أوريب لدرجة جعلته يقذف بالطفل خارج القاعة ويقفل بابها وراءه، ثم حدثت معي نفس المضايقة فلم أجد بدا من تقديم استقالتي من الاتحاد.

هذا الطفل ليس ملوما بالطبع، فمن يضع ولدا صغيرا ليراقب التصرفات الأخلاقية لمجتمع مثقف كالاتحاد الإنجليزي المصري ما هو إلا إنسان ساذج. لعل الكتب المختلسة كانت من نصيب الأعضاء المصريين، لأن هذا يعتبر عندهم تصرفا طبيعيا. في مكتبة مستشفى القصر العيني لم يكن مستغربا أن يستعير البهوات والباشاوات الكتب الطبية ولا يعيدونها أبدا، كان هذا مصدر إزعاج مستمر للمسئولين بالمكتبة، وأحد الأطباء المصريين المشهورين استعار مرجعا طبيا واحتفظ به ثلاثة عشر عاما، أخيرا اضطروه أن يعيده، لكن الكتاب كان متخلفا اثنى عشر عاما من الناحية العلمية.

لكن لكي نكون منصفين للمصريين، فمن المحتمل أيضا أن من سرق هذه الكتب هم الإنجليز، فمن الصفات النادرة التي

يتحلى بها الإنجليزى العادى أنه لا يفكر أبدا بنشل كتاب من رفوف مكتبة عامة، لكن ليس لديه مانع من استعارته من صديق ثم لا يرده أبدا.

كانت المرة الأخيرة التى أذهب فيها لزيارة مقر الاتحاد، هى قبل مغادرتى مصر مباشرة لسماع محاضرة سيلقيها وزير الصحة العمومية عن "المستوصفات الصحية"، وكنت أود مناقشته بشأن سياسة الحكومة فيما يختص بالصحة عموما. عندما وصلت إلى مقر الاتحاد فوجئت بوجود سرادق ضخم منصوب فى حديقة الاتحاد ذا ألوان عديدة منفرة، من النظرة الأولى، بدا لى المكان كأنما هو ساحة لتدريب الكلاب الصغيرة، حيث فوجئت بتواجد مئات الطرابيش التى ارتداها شباب الحاضرين الذين زحموا المكان عن آخره.

انتظرت ساعة كاملة إلى أن هلت جماعة من ضخام الأجساد يتدحرجون وفى وسطهم النحاس باشا رئيس الوزراء، يرافقه رجل إنجليزى عجوز - هو غالبا رئيس الاتحاد- وفوجئت بهدير التصفيق الحاد والهتافات المدوية التى استقبل بها رئيس الوزراء. كان هذا كافيا أن أغادر المكان.

فى اليوم التالى قابلت مصادفة أحد موظفى الحكومة الكبار وأخبرته أننى لم أشاهد من قبل مثل هذا الكم الهائل

من الشباب المتعطش لسماع محاضرة جافة، فسألنى، "ألم يخطر ببالك سبب كل ذلك ؟" فقلت، "بالطبع لا" فرد بقوله، "هؤلاء هم موظفين تابعين لوزارة الصحة حضروا خصيصا للتصفيق للنحاس باشا لكى يؤثروا فى الحاضرين من الإنجليز".

إذا صدف لأحد من قرائى أنه لم يتعرف على الطربوش من قبل، دعنى أصفه له، أنه يشبه إناءا مقلوبا لزرع الورد لونه أحمر ملتصق بقمته ومتدليا منه إلى أسفل شرابه من الخيوط الحريرية السوداء، لباس الرأس هذا أصله يونانى ولا يرمز إلى أى رمز دينى. أتمنى أن يلغى كما حدث للطربوش التركى، وأن لا يستخدم سوى فى المناسبات الاحتفالية.

هذا وقد أصدر الزعيم التركى كمال أتاتورك حكما بالإعدام على الطربوش التركى، لكنه كان رجلا وطنيا يعلم تماما ماذا يريد.

□□□

الفصل السابع
قصر الملك

لم يسعدنى الحظ بمقابلة الملك فؤاد، فقد مات قبل وصولى مصر. وقد قيل إنه كان رجلا ذو رؤية ثاقبة وقوة فى الأخلاق، وقيل لى أيضا أن اهتمامه بالفلاح كان واضحا، كأنما هو استشف مما أشكو منه، ورغب فى إجراء إصلاحات عديدة فى المستشفى التى تحمل اسمه، ولكن الموت لم يمهله.

جلس الملك فاروق على العرش سنة ١٩٣٧، وعمره سبعة عشر عاما فقط، حيث قطع دراسته وعاد من انجلترا بناء على نصيحة السفير البريطانى وتأييد رئيس الوزراء المصرى فى ذلك الحين، وهو النحاس باشا. كانت هذه سقطة لا تغتفر وكان لها نتائج وخيمة بعد ذلك.

لكن كان لها سابقة فى التاريخ، ففى سنة ١٨٩٢ أجلس الإنجليز عباس حلمى عم الملك على العرش المصرى، لكن فى سنة ١٩١٦ أرغموه على التنازل بسبب معاداته للإنجليز وموالاته للأتراك.

مثل الملك فاروق، كان عباس حلمى هذا فى السابعة عشر

عندما تولى الملك، ولا يمكن لشاب صغير فى مثل هذا السن أن يحكم دولة كمصر تنوء بوزراء غير أكفاء ويستشرى فيها فساد صارخ وتحاك فيها المؤامرات السياسية كل يوم. مع ذلك، فإن الخارجية البريطانية نزعت الشاب الصغير فاروق من أفضل مكان للدراسة والتثقيف ليضعوه على عرش تحت وصاية ومشورة أمثال علي ماهر باشا المشهور بمعاداته للوجود البريطاني، والذى أُعتبر سنة ١٩٤٢ كعدو رسمي لجماعة الحلفاء.

الملك فاروق ذاته استنكر أن يستقبله السفير الإنجليزى ويحوطه برعايته، لذا خسر تدريجيا العطف البريطاني، وتُرك لشأنه لتتلقفه الأيدى الحانية لموسولينى الدكتاتور الإيطالى.

نعلم أن الملك فؤاد كان ضابطا فى الجيش الإيطالي أثناء فترة نفيه، ولعل بسبب تلك الظروف نما فى قلب ابنه الشاب عطف وإعجاب بايطاليا، ونعلم أيضا أن موسولينى له مخططات ومطامع عديدة فيما يختص بمصر، وكان يوجد فى مصر عام ١٩٣٩ حوالى سبعين ألفا من الايطاليين، وتقريبا كل شركات المقاولات الكبرى والمؤسسات التجارية الضخمة كانت ملكا للمؤسسة البنكية المسماة موصيرى، والتى وضعت يدها على العديد من العقارات والمرهونات على مستوى مصر

كلها.

لمنفعة أطفالهم، أسس الإيطاليون مدارس خاصة لهم، وسمحوا بالطبع للطبقة المتميزة من المصريين العاملين بالمؤسسات الكبرى من إرسال أبنائهم لتلك المدارس، وفى المناسبات كانوا يقفون زنهارا أمام صورة ضخمة لموسولينى هاتفين، "ليحيا الدوتشى"، وخلقوا بذلك انطباع لدى الصغار بأن هذا الدوتشى ما هو إلا إله. ولحسن الخلق والتفوق المدرسى، كان يمنح المتميز منهم صورة منمنمة للدوتشى كمكافأة له !

بمرور الزمن علم شيخ الأزهر ما يحدث فى تلك المدارس، فحذر من الالتحاق بأمثالها، وأنكر أن ينحنى أى إنسان أمام صورة أي شخص مهما كان شأنه، وخطب فى الجامع الأزهر وألهب المشاعر، فتجمع عدد كبير من الطلبة ودبروا مظاهرة ضخمة توجهت لتلك المدارس ومنعت الطلبة الصغار من الدخول، من يومها اختفت الدعاية الإيطالية وفشلت.

بكل الطرق حاولت ايطاليا أن تستميل المصريين، وكان ممثلو الدولة الإيطالية يُختارون لهذا المنصب بسبب ذلاقة ألسنتهم وحسن معاملاتهم، وأُرسلت فتيات إيطاليات ليلتحقن للعمل كمربيات أو مرافقات للبيوتات الكبرى فى مصر.

صنعت إيطاليا كل ما يخطر على البال لتعطى انطباع حسن فى أذهان المصريين، وكانت الزينات والنياشين الإيطالية منتشرة فى البلد، وقليل من الباشاوات المهمين هم الذين لم يتحل صدر أحدهم بشارة ذات منبت ايطالى على صدره فى المناسبات.

فى هذا الجو السياسى الغريب، دفع السفير البريطانى بالملك الشاب ليجلس على العرش يحرسه النحاس باشا الذى فشل فى أحاطته بالمجموعة المناسبة من المستشارين.

لذا ليس عجيبا أن أصبح الملك مناصرا قويا لإيطاليا والإيطاليين، وقد حدثت طرفة وقعت منذ عدة سنوات توضح مدى الاهتمام الزائد الذى يوليه موسولينى لصاحب العرش، فقد وهب دكتاتور إيطاليا الملك فاروق هدية هى عبارة عن سيارة فخمة قوية ماركة فيات بمناسبة زفافه السعيد، وحدث أن طلب الملك فى نفس الفترة من الحكومة تغيير مبنى محطة سراى القبة المبنية بالخشب والحديد، فرفضت وزارة المالية المصرية تخصيص مبلغ ٢٠ ألف جنيها لبناء محطة جديدة، بحجة أن حالة البلاد الاقتصادية لا تسمح بذلك، فطلب الملك غاضبا من خدمه أن يمدوه بحبل طويل غليظ، فاحضروه له فأمسك بأحد طرفيه وربطه بأعمدة المحطة المتهالكة والطرف

الآخر ربطه فى مؤخرة السيارة الفيات، وسار بضع خطوات فتهاوت المحطة خلفه أكواما، وتملكنى الفضول فذهبت اليوم التالى ورأيت بنفسى المحطة المهشمة.

لكن ويا للعجب، ينتصب حاليا مكان المحطة القديمة المتهالكة محطة جديدة فخمة تليق فعلا بالملوك، وتكلفت بالطبع أكثر من ٢٠ ألف جنيه.

هناك قصة لطيفة تحكى عن الملك الشاب، ففى مناسبة زواج أخته من ولى عهد إيران، طلب الملك استعراض حرس الشرف، وفى اليوم السابق للعرض حضر بنفسه ترافقه الحاشية للتفتيش، وكلف أحدهم بأن يمسك ورقة وقلم ويصاحبه. سار وسط جنوده وكلما وجد واحد من ضباطه قد برز كرشه مما قد يفسد الاستعراض أمر بكتابة اسمه ليمُنع من الاشتراك فى طابور الغد.

بغض النظر عن كون الملك فاروق ذو أراء محددة وفكر خاص، إلا أنه بالحق يقال عنه أنه إنسان زكى، وأعلم ذلك من تجربتى الشخصية، ففى مناسبة افتتاح مستشفى فؤاد الأول طُلب منى أن انظم عرضا طبيا عمليا أمام جلالته، فأبدى عظيم اهتمامه سواء بالمرضى أو بالطلبة، وأبدى بعض الملاحظات التى قد تفوت على طالب الطب نفسه. وأخبرتنى

أيضا المربية الإنجليزية المسئولة عن إخوته البنات، انه عندما كان طفلا صغيرا فى حياة والده لم يكن لماحا فقط، بل كان يبدى اهتماما فائقا بالفلاحين والطبقات الفقيرة التى ستصبح من رعاياه يوما من الأيام.

لذا كان من المؤسف حقا وبعد انضمام ايطاليا لقوات المحور بعامين أن اضطرت القوات البريطانية لمحاصرة قصر عابدين واقتحام البوابات الخارجية بالدبابات، والسبب فى ذلك هو أن الملك أجبر سرى باشا الموالى لإنجلترا على الاستقالة لأنه سحب السفير المصرى لدى فيشي بدون استشارته، وبعدها مباشرة طلب السفير البريطانى من الملك تعيين النحاس باشا زعيم الوفد ليكون رئيسا للحكومة، فرفض الملك هذا الطلب بشكل قاطع، حيث انه لم ينس انه منذ عدة سنوات ماضية طرد النحاس من هذا المنصب، وكانت حيثيات الطرد كالآتى، "لا يمكن الوثوق به، غير متوازن سياسيا، جاهل، تنقصه الكياسة والحصافة، لا يوقر أو يحترم التاج". هنا أنذره السفير بأنه إذا لم يعين النحاس باشا فإن عليه أن يتنازل عن العرش، عندئذ شعر الملك انه فى موقف حرج وفكر جيدا ووازن الأمور وصل إلى قناعة تؤكد أن العرش أهم كثيرا من النحاس، ووافق على التعيين.

السبب الحقيقى لهذا التصرف من الملك هو أنه يتعاطف تماما مع إيطاليا، واعتقد أن السفير البريطانى ورئيس الوزراء مسئولين عن هذا أيضا.

وفى حوار أجريته مع الأمير محمد على الوصى على العرش وولى العهد قبل تولى الملك فاروق، ألقيت اللوم على السفير البريطانى والنحاس باشا لأنهما وافقا على تتويج ملك صغير لا يقدر بعد مدى المسئولية الملقاة على عاتقه، إلا أن الأمير أخبرنى بأن جزءا كبيرا من اللوم يقع عليه شخصيا، لأن السفير تشاور معه وهو وصي على العرش، فنصح بضرورة عودة فاروق فورا لأن الكثير من أولياء العهد من الشرق الأوسط ذهبوا لأوروبا وانجلترا وانغمسوا فى رذائل متنوعة، أحدهم أصبح مدمنا للخمور والآخر مقامرا وهكذا، وقال للسفير أن فاروق شاب مسلم ومن الأفضل أن يحضر لمصر ليكون تحت رعاية الأوصياء على العرش، وهذا ما حدث فعلا، لكن فاروق تخلص من كل مستشاريه ولم يستبق سوى على ماهر باشا المعادى لإنجلترا.

لا أعفى هنا وزير خارجية بريطانية فى هذا الشأن، فهو لم يمنطق الأمور ولم يكن بعيد النظر، فقد كان من واجبه ومن واجب الحكومة البريطانية أن لا تترك حجرا دون أن تقلبه

لتجد من يكون مناسبا للجلوس على عرش مصر ولا يكون معاديا لإنجلترا.

من جهة أخرى، فإن الأمير محمد على ولى العهد كان مضطرا ومجبرا وفى وضع محرج. لم يكن فى مقدوره سوى أن ينصح بعودة الأمير الشاب، وحتى فاروق نفسه صرح لزائر مرموق من الكليات الملكية البريطانية قائلا بأنه شعر بأسى بالغ لأن والده توفى قبل الأوان.

إننى لا أدافع عن الملك، فهو قادر أن يدافع عن نفسه، لكن كل ما أود أن أؤكد عليه هو أنه كفتى صغير لم تتاح له أبدا الفرصة ليعبر عن احتياجاته الحقيقية.

فى السنوات الأخيرة، لكونى إنجليزيا، ندر استضافتى فى القصر الملكي، لكن عندما توج الملك وتزوج من الملكة الحسناء فريدة، دُعيت لقصر عابدين عديد من المرات، والمناظر هناك جميلة ومبهرة. فى إحدى المناسبات وأثناء انشغال فرقة موسيقية فى العزف فى إحدى صالونات القصر، تسللت وتجولت فى الغرف المفتوحة، ووقفت مبهورا أمام صورة محمد على الكبير وصور بعض أفراد العائلة المالكة، ثم تأملت فى الحراس الواقفين زنهارا على عتبات القصر أو الصالونات بملابسهم الفخمة المطهمة، أخيرا وأثناء

تجوالى استرعى انتباهى غرفة غير مضاءة مفروشة كلها بأندر أنواع السجاد، يتوسطها ممر مشغول كله باللون الذهبى والأحمر ويؤدى إلى شرفة تطل على حديقة القصر. كنت مرتديا الملابس اللائقة بالاحتفالات الملكية، حيث يزين السترة وشاح أخضر والزراير كلها ذهبية اللون، وفوق رأسى طربوش أحمر جميل، وبدافع الفضول سرت فى هذا الممر حتى وصلت إلى الشرفة الملكية. لدهشتى البالغة فوجئت بسماع زئير هتاف مدو تنطلق من حناجر الجماهير المحتشدة أسفل المكان انتظارا لقدوم الملك، فما كان منى سوى أن لوحت بيدى ثم انسحبت للداخل سريعا.

□□□

الفصل الثامن

السفارة الإنجليزية - النحاس باشا - الكتاب الأسود لمكرم عبيد

السياسة الحالية التى تنتهجها وزارة الخارجية البريطانية فيما يختص بمصر، تعتبر فى رأيى ليست سوى سلسلة متواصلة من الفشل المتكرر. معلومات السفير المصرى فى مصر، اللورد كيلرن، عن الشعب المصرى وخاصة الفلاحين منهم تعتبر شبه معدومة. إذا ادعى أنه يعلم جيدا أحوال الفلاحين والطبقة الفقيرة المريضة من المصريين، فإن فشله فى عدم اتخاذ أي إجراء بشأنهم مدهش وغريب، لأنه من المفترض أن انجلترا سلمت البلد لكل الشعب - وليس فقط للباشاوات والأغنياء، وأؤكد هنا أن نقص معرفته بالأحوال العامة فى هذه البلاد هى مصدر كل بلاء.

فى الواقع، السفير الإنجليزى طوال مدة خدمته فى هذا البلد، لم يكلف خاطره لمعرفة ما يحدث فيها، إلا فيما يختص بالباشاوات والثراة وأصحاب المصانع. هو لم يلجأ أبدا للتشاور مع الموظفين الإنجليز المعتبرين الذين يعيشون فى مصر عن الأمور المختصة بالناس الأقل حظا فى الحياة

والطبقات المطحونة المظلومة. هو نادرا ما لجأ مثلا لقضاة المحاكم المختلطة أو أساتذة الجامعة أو المثقفين من الإنجليز ليسألهم عما يرونه من مآس كل يوم أثناء عملهم فى مصر. هو لا يعرف شيئا ولم يفعل شيئا للمستشفيات بالرغم من أن مساعديه اشتكوا له عما يلاقيه خدمهم من معاملة سيئة فى تلك المستشفيات. إذا كان هو من القوة بحيث يقتحم أسوار قصر عابدين ويجبر الملك فاروق أن يعين النحاس باشا رئيسا للوزراء، فهو إذن جدير بأن يستخدم قوته هذه لإجبار الحكومات المصرية المتتالية لتحسين أحوال الطبقات الفقيرة المريضة والشعب نصف الجائع، ولهذا السبب لم استمع لنصيحة السفير أو مرءوسيه عندما حاولوا إثنائى عن تقديم استقالتى من عملى.

إلا إننى أصرح هنا أنه فى مناسبة وحيدة لبيت طلبا للسفارة. حدث هذا منذ عامين مضتا، وذلك عندما خاطبنى الدكتور محفوظ باشا من السفارة البريطانية طالبا حضورى فورا لاستشارتى فى أمر طبى يخص زوجة السفير، فرفضت هذا الطلب وأخبرت محفوظ باشا بأننى متعاقد لأن أكون أستاذا متفرغا فى الجامعة، بذلك أنا ملتزم بأن لا أمارس مهنة الطب خارج أسوار الجامعة، وإننى لا أنوى أن أكسر هذه القاعدة مهما كانت الأسباب، فصرخ بى عبر الهاتف،

"لكن هذه زوجة السفير" فأجبت بكل هدوء، "أنت تعلم يا محفوظ أننى دائما ما أتهم المدرسين المصريين بممارستهم العلاج فى عياداتهم الخاصة، مخالفين بذلك تعليمات الجامعة، واذا فعلت مثلهم فسوف يجانبنى الصواب وسأفقد أى تأثير أظنه لى بمستشفى الجامعة."

فرد محفوظ باشا، "انتظر قليلا على التليفون إلى أن استشير سيادة السفير" وبعد عودته قال، "إننى فى موقف حرج، هل يمكن أن تحضر هنا بصفتك زميل لى فى الكلية ؟" فأجبت بعد برهة تفكير "لأنك صورت الموقف بهذا الأسلوب، أجدنى مضطرا إلى الحضور إليك". بعد انتهاء الاستشارة، قال الدكتور محفوظ باشا فى حضور السفير وزوجته، "الأستاذ ألبورت هو الوحيد الملتزم بقواعد الجامعة، لا يمارس أبدا عملا خاصا به". إننى أذكر هذا الموضوع هنا لأن رئيس الجامعة اتهمنى علنا بعد استقالتى مباشرة بأننى كنت معتادا على كسر هذه القاعدة !

كانت سياسة وزارة الخارجية الإنجليزية الثابتة أثناء الحرب، هى أن تظل مصر هادئة مستكينة ولا تفكر فى الانضمام لدول المحور، وقد تحقق الهدف الثانى الضرورى المهم، ونجح السفير فى مسعاه، وسوف يكتب اسمه بحروف

من نور ويشار إليه فى وطنه كرجل انجليزى عظيم.

ربما يخطر على بال بعض المؤرخين لاحقا أن يتساءلوا: هل كان بإمكان مصر أن تدخل الحرب ؟ والإجابة لا ثم لا.

بعد تبادل العداوات بين الدول الكبرى، اضطر الجيش الإنجليزى لاستعارة كل المهمات الحربية من الجيش المصرى، لذا انتفت إمكانية انضمام مصر لهذا الطرف أو ذاك، ولا يستطيع أى جيش أن يحارب بلا دبابات أو طائرات أو مدفعية.

فى مصر يعتبر رد فعل طلبة المدارس والجامعات فيما يختص بأى اتجاه سياسى هو المرشد الذى يدل على اتجاه الريح وأين ستهُب، لكن طوال فترة الحرب لم يبد طلبة الجامعة - ما عدا بعض طلبة الحقوق المتهورين - أى حماس للانضمام إلى تلك الحرب، وسوف يذكر التاريخ وبشكل بات وقاطع أن الحكومات المصرية المتعاقبة كانت تستخدم الطلبة لتأليب وإشعال حماس الرأى العام وتوجيهه إلى المسارات التى ترغبها تلك الحكومات. كنت أتناقش مع الطلبة والأساتذة عن الحرب، لكن لم أجد أحدا يؤيد انضمام مصر إلى رحاها. فى أثناء الثغرة التى كان بطلها روميل عندما هدد باجتياح العلمين قال لى قريب لزوجة رئيس الوزراء، "آمل أن لا تحاول

انجلترا أن تدافع عن مصر، فنحن المصريين لا نود أن تتحول بلدنا إلى ساحة قتال لنفقد بذلك أرواحنا وأملاكنا"، لكن الحرب على أية حال، ما هى إلا أزمة مؤقتة مآلها الانحسار مع مرور الزمن.

إن السياسة الإنجليزية أيام السلم هى مقياس عظمتنا ورفعة شأننا. لا يمكن إنكار أن سياستنا التى ننتهجها ونتفاخر بها هى إننا لا نتدخل أبدا أو نمس عادات وتقاليد البلاد التى نسيرها، وهذا الاتجاه فى رأيى ليس سوى عار يلحق بدولة عظمى تدعى أنها هى القوة المهيمنة على مجريات الأمور بالعالم أجمع.

لقد كانت العادة فى مصر منذ آلاف السنين أن يعيش الفلاحون تحت خط الفقر، وأن لا يتمتعوا بطرق معبدة جيدة، وأن لا تنتظمهم قوة بوليس وخدمات حكومية يعتمد عليها، ولا يستفيدوا بخدمات مستشفيات تعمل بالمفهوم الحضارى الذى نعرفه، ولا ينعموا بالعدل بدون تفرقة أو تمييز.

إذا كان هدف السياسة الإنجليزية أن يجمع رعاياها أكبر قدر من ثروة الدول التى تديرها، فإننى أرى انه ليس هناك مبرر واحد لبقاء تلك الامبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس.

يجب أن يحدث تغيير شامل لسياستنا بمجرد انتهاء هذه الحـــرب، مع ضـــرورة إعـــادة تنظيم السلك الدبلومـــاسـى والقنصلى بالكامل، لأن معظم ممثلى دولتنا ليسوا سوي أوتاد ساكنة مغروسة بقوة فى حفر مستديرة. يجب أن يشغل هذه الوظائف مفكرين ومثقفين لا ينشغلوا فقط بمشاكلهم المحلية الضيقة، بل يكون لديهم الوعى الكافى ليفرضوا الإصلاحات التى يرونها نافعة للناس.

كل ما قلته ليس الهدف منه الحفاظ على سمعة انجلترا، لكن بسبب أننى لاحظت أن ساستنا لا يراعون أبدا الجماهير المطحونة التى تحتمى تحت جناحها، على الأقل هذا لا يحدث في مصر.

دعنا الآن نتكلم عن النحاس باشا. هو فى الواقع صديق عظيم لإنجلترا ومطواع لكل رغبات السفير البريطانى. كنت قد رأيته للمرة الأولى وأنا أطل من شرفة عمارة يقع مبناها فى ميدان إسماعيل (التحرير) سنة ,١٩٣٧ كان ذلك إثر عودته من الخارج وفى جيبه معاهدة الصداقة التى عقدها مع انجلترا فى مونترو، ومر وسط الجماهير الحاشدة ممتطيا سيارته الفارهة يلوح بمنديل أبيض فوق رأسه، ذكرنى هذا المنظر بتلك البريمادونا على المسرح وهى تلوح لجمهورها من

المعجبين. في الجهة الأخرى من الشرفة التي أطل منها، يقع سور قصر قديم على امتداده ازدحمت الجماهير الغفيرة بعرض اثني عشر صفا غير منتظم. ما أن اقتربت سيارة النحاس باشا حتى نشط البوليس في دفع الجماهير إلى الخلف، بل وضربهم بالعصى أحيانا، وكان من المستحيل أن يتراجعوا بسبب السور الخلفي، لذا تلقى التعساء في الصفوف الأولى ضربات موجعة بالعصى الرفيعة التي أمسك بها عساكر الشرطة، وكلما ازداد اقتراب سيارة النحاس، أبدى هؤلاء العسكر حماسا أكبر وإخلاصا منقطع النظير في أداء واجباتهم ليفسحوا لفخامته المجال الآمن في المرور، تصحبه هتافات الجماهير المدوية. كان في الواقع عرضا شائقا وغريبا في نفس الوقت، فيه تمثلت القوة الغاشمة من جانب يقابلها ذلك الجمهور الغفير الذي زحف ليرحب بالنحاس وصحبه من الوزراء التابعين.

أما مظاهرات التأييد الحماسية فقد كانت منظمة إلى حد ما، فهناك العشرات من حاملي الطبول يدقون عليها باستمرار، وخلفهم سار نافخو الأبواق النحاسية يزرعون الشوارع النهار كله وجزءا كبيرا من الليل، يتبعهم ألوف من الأوباش، واستمرت هذه المسيرات أسابيع عدة، حتى ملّت الحكومة - وهي التي أوحت بها- ثم منعتها بقوة القانون:

أما أعضاء حكومة الوفد فإنهم لم يهملوا أى فرصة لإلقاء الضوء الباهر عليهم، هذا الأمر قد يكون مقبولا من الناحية السياسية، لكن ليس كذلك إذا كانت التكلفة ستقع فى النهاية على عاتق الفلاحين دافعى الضرائب.

لتدعيم شعبيتهم التى تدنت وقتها إلى حدها الأدنى، فكروا فى دعوة زعيمهم لحفل شاى يقام على شرفه فى الجامعة، والمفترض أن هذا الحفل الذى حضره المئات من الأساتذة قد نظمه وتكفل به مدرسو الجامعة، هذا ما أعلن عنه فعلا فى الجرائد، لكن علمت من أوثق المصادر أن ما تحمل تكاليف هذا الحفل هو الحكومة ذاتها، حتى مصروفات انتقال الأساتذة الذين يسكنون بعيدا تحملها نفس المصدر، وكان هذا فى مايو ,١٩٤٣

قبل نهاية نفس الشهر أقامت حكومة الوفد حفلا ضخما. كان هذه المرة لتكريم أربعة آلاف عضوا ينتمون لحزب العمل، بينما ذكرت الجرائد العربية والإنجليزية أن هذا الحفل أقامته الطبقة العاملة لتكريم الوفد، وعلمت من مصدر موثوق به أن الحكومة هى التى تحملت تكاليف هذا الحفل أيضا. إن هذا فى رأيى ما هو إلا إسراف مخل تنفق فيه ألوف الجنيهات تقتطع من الأموال العامة للدولة، والمفروض إنفاقها على

الطبقة الفقيرة المطحونة من الشعب.

تنتشر حفلات الشاى فى مصر، وهى بديل عن حفلات الكوكتيل التى نعرفها، فيها يحدث بذخ وتبذير فى الإنفاق. معظم المصريين يشعرون بالشبع الكامل ويستغنون بها عن وجبة طعام كاملة. الكحوليات ممنوعة قطعيا تطبيقا لأحكام الشريعة الإسلامية، ولو أننى أعرف بعض الباشاوات الذين يجرعون الخمر إلى حد السكر المبين. على أية حال، لم أشاهد أبدا بعينى مصريا سكيرا يتطوح فى الشارع، وهذا ما يدعو أن تفخر به أي دولة فى العالم.

بسبب الاستقبالات الفخمة المصطنعة التى قوبل بها إثر عودته من رحلة الخارج، بدا النحاس باشا منتفخا منتشيا مملوءا بالعظمة والكبرياء، شاعرا بأهميته البالغة وشعبيته الطاغية، هذا كله سلب منه حاسة التقدير السليم والقدرة على موازنة الأمور، وطمح أن يغلف نفسه بمظهر الدكتاتور ويغتصب لنفسه جزءا من اختصاصات العرش، بالإضافة إلى ما يتمتع به فعلا من حكم مطلق فى كل شئون الحكومة، لذا أطاح به الملك فاروق ولم يعد للحكم إلا فى عام ١٩٤٢ على أسنة الرماح عندما عينته الحكومة الإنجليزية رئيسا للوزراء.

الانتخابات المتقنة تطبخ باستمرار لتضفى صفة شرعية

على ما استقرت عليه الأمور فعلا. هنا أريد أن أوضح أمرا ما، هو أن مشكلة الطبقة الحاكمة المصرية هى أن معظم رجالاتها من الجيل الأول من الأفندية، فهم متعلمون ولكن بلا جذور، هم انطلقوا وحصلوا على مراكز هامة فى الدولة، ولكن لا يسندهم ماضٍ يدعم حاضرهم.

تطور الأفندى المصرى شىء مدهش، ومراحل تطوره المتعددة يمكن أن تلاحظها فى شوارع القاهرة وشوارع المدن الأخرى فى المديريات المختلفة، فالطبقات الفقيرة فى مصر يرتدى أفرادها ما يسمى بالجلابية (رداء طويل ذا لون أبيض غالبا) وفوق رأسه تستقر عمامة أو طاقية بيضاء، يمشى حافيا فى الشارع. ثم تبدأ المرحلة التالية من الترقى حيث يصبح فيها أفنديا، هنا يلبس طربوشا وينتعل صندلا. بعدها تبدأ المرحلة الثالثة، هنا يرتدى بالطو قديم فوق الجلابية. فى المرحلة التالية، يتفتح قليلا، فيرتدى بنطلونا وحذاءا. فى المرحلة الأخيرة يشابه الشخص الأوروبى تماما فيلبس بذلة كاملة وياقة منشاة وربطة عنق ويتحلى بمنديل نظيف. هو الآن أفندى من الجيل الأول فى طريقه ليصبح بيك بعد ذلك، هذا إذا حصل على مركز حكومى متميز يجنى منه مئات الجنيهات بالإضافة إلى راتبه الحكومى، ثم تأتى المرحلة النهائية، وهى الترقية إلى درجة الباشا. هذا يعتمد على

حصوله على مركز عالٍ فى المجتمع كأن يصبح مثلا وزيرا فى الحكومة. الوزراء عموما فى مصر يصبحون فاحشى الثراء فى ظرف سنتين على الأكثر من تبوءهم مراكزهم هذه.

فى سنة ١٨٧٦ كتب مستر ستيفن كيف المبعوث البريطانى لبحث الحالة المالية لمصر فى تقرير له الآتى، "... الموظف العام المصرى يشابه فى تصرفاته قناصل الرومان فى العهد القديم، هم يحاولون الحصول على كل ما تصل إليه أيديهم وما تسمح به وظائفهم، وتنفجر الفضيحة المالية بمجرد استغناء العمل عن خدماته، حيث يتضح أنه كوّن ثروة طائلة، وتتعجبُ كيف يتسنى لهذا الرجل الذى لا يتجاوز مرتبه الشهرى أربعين جنيها، كيف انه اعتدى بمنتهى الفُجر على خزانة الدولة مسيئا بذلك لأهل وطنه من الفقراء والفلاحين".

أحد من أهم الوزراء فى حكومة النحاس باشا، وهو قريب له عن طريق الزواج، كان إلى عهد قريب فى صفوف الطبقة الفقيرة من الشعب، أما الآن فهو يرفل فى النعيم والغنى الفاحش. هذا التصرف الأخلاقى طبيعة ثابتة، ولا نتوقع أن يصدر من الطبقة الحاكمة المصرية عموما ما يخالف ذلك.

بسبب هذا المظهر البشع لاستغلال النفوذ الذى لوث هذه الحكومة. هاجم مكرم عبيد باشا إدارة رئيس الوزراء للبلاد

فى كتابه الأسود.

ومكرم هذا يعتبر بحق هو الشخص الوحيد الذى يمكن أن نطلق عليه لفظ رجل دولة حقيقى، كان هو صديق مقرب للنحاس باشا ويعتبر يده اليمنى، إلا أنه بسبب التصرفات المخجلة للأخير حدثت فجوة بينهما يصعب عبورها. هو يعتبر العقل المفكر لحزب الوفد، كان هو وسعد زغلول باشا من الأدوات الرئيسية التى بها حصلت مصر على استقلالها، لكنه فى النهاية اضطر أن يصم سياسة الحكومة المصرية تجاه المصريين بقوله، "لقد حصلنا على الدستور لنخلص مصر من الحكم الأجنبى، لكننا الآن يجب أن نعمل جاهدين لتخليص المصريين من المصريين"

الكتاب الأسود لمكرم عبيد هو بلا شك عرض مذهل يكشف ويعرى استغلال النفوذ السياسى، وقد طُبِع باللغة العربية وأحدث ظهوره شعور دافق من الأَحاسيس المختلفة بغض النظر عن كونه قد صودر بمجرد ظهوره.

فى أي دولة فى العالم، يؤدى ظهور مثل هذا الكتاب إلى سقوط الحكومة، ويجبر رئيس الحكومة على تقديم استقالته وتختفى بذلك سيرته السياسية حتى نهاية عمره وقد جلله العار والشنار.

الطريقة التى استخدمها مكرم فى نشر هذا الكتاب تعتبر بحق ضربة معلم، وتنم عن أستاذية ماهرة، فهو كان على علم بأن مجرد سماع الحكومة بأن هناك كتاب سيصدر ينتقد تصرفاتها فإنها ستعمل جاهدة على تدميره ومنعه من الظهور، لذا يقال أنه أصدر كتابين وليس كتابا واحدا، الأول واضح التزوير وسلمه لدار نشر معروفة بالقاهرة أما الكتاب الحقيقي فأرسله للصعيد ليطبع هناك فى مطبعة خاصة، وعندما اكتملت الأمور أعلن بأن كتابه سيصدر من دار نشر القاهرة فى يوم معلوم، لذا فى صباح هذا اليوم ذاته داهم البوليس تلك المطبعة ووضع يديه على كل نسخ الكتاب المزور، فى نفس الوقت وصلت نصف دستة سيارات محملة بالطبعة الحقيقية للكتاب من الصعيد، وبدأت فى توزيعه فى كل أنحاء المملكة، ووجد كل وزير نسخة موضوعة على مكتبه، بل علمت أن هناك نسخا وصلت فلسطين وبلاد عربية أخرى.

كانت فضيحة الكتاب الأسود هذا مجلجلة، وأصرت السفارة الإنجليزية أن يتقدم النحاس باشا ببيان فى البرلمان ينفى عن نفسه تلك التهم المنشورة فى الكتاب، وكان الأفضل أن يترك النحاس لشأنه لأنه اتضح بعد ذلك أن دفاعه لم يخدع أحدا، لأن مكرم وهو وزير المالية فى وزارة النحاس لم يترك شاردة أو واردة تشير إلى فساد الحكومة لم يذكرها فى

كتابه، وبعض مما ورد فيه الأتي:-

"لم يعد النحاس باشا قادرا على التمييز بين الخاص والعام، فالحكومة أصبحت من وجهة نظره هى عمله الخاص، وعزبة لوالديه ووزراءه وأقاربه، فهو يمنحهم منازل فخمة يسكنون فيها سواء بالتمليك أو الإيجار، ويخلق لهم أرضا ليشترونها، وأوقاف ليديرونها، وبنوك مخصصة يستعملونها كما شاءوا، وحبوب وفواكه يصدرونها، وخمور ومسكرات مختلفة يستوردونها، أخيرا وليس آخرا استخدم النحاس باشا وزارة الخارجية المصرية ليستورد مجموعة من الفراء الثمين عن طريق السفارة المصرية بلندن".

وفضيحة استيراد معاطف الفراء هذه الخاصة بالسيدة زوجة النحاس باشا تعتبر موضوعا جديا، إلا أنها تحتوي على جانب طريف وفكاهى، فمكرم عبيد ذكر فى كتابه أن النحاس باشا الذى كان بشغل منصب وزارة الخارجية بالإضافة إلى كونه رئيسا للوزراء، أبرق للسفارة المصرية فى لندن لكى تشترى له خمسة معاطف نسائية من فراء الثعالب البيضاء الثمينة قيمة الواحد ٥٠٠ جنيه استرلينى بقيمة إجمالية ٣٠٠٠ جنيه. فى خطاب له أمام مجلس النواب، نعت النحاس باشا مكرم عبيد بأنه كاذب أشر، وأنه أوصي بشراء

معطفين فقط قيمة الأول ١٤ جنيه والأخر ١٦ جنيه استرليني. علما بأن مدام النحاس باشا تعتبر من أكثر النساء أناقة على مستوى الشرق الأوسط كله. هنا أدع كبار مصممي الأزياء في انجلترا وأمريكا أن يحكموا ويقدروا القيمة الحقيقية لهذه النوعية من الفراء. وعلمت لاحقا، ومن أوثق المصادر، أن النحاس باشا إثر رجوعه لسرايته بعد إلقاء خطابه البليغ في البرلمان، أمسكت زوجته بخناقه - بطريقة لم يتيقن المصدر كيفيتها - وصاحت في وجهه، "هل تريد أن تخبرني بأنك فضحتني أمام العالم كله، وقلت إنني ألبس معاطف لا تزيد قيمة الواحد منها عن ١٤ أو ١٦ جنيه فقط ؟" وهزت هذه الواقعة الطريفة مصر كلها من أساسها.

هناك تهمة أخرى وردت في الكتاب الأسود تمس بعض الوزراء، تتهمهم باستغلال النفوذ والتربح على حساب الشعب، وحدث تفنيد لهذه التهمة الجديدة في مجلس النواب بطريقة تشابه تلك الدفوع السخيفة التي تتقدم بها الحكومة أحيانا. إجابة لسؤال طُرح في مجلس النواب، وقف وزير الأشغال العمومية ينفي عن نفسه تلك الاتهامات التي تتهمه شخصيا بأنه نقل كوبري بنها القديم إلى مكان آخر بعيدا بهدف الربط بين عزبتين يمتلكهما، قال في مجال دفاعه، ".. هذا الكوبري محل التساؤل، بني سنة ١٨٥٤، وبطل

استخدامه بعد بناء الكوبرى الجديد ببنها، ولكى نستعد لإجلاء سكان شمال الدلتا بسبب الحرب، خوفا من تعطل تدفق القوات والمعدات الحربية عبر هذا المكان، كذلك لندرة الحديد والصلب أيام الحرب، فقد رأينا نقل هذا الكوبرى القديم إلى شربين التى تفصل مديرية الشرقية عن الدقهلية، وانه إذا حدث أن ربط هذا الكوبرى بين عزبتين أملكهما فهذا حدث بمحض الصدفة... والله العظيم"

أرى أنه ليس من الضرورى أن استزيد من تفصيلات سخيفة تعرى تلك الدفوع الحكومية الوضيعة، ولا يمكن لأى إنسان لديه ذرة من العقل أن يقتنع بها. الطبقة المتعلمة فى مصر تكتشف بسهولة هذا الأسلوب الخادع وتسخر منه، فالوزراء يملأون أفواههم بكلمات منمقة معسولة، والشعب يضحك فى عبه.

أرى أنه لمصلحة الطبقة المطحونة فى مصر أن يترجم الكتاب الأسود إلى الإنجليزية ويوزع فى انجلترا وأمريكا، لأن ما رسمه هذا الكتاب يعد تعبيرا دقيقا لما يجرى من مآسٍ فى مصر.

فى مارس ١٩٤٢ كنت أتحاور مع مصرى بارز فى المجتمع، وتناقشنا فى الحالة المزرية لكلية الطب

ومستشفياتها، والمصاعب التي تواجه عميد كلية الطب عندما يفكر أو يحاول أن يعمل أي إجراء للإصلاح. قال لي صديقي هذا، "هناك ما يعزينا فعلا، فمهما كانت الأحوال الصحية في مصر سيئة، فإن المصالح الحكومية الأخرى أسوأ منها بعشرات المرات"

بعد عملية "تبييض" وجه حكومة النحاس باشا، حدث تطور يستحق التسجيل، ففي الثاني عشر من يوليو ١٩٤٣، صدر بيان برلماني يقول بأن ما فعله مكرم عبيد من إصداره لكتاب أسود مدعيا أنه يكشف الفساد المستشرى في حكومة الوفد، "ما هو إلا ادعاءات رخيصة وجهها لأعضاء في الوزارة والبرلمان لم نشهد لها مثيلا على مدى الأيام، وما صدر منه يعتبر مخالفا لمبادئ الدستور، ويجعله مواطنا لا يستحق أن يمثل الأمة"، وبالفعل تم طرده من البرلمان بعد معركة حامية الوطيس.

بذلك اختفى هذا الوطني الغيور، أما رئيس الوزراء النحاس باشا فقد مضى في طريقه منتشيا تسنده وتعضده وزارة الخارجية البريطانية. وفي مايو ١٩٤٤ نُشر في جريدة التايمز اللندنية فحوى تلك البرقية، "قبض على مكرم عبيد باشا رئيس الحزب المستقل في مصر هذا المساء وأودع

السجن.

كان واجبا على وزارة الخارجية البريطانية أن تجبر النحاس باشا على الاستقالة بعد نشر الكتاب الأسود وما حفل به من مخزيات وفساد ومظاهر مؤسفة لاستغلال النفوذ، بالطبع يعلم سفيرنا فى مصر ما يحدث علم اليقين. إن سكوته هذا هو حط من سمعة انجلترا فى أعين المصريين وسبّب أبلغ الأذى.

من حسن حظ مصر أن أصدر الملك فاروق في ٩ أكتوبر ١٩٤٤ قرارا بإقالة حكومة النحاس باشا، وفورا أُطلق سراح مكرم عبيد باشا وعُين وزيرا للمالية فى الحكومة التالية التى رأسها أحمد ماهر باشا (السعدى)، لكن لسوء الحظ اغتيل رئيس الوزراء هذا بعد أسابيع قليلة، وحل بدلا منه محمود النقراشى باشا، فاعتزل مكرم الحكم وكون حزبا جديدا باسم "الكتلة"، النتيجة لكل هذا أن استمرت مصر فى كبوتها كالمعتاد.

□□□

الفصل التاسع
شخصيات من كلية الطب

الآن نعود مرة أخرى للمستشفيات. واحد من أوائل من قابلتهم عقب وصولى مصر هو الأستاذ الدكتور برنارد شو، الذى سألته مستفسرا، "هل لك أى صلة قرابة ببرنارد شو الكاتب العظيم ؟" فرد قائلا، "أنا برنارد شو العظيم"، ولا أعتقد انه كان مخطئا فى ظنه هذا، لأنه كان بالتأكيد باثولوجى (علم الأمراض) رائع، وله الفضل فى إنشاء أفضل قسم سمعت عنه فى هذا التخصص، وللأسف غادرنا برنارد بعد سنة واحدة من قدومى لمصر واستلم وظيفة لنفس تخصصه فى جامعة ديرهام.

لقد أحب وتقرب الأستاذ برنارد إلى الطلبة فبادلوه الحب والوداد، لكنه لم يستسغ تصرفات أساتذة الطب الآخرين واعتبرهم غير مؤهلين لشغل وظائفهم تلك.

لم يستغرقنى وقت طويل لأكتشف سوء حالة المستشفيات المصرية، وربما فى سنة ١٩٣٨ أخبرت الأستاذ برنارد اننى أنوى كتابة سجل يكشف الأحوال الرديئة فيها، لذا كثرت زيارات الدكتور برنارد لى حاكيا عن الفضائح فى كلية الطب لأسجلها فى كتابى المنتظر، لكنى للأسف فقدت تلك المذكرات

الأولية التى دونت فيها ملاحظاته، وكنت أتمنى لو كتب هو هذا الكتاب ويدعوه باسم "حيرة أستاذ"، كنت متأكدا أنه سيصبح سجلا حافلا مؤثرا. وقد خلفه فى منصبه أستاذ مصرى، ومن يومها فقد قسم الباثولوجى سمعته الطيبة.

أما هذا الأستاذ المصرى فهو شخص مرح ضئيل الجسم، لكن تستغرقه دائما أفكار مضحكة مبكية، قال لى يوما: "إن مهمة الأستاذ هى مهمة مقدسة، بل وأقدس من الحق نفسه طبقا للمقاييس المصرية". كان أفضل إنجازاته هى عندما كتب للمرحوم الملك فؤاد يبشره بأنه اكتشف علاجا للسرطان، كانت طريقته هى أن يحقن قليلاً من بول الإنسان تحت جلد الذين يعانون من السرطان الخبيث. بعد فترة رقى هذا الرجل ليصبح الأستاذ الأول لعلم الأمراض، وبعد استقالتى اعتبر نفسه عميدا لكلية الطب، بينما حصل العميد الحقيقى للكلية الدكتور عزمى باشا - وهو صديق حميم - على أجازة طويلة، مبررا تصرفه هذا بأنه يود أن يبتعد عن الكلية ومشاكلها.

الأستاذ الدكتور عزمى سليمان باشا حاصل على درجة الزمالة من لندن، وهو المصرى الوحيد الذى قابلته وينطبق عليه لفظة الجنتلمان طبقا للمعايير الإنجليزية. هو ذو أصول تركية وخلافا عن كونه مستشارا طبيا يشار له بالبنان ويعتمد عليه، فهو أيضا مزارع ينتهج الأسلوب العلمى فى الزراعة

بأعلى المستويات. كان وهو فى مزرعته التى تقع بجوار الأهرامات ووسط حيواناته وأشجار الفاكهة والفلاحين يبدو كأنه أحد السادة القدماء الذين سمعنا عنهم وعاشوا فى ظل العهد الفكتورى بانجلترا، واذا تخيلت بكويك تلك الشخصية الشهيرة التى ابتدعها ديكنز فإنك ستجده متجسدا فى هذا الرجل المصرى التركى سواء فى الشخصية أو أسلوب المعاملة والتصرفات.

لسنوات اشتركت معه فى تصحيح امتحان البكالوريوس والدكتوراه، وجدته ليس فقط إنساناً منصفاً وعادلاً كأنما هو ممتحن انجليزى، بل هو أيضا لطيف ومرح. مرة فى الامتحان العملى أعطيت طالبا جهاز "بوتين" لكى يجمع أجزاءه. هذا الجهاز عبارة عن وعاء زجاجى ينتهى بطرفين يثبت فى كل منهما أنبوبة، الطرف الأول ينتهى بمحقن كبير لشفط الهواء من الوعاء والطرف الآخر ينتهى بإبرة تغرز فى صدر المريض لاستخراج السائل البلورى بواسطة شفط الهواء بالمحقن لخلق فراغ يساعد على تدفق السائل. وبدأ الطالب أمامى متبلدا لا يعرف من أين يبدأ، وتدريجيا بالشرح والمساعدة جمعنا له الجهاز ليصبح قطعة واحدة، إلا انه أخذ ينظر إليه بغباء وقد أمسك المحقن بيد والإبرة باليد الأخرى، حينئذ قال له عزمى باشا - الذى ظل واقفا حتى هذه اللحظة

ساكنا بجوارى- "والآن يا ابنى.. أى طرف من الجهاز يدخل صدر المريض ؟" فضحكت فى سرى لهذه السخرية اللطيفة التى يصعب مضاهاتها.

مرة أخرى كنا سويا نمتحن مجموعة من الطلبة، كنت أحاورهم وأداورهم يمينا ويسارا، وعندما قاربنا من الانتهاء، دخل إلينا الأستاذ الدكتور صبحي مندفعا وقال، "الم تسمعا الأخبار، عميد كلية الطب ببغداد جُرح جرحا بليغا، أما أستاذ العقاقير فقد أصابته رصاصة فى صدره، من أطلق عليهما الرصاص ليس سوى طالب طب كان يمتحن أمامهما، وعندما عجز عن تحر الإجابة السليمة، أخرج مسدسه وأطلقه عليهما"، هنا التفت نحوى الدكتور عزمى باشا وغمز بعينه قائلا لى، "ألم أقل لك يا دكتور أن تكون حريصا.. هذا جزاء من يحاور ويداور الطلبة فى الامتحانات".

مأساة الدكتور عزمى باشا أنه عندما عُين عميدا لكلية الطب، كان فى كل تصرفاته إنسانا مهذبا بالمقارنة بمن سبقه مباشرة فى العمادة. هذا الأخير، عندما ضمن الحصول على معاش وزير، رجع مرة أخرى ليصبح رئيسا للجامعة. أما عزمى باشا فقد أجهد نفسه وحضّر بحثا قيما يشرح فيه مسألة إدارة المستشفيات التعليمية من كل نواحيها سواء بالأسلوب الإنجليزى أو الفرنسي أو الألمانى، وكثير من

اقتراحاته وأفكاره تستحق الإعجاب، لكن رئيس الجامعة رفض بحث هذه الاقتراحات، وأجزم هنا أن تدهور أحوال المستشفيات الجامعية ليس سببه أبدا عزمى باشا، وسوف يلقى المذنبون الحقيقيون على كاهله كل لوم، يشاركهم فى ذلك كل من لا يعلم شيئا، لكنى أعتقد أنه هو الشخص الوحيد الذى سيخرج من هذه الملمة بدون أن تعلق به ذرة واحدة من ضعف الأخلاق.

من الشخصيات الأخرى التى عرفتها الدكتور صبحي جورجى، هو جنتلمان لكن يحمل فى طيات جوانحه هماً دفيناً. وهو قبطى رُقي لمنصبه بعد الدكتور عبد العزيز إسماعيل الذى شغل كرسى طب الأمراض الباطنية. الدكتور صبحي هذا، مع كونه طبيب متميز ومعروف، إلا انه أيضا يعتبر حُجة فى الأدب واللغة القبطية.

قبل حضورى مصر كنت لا أعرف من هم الأقباط، كنت أظنهم نوع من الأحزاب السياسية، لكن فى الحقيقة هم من المسيحيين الأوائل فى العالم. طقوسهم كما هى منذ تسلموها من القديس مرقس فى القرن الأول الميلادى، ويعتبروه البطريرك الأول لهم. هم أقلية فى مصر ويبلغ تعدادهم حوالى مليون من البشر.

من الشخصيات التى تفاعلت معها وأعجبت به، الدكتور

عبد العزيز إسماعيل باشا، الحاصل على درجة الزمالة من لندن، وقد حصل على شهرة متميزة فى مهنته لأنه طبيب بارع، وشاغله الوحيد بعد ممارسة الطب هو تنمية ثروته من مصادر متنوعة مختلفة، ويعرف بأنه إنسان متدين حقيقى ويعتبر حجة فى تفسير القرآن الكريم. بالرغم من أنه كان يشغل وظيفة أستاذ للطب الباطنى، إلا انه لم يكن مهتما بالتدريس عموما ويكره موسم الامتحانات. بالرغم من كونه أكثر من قابلتهم ذكاء ويعتبر ممتحنا عادلا ومنصفا، إلا انه نادرا ما كان يحضر اجتماعات مجلس الكلية. مع ذلك، هو أفضل من قابلتهم من المصريين، لأنه إنسان مستقيم وبه ميزة كبرى هى انه لا يرفض النصيحة ويعود للحق إذا اقتنع انه كان على خطأ.

فى إحدى مناسبات امتحانات البكالوريوس وفى وسطها، هجر اللجان وأسرع للكشف على مريض بعيادته، ووقع علّى بمفردى عبء الإشراف الكامل على الامتحان. كان هذا أكثر من طاقتى البدنية والنفسية، لذا أخطرت بعدها العميد حيث أنها لم تكن الواقعة الأولى، وما أن علم الدكتور عبد العزيز بذلك حتى هاج وماج، واقتحم غرفتى ثائرا غاضبا وقال انه لا يهتم قيد أنملة سواء بى أو بالعميد أو بالجامعة، فهو مستقل ولا يهمه أحدا وأن ما يمكن أن يحصل عليه من دخل مجزٍ من

ممارسته للطب فى عيادته الخاصة أو من المضاربة فى البورصة فى يوم واحد يفوق ما يحصل عليه من الحكومة فى سنة كاملة كأستاذ فى الجامعة، وأن الامتحانات التى تستغرق تسعة أيام ما هى إلا ضياع لوقته الثمين، فقلت له بهدوء "يا عبد العزيز، أنت أستاذ محترم فى الجامعة، وأنت من قادة المجتمع، بالتالى يقع على كاهلك مسئولية عظمى. عندما تهمل امتحانا بالطريقة التى اتبعتها، فأنت بذلك تعطى مثالا سيئا يحتذى به من هم أصغر سنا منك. أنت تعلم تماما كم هم مستعدين لذلك، وما فعلته ليس فيه إنصاف لك، ولا يستحق رجلا فى عبقريتك ومكانتك".

بدلا من أن يستمر عبد العزيز فى ثورته ويتابع دفاعه، فوجئت به يقول، "أنت على حق، لم يكن من اللائق أن اترك الامتحانات بهذا الشكل. صدقنى، لن يحدث هذا بعد ذلك أبدا" وفعلا لم يحدث، ولم يتأخر أبدا فى الإشراف على امتحانات مادته مهما كانت درجة انشغاله. هذا هو عبد العزيز باشا الصديق العزيز الذى كنت أكن له كل الحب والتقدير. عندما توفى بعد ذلك بعامين، لم تفقد مصر فقط طبيبا فذا، ولكن فقدت إنسانا طيبا متميزا.

مات عبد العزيز من إجهاد العمل، كنت قد حذرته مرارا وتكرارا من ذلك، وانه إذا لم يراعِ نفسه وصحته بالقدر

الكافى فإنه سيتعرض لأوخم العواقب. كان يشكو من ضغط دم عالٍ ونادرا ما كان يعطى لنفسه إجازة من عمله. ذهبت لجنازته متأخرا، وفى مدخل مسكنه لاحظت تواجد بحر من الدماء، ظننت وقوع حادث، لكنى علمت لاحقا أنهم ذبحوا ثورا طبقا لعادتهم، وجعلوا الدم يلطخ الكفن.

وفى جنازة الملك فؤاد، علمت أنهم ذبحوا ستة من الثيران ووزعوا لحومها بعد ذلك على الفقراء.

وقد تلقى عبد العزيز باشا تحذيرا بالموت، ففى صباح يوم وفاته، أخبر عائلته انه حلم بعم له مات منذ عدة سنوات، اخبره بأن يحزم حقائبه لأنه سيغادر هذا العالم، وبينما كان يسير فى حديقته بعد الإفطار وقع ميتا.

بعد شهر أو أكثر جلست فى سرادق متعدد الألوان نصب داخل حرم مستشفى القصر العينى فى ذكرى وفاته. أحسست فعلا بالخسارة الجسيمة لفقدان هذا الرجل الذى لم يتجاوز الثانية والخمسين من العمر، واستمعت لترتيل القرآن الكريم وعبارات التعازى وكذلك الأبيات الشعرية التى تليت وكلها تعبر عن الحزن والأسى لفقده. وتقديرا لهذا الصديق قمت بتأليف بعض الأبيات الشعرية قرأتها لاحقا أمام الجمعية الطبية بالقصر العينى، فيها قلت:

أيها العقل الجبار
أيها النطاسى البارع
يا من فكرت فى إنقاذ الآخرين
أما نفسك فلم تقدر
يا طبيب الملوك
يا شافى الفقراء
تعلق فوق رأسك
سيف داموكليس الرهيب
وما هى حياة الإنسان ؟
أتقامر بها فى البورصة
أو فى سوق المال
لقد أسرعت يا صديقى
تعبر مجرى الموت
العمل والقلق ثم القلق والعمل
لم تكن لك يا صاحبى
....
يوم مات عبد العزيز

تلقى رسالة من عالم الغيب
تقول: احزم حقائبك يا عبدالعزيز
أيها العقل الجبار
ألن تدلنا على الطريق
وتعرفنا أين ؟ ومتى ؟ ولماذا ؟

كان عبد العزيز باشا يكن إعجابا فائقا بالأتراك الذين حكموا مصر ثلاثمائة عام بيد من حديد، وفيما يلي بعض القصص التي رواها لي:

حل جزء من الأسطول الإنجليزي في المياه الإقليمية لجزيرة يحكمها الأتراك، وبدلا من أن يتلقى التحية المعتادة وهي إطلاق ٢١ طلقة مدفع، أطلق الأتراك طلقة واحدة فقط، فاستشاط قائد الأسطول الإنجليزي غضبا وطلبوا تفسيرا لهذا التصرف المشين، فرد حاكم الجزيرة بكل أدب، "لدى مئة سبب لعدم تحيتي لك بالطريقة المعترف بها دوليا، أول هذه الأسباب هي انه لم يكن لدينا سوى طلقة مدفع واحدة !".

وحكاية أخرى: عيّن أحد المصريين الأثرياء تركيا فقيرا ليقود له سيارته، وفي اليوم التالي حضر التركي لمنزل الثرى وقال لأحد الخدم، "اطلع فوق يا ولد، وأخبر الأفندي بتاعكم أن سيده منتظر إفطاره تحت !"

أثناء انتظارنا انتهاء امتحان عملى لطلبة الطب، حكى لنا تلك القصة الحقيقية كما قال: أثناء حرب البلقان سنة ١٩١٢، ذهب طبيبان مصريان ليلتحقا بالجيش التركى، وعند استقبالهما قال القائد التركى، "انتم مصريون، حسنا، انتم فعلا مفيدون لنا، فأنتم أيها المصريون تصلحون تماما لتكونوا خدما لنا !".

أعتقد أن عبد العزيز باشا تجرى فى عروقه بعض الدماء التركية. يقول العالم موير، وهو حجة فى الشئون الشرقية فى كتابه (الخليفة)، "مصر كانت دائما فى خدمة الشعوب الأخرى".

المصريون لن يحكموا بلدهم إلا إذا تعلموا كيف يحكموا، لقد درستهم جيدا وعرفتهم، إنهم يتمتعون بإمكانيات عظيمة، لكن ما لا يستطيعونه أكبر وأعظم. إذا لم تمسك بأيديهم قوة كبرى تبث فيهم الشعور الأخلاقى القويم، وتدرب صغارهم على أساليب الحكم المعتمدة أساسا على العدل، فإن مصر ستظل دولة عبيد، تبدو مظهريا كأنها دولة متمدينة.

من الشخصيات الأخرى التى تعرفت عليها الأستاذ الدكتور أوريب وهو عميد الأساتذة الإنجليز فى كلية طب القاهرة. هو عالم متميز متخصص فى علم الفسيولوجى (علم وظائف الأعضاء)، ويعتبر مدرسا ومحاضرا بارعا.

نعلم أن تشريح الضفدعة كان منذ أربعين عاما هو أساس هذا العلم، عندما كنت طالبا، لاحظت أن وفيات الضفادع كانت مرتفعة بشكل غير عادى، وللأسف فإن أساتذة تلك المادة من المصريين ما زالوا يضعون ثقتهم فى تلك الضفدعة المسكينة. كل ما يهمهم هو أن يؤكدوا الارتباط بين وظائف الأعضاء والحقائق الطبية التى تمس البشر. أما فى انجلترا فإن هذا العلم يضع فى اعتباره الأساسى أن يشرح التأثيرات التى تلحق بجسم الإنسان مباشرة، بدلا من التمعن فى بقايا ضفدعة ضعيفة بائسة.

والأستاذ أوريب - وهو زميل فى الكليات الملكية البريطانية - وُلد فى روسيا، لكنه حاصل على الجنسية الإنجليزية. هو عالم بحق، ولا تستحقه كلية طب القاهرة، وبالرغم من ذلك وخلافا لكل الأساتذة، هو يضع دائما مصلحة وفائدة الطلاب فى المقام الأول من اهتماماته.

الشاب المصرى لا يهتم كثيرا بالعلم البحت، ووظائف مثل معيد لمادة الفسيولوجى لا تسترعى انتباهه لأنها ليست مجزية، هو يبحث دائما عن الوظائف التى تمنح أكبر قدر من المال. كان الأستاذ أوريب يلاقى الأمرين فى تعيين مساعدين له، وعندما أُعلن منذ فترة وجيزة عن وظيفة معيدين لتدريس مادة الفسيولوجى، لم يتقدم إليها أحد سوى اثنين من

الأقباط، وحتى هؤلاء اعترض عليهما رئيس الجامعة بدون إبداء أي أسباب مقنعة !

لا أجد فى ذهنى الآن من أتذكرهم ويستحقون الثناء هنا، لكنى أتذكر أيضا الكثيرين الذين يستحقون الذم واللعن.

فكيف بالله عليكم نصف ذلك الأستاذ الجامعى الذى يتبختر فى أرجاء الكلية وقد نما شعر ذقنه غير الحليق منذ أربعة أيام مثلا، أو ذاك الذى يهمل عمله فى قسمه ويحضر طبقا لهواه، أو كيف تواجه ذاك الذى يحابى أو يضطهد الطلبة فى الامتحانات لأسباب شخصية أو دينية أو طبقية ؟

بصراحة، ومن وجهة النظر الأخلاقية البحتة والمبادئ الإنسانية، هم ببساطة ليسوا حتى جديرين بإنسانيتهم هذه.

أخشى اننى مضطر هنا إلى أن أرخى الستار، فربما يتهمنى البعض بالمحاباة والتحيز، لكنى أقول لكم: اننى بالرغم من قضائى ثلاثين عاما متجولا فى مختلف بلدان أفريقيا، لم يخطر ببالى مطلقا أن أقابل مثل هذه النوعية من البشر المسئولين عن تدريب عدد كبير من الشباب المصرى، هؤلاء الشباب يستحقون فى الواقع ما هو أفضل كثيرا من ذلك. لكن ويا للأسف، ما يواجهونه ليس إلا تلك التصرفات اللاأخلاقية لتلك الجماعة.. إذن ما الأمل الذى يدفعهم للتقدم والرقى ؟ بل وما هو أمل مصر كلها ؟ .

فى الجامعات الكبرى مثل كامبردج وأكسفورد وييل وهارفرد، ما يهمهم فعلا ليس التعليم، لكن ما يشغل بالهم هو، غرس المبادئ الأخلاقية والاجتماعية السليمة التى تنشأ وتتكون من الاحتكاك والتلاحم المثلى بين الأستاذ والطالب، الجميع هناك سواء كانوا طلبة أو أساتذة يتماثلون ويتنافسون فى مجال رفعة الأخلاق والروح الرياضية والأدب والذوق والعدالة، أما الطالب المصرى فإنه لن يحصل على تلك المزايا إلا إذا أسعده الحظ وسافر إلى الخارج.. لكن من الممكن أن يحدث مثل ذلك إذا نُظمت الجامعات المصرية وأُديرت بأسلوب سليم قويم.

□□□

الفصل العاشر
مجلس كلية الطب

أشد ما أخشاه فى مجال دفاعى عن فلاحى مصر وما قد يؤدى إلى تدمير قواعد قضيتى، هو استغراقى المفرط فى استخدام أفعال التفضيل. لقد اختصرت وأوجزت فى أفعال المبالغة هذه، لكنى وجدت صعوبة بالغة بل واستحالة أحيانا أن أصف الأحوال المصرية بدون استخدام كلمات مثل "غير عادى- مدهش- مذهل- لا يمكن تصديقه- غير مقنع بالمرة - فظيع - شنيع".

وصف اجتماع مجلس كلية الطب يندرج فعلا خارج نطاق قدرات قلمى، ولن يحقق القدر الكافى الشافى فى وصف وقائعه، سوى أشعار جيلبرت وموسيقى سوليفان، وذلك عندما ينعقد مرة واحدة فى الشهر، ويحضره أساتذة الكلية من الأطباء والجراحين والعلماء.

الخاصية المميزة لهذه الاجتماعات هى أن كل أعضاء المجلس يتكلمون فى آن واحد، مستخدمين أعلى الأصوات، ومن المستحيل أن تميز صوت الرئيس بسبب المناقشات الجانبية التى لا تتوقف أبدا.

قال لى أحد الزائرين الإنجليز وينتمى إلى الكليات الملكية

البريطانية، أنه حضر اجتماع مجلس الكلية، وكان يجلس عن يمين العميد. لاحظ أن سيادته يسجل فى الأوراق أمامه نتيجة التصويت قبل انتهاء المناقشات أو أخذ الأصوات.

هذا ما شاهدته بنفسى فى عديد من المرات. بعبارة أخرى كلمة العميد هى القانون ذاته، وأن ما يجرى داخل المجلس ليس له أى تأثير على قراراته إطلاقا. كل ما يفعله هذا الدكتور قليل الحجم، هو أن يزيح طربوشه قليلا إلى جانب ويهرش رأسه، ثم يكتب القرارات، وما زالت المناقشات ساخنة، ثم يمررها لسكرتير المجلس للتنفيذ الفورى.

قبل سنوات، اقترح أحد أساتذة الطب الإكلينيكي الذى سبقنى إلى هذا المنصب، أن يسمح لعضو واحد فقط بالكلام، فهب أربعة من الأطباء المصريين واقفين معترضين على هذا لرأى، لأنه -من وجهة نظرهم- يعتبر تعديا على حرية إبداء لرأى والتعبير. أنا شخصيا حاولت أن أحيى هذا الاقتراح، لكنى فشلت كزميلى السابق.

يكون المجلس فى أوج توهجه عندما يتشاجر أستاذان مع بعضهما مستغلين فى تحقيق ذلك مبدأ حرية المناقشة، هنا ترى العجب، حيث تلمع عيونهم، وتقف شعور رأسيهما حتى منبتها، وتتحرك أذرعهما كأنما هى أذرع طواحين الهواء، ويزعقان ويصرخان ويتحول لون وجهيهما إلى اللون القرمزى.

لقد رأيت بعينى بعض الزملاء السمان فى البدن وقد وصلوا إلى مرحلة الإصابة بالسكتة القلبية بسبب انفعالاتهم الزائدة، أكثر ممن شاهدت طوال حياتى العملية التى امتدت إلى أربعين عاما.

من حسن الحظ، أن كلا الخصمين يحتلان مكانين بعيدين عن بعضهما، وغالبا ما يفصلهما مائدة الاجتماع. إذا لم تتوافر هذه الشروط فإننى واثق أن هذه النزاعات ستنتهى غالبا إلى إصابات خطيرة أو تؤدى إلى الوفاة.

رأيت مرة العميد يطرق بأصابعه لتهدئة الجو، ثم يقف بعض الزملاء ويتخذون مواقف استراتيجية بجوار المتنازعين، وقد بدت على وجوههم مظاهر الجد والرزانة، ثم تمسك كل مجموعة بأحد الخصمين، حتى لا يطبق احدهما فى زمارة الآخر.

إن النقص الكامل فى التحكم بالمشاعر والانفعالات التى يتسم بها المثقفون والمتعلمون المصريون شىء عسير على الفهم، لا سيما إذا كان الغاضبون من المصابين بضغط الدم العالى ويعرفون جيدا مغبة ما يفعلونه. من المتصور أن تصدر هذه التصرفات من الفلاحين الذين يتصفون بالمشاعر الملتهبة والجهل والسذاجة ويسرعون بلا تفكير باستخدام النبوت (NABOUT) للإجهاز على خصمهم، لكن لا يتصور إطلاقا أن نشاهد نفس المنظر فى مجلس كلية الطب على مشهد من

زائرى الكليات البريطانية. أعتقد أن من تتاح له الفرصة لتصوير ما يحدث فى المجلس سينمائيا بالصوت والصورة، سوف يجنى ثروة طائلة من ترويج شريطه هذا.

طبقا لخبرتى حدثت أمور كثيرة تدعو للعجب فى اجتماعات هذا المجلس، مرة حضر من انجلترا أحد الأساتذة المشهورين فى الأشعة بناء على دعوة الحكومة المصرية ليفتش على قسم الأشعة بمستشفى جامعة فؤاد الأول. عند مغادرته البلاد، أهدى الكلية مجموعة قيمة من الأشعات والكتب المتخصصة تزيد قيمتها على ٢٠٠٠ جنيه استرلينى واشترط أن تحرص كلية الطب على تزويد هذه المجموعة بكل ما هو جديد يصدر فى مجال علم الأشعة. أثناء مناقشة هذا العرض فى مجلس الكلية توصلوا إلى نتيجة مؤداها أنه يصعب تحقيق هذا الشرط، هنا انبرى أحد الأساتذة قائلا، "حسنا، يمكننا أن نقبل الهدية، ولكن ما الذى يلزمنا أن نحقق شرطه هذا ؟".

هذا الأستاذ بالذات تم تكريمه فى الكليات الملكية البريطانية، ومنحت له درجة الزمالة الفخرية لأنه كان مستوفيا لشروطها. بدون هذه الدرجة، لا يحق له ممارسة مهنته فى المستشفيات الإنجليزية. هو بذلك لم يُعفَ فقط من التعرض لأقسى امتحان عُرف للحصول على درجة متميزة فى الطب، لكنه أيضا اتصف بمستوي هابط من الأخلاق والقيم بالمقارنة

لما تحرص عليه الكليات الملكية من معايير.

أعتقد جازما أن سياسة منح درجة الزمالة بدون امتحان ليست إلا هفوة محزنة تسئ لتقاليد راسخة عظيمة، يجب العمل على إلغائها، حتى المصريين ليسوا على تلك الدرجة من الكرم، فهناك مثلا أستاذ لتخصص معين لم يحصل على درجة الماجستير أو الزمالة وهو كبير فى السن، ومتميز فى مجال تخصصه، لذا طالبت ومعى آخرين أن تمنحه الكلية درجة الماجستير الفخرية، لكنهم رفضوا بشدة، فطلبت منه أن يدخل امتحان الماجستير وسأعمل أن تكون الأسئلة فى مجال تخصصه، ذلك لعلمى بتفوقه وإتقانه لمادته، إلا انه رفض القيام بهذه المخاطرة، وأعتقد أن كرامته وقفت حائلا أمامه.

سمعت مرة أن أحد المرشحين لشغل وظيفة أستاذ أمراض المناطق الحارة وحاصل على درجة الزمالة يشكو بأن الأستاذ الآخر الذى حصل فعلا على تلك الوظيفة، وحاصل على درجة الزمالة الفخرية، قال على مسمع من آخرين انه سعى للحصول على الدرجة الفخرية بغرض الحصول على تلك الوظيفة فقط !

إنها تهمة مشينة يتصف بها زميل من الكليات الملكية ويمارس فعلا مهنة الطب أن يسمح لنفسه بنشر اسمه فى الجرائد السيارة بجوار إعلان عن سلعة استهلاكية، مع ذلك سمح رئيس الجامعة لنفسه وهو الحاصل على درجة الزمالة

الفخرية أن يظهر اسمه فى إعلان يمدح نوعاً من الصابون اسمه "صابون فاروق"، وتتصدر صورته الإعلان مشاركا آخرين من علية القوم من أساتذة الطب والجراحة وكذلك بعض الوزراء.

لماذا تصر الكليات الملكية على مراعاة المحاذير الأخلاقية فى كل أنحاء الإمبراطورية بينما تسمح بتجاوزها فى بلد كمصر ؟

ونعود مرة أخرى إلى اجتماعات المجلس.

منذ سنتين رسب طالب فى امتحان الجراحة العامة فى مادة التوليد، فهب أستاذ أمراض النساء والولادة بالكلية وحاصل على درجة الزمالة البريطانية، وتقدم باحتجاج رسمى أمام مجلس الكلية، وأصر على أن يغير المتحنون درجة هذا الطالب لينجح. قال فى صدر دفاعه: إن الامتحان كان صعبا، وأن هذا الطالب لم يعامل معاملة عادلة، لكن المتحنين رفضوا بكل إباء وشمم أن يغيروا النتيجة، وناصرهم فى ذلك مجلس الكلية، هنا فقد هذا الأستاذ أعصابه وهاج وماج فى الحاضرين صارخا، "إذا لم ينجح هذا الولد، فإنى سأستقيل من وظيفتي. أنا لا أسمح لأحد من أفراد عائلتى أن يعامل هكذا".

فقفزت من مكانى قائلا، "فرد من عائلتك ؟"، فتمالك نفسه

وقال، "أنا أقصد فرد من عائلتى الطلابية". ثم خرج يرغى ويزبد مهددا بالاستقالة - لكنه لم ينفذ وعيده بالطبع - واكتشفت بعد ذلك أن هذا الطالب هو ابن أخيه.

هذا الأستاذ بالذات كان ذا شأن عظيم بالكلية، لأنه كان متزوجا من بنت أخت مناضل عربى معروف من الذين سعوا للاستقلال، هو حائز على درجة الباشاوية، وكان هو الوحيد الذى حصل على تلك الرتبة من الملك فاروق بمناسبة افتتاح مستشفى فؤاد الأول منذ ثلاث سنوات مضت، فى الحقيقة هو أقل الناس استحقاقا لهذه الرتبة، فهو بكل ضمير مستريح يهمل فى عمله الموكل إليه، ولا يحضر للمستشفى أو لإلقاء دروسه سوى مرة واحدة كل عدة شهور، على الرغم من انه يتلقى مرتبا كاملا نظير التدريس فى الكلية وإجراء الكشف الطبى على المرضى بالمستشفى الجامعى ثلاثة أيام فى الأسبوع على الأقل. الممرضة المسئولة عن العيادة الخارجية لم تره أبدا، وطلبت منى أن أشير إليه عندما يزور الملك المستشفى. إحدى الممرضات فى قسمه تقسم أنها لم تره سوى مرة واحدة، وبعض الطلبة اشتكوا لى أنهم كانوا مواظبين على حضور المحاضرات طبقا لمواعيدها المحددة سلفا، لكن لم يروه سوى مرة واحدة على مدى ثلاثة شهور، وفى هذه المرة اليتيمة سمعوا تصفيقا حادا فى الممرات، فاندفعوا خارجا ليجدوا صغار الأطباء وباقى الطلبة يرحبون

بذلك الرجل العظيم الذى حضر ليجرى عملية جراحية أمامهم.

الرئيس المباشر لهذا السيد المهاب هو الدكتور نجيب محفوظ، وهو الذى كتب قبل أعوام سابقة فى كتابه "تاريخ تدريس الطب فى مصر"، الكلمات التالية:

"أرجو مخلصا فى المستقبل أن تختفى مظاهر التحيز والمحاباة والألاعيب السياسية والمؤامرات والهيمنة التى تقف حائلا فى سبيل تقدم وتطور مدرسة الطب".

انه شيء محزن أن تقع بذرة الأمل التى أطلقها محفوظ باشا على أرض صخرية لتنبت مثل هذا الرجل، لكن الأكثر سوءا أن أعضاء أشرف مهنة على وجه البسيطة تكون مدانة بتلك التهم السابقة. حقيقة أن تغض الجامعة وكلية الطب عن مثل تلك الأفعال يعتبر فى حد ذاته مثيرا للجزع والحزن. إن مهنة الطب تجذب إليها أمهر الشباب وأفضل الطبقات فى مصر، واذا كان هذا هو حالها، فما هو حال المصالح الحكومية الأخرى ؟ إنها بالتأكيد أسوأ من ذلك عشرات المرات.

هناك واقعة أخرى حدثت فى مجلس الكلية فى شتاء ٣٩–١٩٤٠ تحمل فى طياتها طعما مريرا ولا سيما أنها تمس سمعة الكليات الملكية، حيث أتى زائر منها، هو عميد وكبير

أطباء إحدى المستشفيات الشهيرة بلندن وفرد من عائلة يهودية معروفة هناك. هذا السيد بمجرد وصوله لمصر عومل معاملة سيئة بسبب ديانته، فبالرغم من أنه مبعوث الكليات الملكية، إلا إنه أُهمل وأُسيئت معاملته بكل الطرق الممكنة، فهم ليسوا فقط تجاهلوه تماما بل استدعى الأمر منه أن ينتقل من مستشفى إلى أخرى باستخدام تاكسيات القاهرة، وما أدراك ما هذه التاكسيات، بينما كان يخصص للزائرين سيارات خاصة تكون تحت تصرفهم. بالرغم من ذلك وبعد رجوعه لإنجلترا كتب أفضل تقرير عن المستشفيات المصرية.

فى تقريره هذا استخدم لفظاً انجليزياً عادياً وبريئاً، إلا أن الأساتذة المصريين اتخذوا من هذا اللفظ ذريعة لمهاجمته بضراوة ففى نهاية تقريره كتب الآتى:

".. إننى أحبذ تصدير عدد متميز من الأطباء الإنجليز ليعملوا فى كلية طب القاهرة، بذلك نضمن غرس مبادئنا وتقاليدنا القويمة المتوارثة التى أسستها أجيال من الخبرة والمعرفة، والتى لن يعوضها أبدا أى درجة مرتفعة من الذكاء والبراعة قد تكون كامنة فى أهل البلد "NATIVES"، لقد استخدم اللفظ "أهالى" بالطريقة المعتادة، حتى كرومر الذى كان يكن للمصريين كل احترام ! ، استخدم هذا اللفظ مرارا وتكرارا فى كتابه المسمى (مصر الحديثة).

لكنها كانت فرصة سانحة لكل المعادين للوجود البريطانى

من أعضاء المجلس، فشنوا هجوما ضاريا على الزائر يقودهم في ذلك أستاذ علم الطفيليات، وادعوا أنه تعمد إهانتهم، وأصروا على تصدير احتجاج رسمي يرسل للكليات الملكية البريطانية يطلبون فيه سحب التقرير. وبالرغم من تأكيدي لهم أن لفظة "أهالي" هذه هي لفظة عادية تستخدم في العالم كله للدلالة على السكان الأصليين لأي بلد، وإننا دائما ما نذكر في حديثنا: أهالي ويلز، أهالي اسكتلندا وهكذا، إلا أنهم رفضوا هذا التفسير، أو بالأصح لم يشاءوا الاقتناع.

انني على يقين من أن الزائر استخدم هذا اللفظ بكل حسن النية، لأنه أرسل لي لاحقا خطابا يذكر فيه انه تمتع بزيارة مصر وانه يأمل تكرارها بعد انتهاء الحرب.

لا يمكن لرجل يعبر عن كل تلك الأماني، ثم يتعمد إهانة مضيفه، وأرسل الاحتجاج فعلا لإنجلترا، وهنا ارتكبت الكليات الملكية خطأ لا يغتفر، فبدلا من أن تشرح وتقول إن ما ذكره الزائر لا يعتبر سبا في أحد، كتبوا في مجال ردهم أنهم "تأثروا جدا"، وبذلك رموا الرجل للذئاب.

وسحب التقرير بالفعل وأرسل بديل له لا يحوي داخله تلك الكلمة الفظيعة.

□□□

الفصل الحادى عشر

الطب المصرى قبل عهد كرومر

قبل التطرق للحديث عن أحوال المستشفيات فى أيامنا هذه، يلزمنا أن نذكر شيئا عن أحوالها قبل الاحتلال الإنجليزى.

تأسست الممارسة الطبية منذ أمد بعيد معتمدة على الدجل والشعوذة والتطير، فالطبقات الفقيرة فى مصر لا تبحث عن المساندة الطبية إلا والمريض فى حالة احتضار. كان الحلاقون وعجائز النساء يُستدعوْن لتطبيب المرضى، بأفعالهم تزداد حالة المريض سوءا. كان هناك إيمان أكيد بالشفاء عن طريق الأحجبة المكتوبة التى تحتوى على خليط من آيات القرآن الكريم للمسلمين، أو عبارات من المزامير والأناجيل بالنسبة للمسيحيين، أو تحتوى على طلاسم وكتابات لا معنى لها.

إحدى الوسائل المعروفة التى تستخدم كترياق ضد السموم هى كتابة بعض الآيات القرآنية على قطعة من الورق، ثم توضع هذه فى طبق مملوء بالماء ويطلب من المريض أن يشربه.

كان من العادات المألوفة المنتشرة بين المسلمين والمسيحيين أن يلبسوا خيطا معلقا به قطعة من عظمة يهودى للنجاة من

الحمى، وكثيرا ما كانت تستخدم قطعة من إحدى ،س ،يامات المصرية القديمة لنفس الغرض.

ولكى تحمل السيدة العقيم، عليها أن تخطو فوق جثة محكوم عليه بالإعدام، أو أن تتدحرج بين مشاهد القبور، أو أن تخطو فوق جمجمة إنسان.

لشفاء دمل فى العين، يجب على المريض أن يأكل لقيمات من الخبز حصل عليها أهله من سبع نساء، كل منهن اسمها فاطمة.

هناك العديد من العلاجات والوسائل لتجنب عين الحسود، من ضمنها ضرورة الاحتفاظ بقرد داخل المنزل لصرف أذى العين المسيئة.

وقد شاهد الدكتور ساندوتش وسيلة عجيبة لاستعدال ورك مريضة، فقد أمر المجبراتى أن يُربط ساق المريضة على بطن بقرة نصف جائعة، ثم تطعم البقرة حتى يؤدي الانتفاخ التدريجى لبطنها من استعدال الورك وعودته إلى طبيعته الأصلية.

الفضل الأول لإتباع الأساليب العلمية فى الطب تعود إلى الدكتور كلوت بيك، وهو الرجل الذى استدعاه الوالى محمد على باشا سنة ,١٨٤٢ هذا الرجل بنى مستشفى وأنشأ أأ مدرسة للطب نُقلت بعد ذلك بفترة إلى القصر العينى، كان هو

مديرها الأول. كانت مشكلته العويصة هى لغة التدريس والمعارضة الحادة التى يلقاها عندما يفكر فى تشريح جثة لإفادة طلبته وقد تغلب على كلتا العقبتين ,لكن بشق الأنفس.

فى إحدى المرات ثار طالب ثورة عارمة عندما رأى الجثة أمامه تشرح، فهجم على كلوت بيك قاصدا قتله وطعنه فى جبهته وصدره، لكن تدخل باقى الطلبة سريعا وقُبض على المعتدى. ثم واصل كلوت بيك محاضرته وسط إعجاب الحاضرين برباطة جأشه.

ما وجده كلوت بيك كان هو الفوضى الشاملة، فحاول خلق النظام وإقراره، لذا أنشأ الصيدليات ودرب القابلات وشيد المستوصفات، وأنشأ أماكن مخصصة لحجز المشتبه فى تعرضهم لأمراض معدية، واستقدم من الخارج الطعم المقاوم لمرض الجدرى، ودرب ٢٥٠٠ من الحلاقين ليطعموا الناس بالمصل، وككل المصلحين كان له أعداء ومحبطين، لذا وجد نفسه مضطرا أن يتقدم باستقالته سنة ١٨٤٩ ,

بعد استقالته بخمس سنوات، وصل الحال بمدرسة الطب إلى الدرك الأسفل، فأمر حاكم البلاد حينذاك، وهو سعيد باشا، بإلغاء المدرسة وتجنيد طلبتها فى الجيش. عندما سمع كلوت بيك هذه الأنباء، قال بحزن وأسى، "هو ذا أهم ما صنعته فى حياتى، أراه يدمر فى يوم واحد".

بتشجيع من كلوت بيك، أعيد افتتاح مدرسة الطب سنة ١٨٥٦، لكنها تعرضت للإهمال مرة أخرى بعد فترة وجيزة. بعد دخول الإنجليز مصر سنة ١٨٨٢، وصف الدكتور ساندوتش حالة مدرسة الطب بالقصر العينى بالعبارات التالية، "المستشفى والمدرسة كانتا فى حالة يرثى لها، المرضي الذين يرتادونها يحضرون إليها تحت ضغط شديد، الجراحة المعقمة لم يسمع عنها أحد، التخدير لا يعترف به، كل الجراحات الكبرى تتم بدونه، المرضي الثائرون يقيدون بالحبال من أيديهم وأرجلهم. أما جدران المستشفى ففيها شقوق تتعايش بها بعض الثعابين، الملاط على الحوائط اختفى منذ زمن بعيد ولم يجدد. الأدوار الأرضية كانت تستخدم كمخازن وهى رطبة معتمة، أما غرفة الأدوية فهى الوحيدة التى تعتبر إلى حد ما نظيفة، وقد رُصت فيها أوانٍ مملوءة بكبريتات الحديد التى كانت تستخدم كما يبدو كمطهر ضد مرض الكوليرا. غرف المرضى دائما مقفلة الأبواب والنوافذ، لذا هى تسبح فى رائحة عطنة مقززة، التهوية مفتقدة تماما، الحوائط الغفل والأسقف الخشبية تعشش فيها حشرة البق التى غزت أيضا أسرة المرضى، مما جعل هؤلاء يفضلون النوم فى الممرات هربا منها، حتى الأغطية تعود غالبا من المغسلة وهى ما زالت مليئة بالقمل. واقعيا لا توجد أي أوانٍ للأكل سوى قصعات وعلب من الصفيح الصدئ، لكن ما

يتفوق على جميع الرذائل، هو الرائحة العفنة الفظيعة المنبعثة من دورات المياه والحمامات... لكل هذا لم يسع أحد للدخول إلى المستشفى بمحض إرادته، ما عدا المتسولون والعميان الذين يساقون إلى هناك سوقا لفقرهم المدقع. سكان القاهرة يعتقدون أن دخول هذه المستشفى هو المقدمة الطبيعية لولوج منطقة المقابر، علما بأن المرضى يُضربون ويُسلبون بمعرفة العاملين فيها".

إنه وصف مريع، لكنه حقيقي تماما. حتى الآن، وبعد ستين عاما، يخشى الفلاحون دخول المستشفيات، لأنهم على ثقة بأنهم سيُضربون وتسرق متعلقاتهم.

من التقارير الطريفة التي وجدها الدكتور ساندوتش في الأوراق المحفوظة في المستشفى الآتي، "نجح كل من الخصيان الماظ أغا وسليمان أغا في الامتحان النهائي للمولدات. ولأنهما يحملان فعلا درجة امباشي، لذا نقترح أن يرقيا كليهما لدرجة باشاويش !".

في عام ١٨٨٣ عُين عيسى حمدي باشا - وهو تركي- مديرا لمدرسة الطب يعاونه مستر هربرت ميلتون كمدير إداري. عيسى حمدي هذا كان طبيبا خاصا للخديوي، هو رجل ذو حيثية، ويعتبر إداريا ناجحا. استطاع أن يرفع المعايير العملية للمدرسة إلى الذرى، أثناء فترة رئاسته كان

المدرسون يعينون بعد فحص شامل وبدون توصية، حيث يمتحنون بمعرفة مجموعة أساتذة المستشفى. هذا الأمر ذاته هو الذى أدى إلى أن يقدم عيسى باشا استقالته من منصبه، فقد أراد أحد الوزراء أن يعين ابن أخيه أستاذا فى المدرسة، فانتهز فرصة غياب عيسى باشا فى أجازة ونفذ رغبته بدون حتى استشارة مجلس الإدارة، لذا قدم عيسى استقالته عام ١٨٨٩, بعد ثلاثين عاما من استقالته، انتخبه مجلس إدارة المستشفى كطبيب استشارى فيها تكريما له وإعجابا بخدماته.

من ١٨٩٨ حتى ١٩١٩، عُين الدكتور كيتنج أستاذ التشريح مديرا للمستشفى والمدرسة. يمكن القول باطمئنان أن الدكتور كيتنج كان هو المستشفى والمدرسة، هو أيرلندى الجنسية، ويصفه الدكتور مادن فى مذكراته بقوله، "كان رجلا ذا همة ونشاط ورؤى غير عادية، أحيانا كان يثور ثورته الايرلندية المعروفة والتى كانت تعصف بكل شىء، لكنها لا تترك أى أثر سيئ فى النفوس، لقد حكم المدرسة والمستشفى كما يجب أن يكون الحكم، مستخدما سلاح العدل والإنصاف فى يد، وباليد الأخرى امسك بقضيب من حديد... خلال فترة إدارته للمستشفى ارتفع مستواها مضاهية تلك المستويات التى نلمسها فى مستشفيات بريطانيا وأمريكا. لم يبخل

بجـهـده ليـلا أو نـهـارا، ودائمـا مـا تراه فى جـولات بعنابر المستشفيات الجامعية ليتأكد أن العاملين قائمون بواجباتهم بأكمل وجه، وأى تقصير يكتشفه يعاقب عنه فورا".

يذكـر هذا الرجل كـأعظم الرجـال الذين أداروا مـسـألة الصـحة المصـرية، وعندما نتذكر مـا يقال عن مـسـتـشـفـيات الجامعـة هذه الأيام، أسـمع كـثـيرا من المثـقـفين والوطنيين يتحسرون قائلين" هذه الأمور ما كانت لتحدث أيام الدكتور كيتنج ".

تقدم هذا الطبيب الفذ باستقالته وتدهور حال المستشفى مرة أخرى. حـاول خلفه الدكتور ويلسون أن يقف أمام وجه الفساد، لكنه لم يفلح. ثم استقال هذا وخلفه الدكتور ريتشارد وهو ممرور النفس، أما الدكـتور مـادن الذى أتى بعده فقد فـضّل الانتـحـار يـأسـا. فى سنة ١٩٢٩ عُين مـصـريا للمـرة الأولى مـديرا لمستـشـفـيات القصـر العينى والمدرسـة أيضـا، وسـأحـاول أن أشـرح أحـوال المسـتـشـفى فى أيامنا هذه (١٩٤٠-١٩٤٣)

□□□

الفصل الثانى عشر
مستشفى فؤاد الأول

طبقا لاعتقاد بريطانيا بأهمية حصول الدول على حريتها السياسية، منحت انجلترا الاستقلال لمصر سنه ١٩٢٢ لتدير حكومتها المصرية شئون البلاد بنفسها.

بعد مرور عشرين عاما، نجد البلاد وقد أمسك بخناقها وتحكم فيها مجموعة من الباشاوات والأثرياء الإقطاعيين، عديمى الحس والشعور، الذين لا يراعون مثقال ذرة الاعتبارات الإنسانية، والذين يجسدون فى ممارستهم السياسية كثيراً من ملامح الحكم الفاشستى وما كان حدث فى روسيا قبل ثورتها، اهتمامهم بالتقدم الاجتماعى أو الثقافى أو المادى للفلاحين، يقل كثيرا عمن سبقهم من الحكام.

لا ننسى أن فلسفة الحكم الإنجليزى تهتم بالنواحى الإنسانية وتحرم العبودية، ومهما كانت الأخطاء الإدارية التى وقع فيها المسئولون عن حكم مصر من الإنجليز، فإن هذا لا يقع عبئه على الرأى العام البريطانى فى بلده.

ليس لدى شك أن ما سأحكيه عن مستشفيات مصر سوف يشعل الحواس الإنسانية ويصدم مشاعر العالم المتمدين فى

بريطانيا وأمريكا، لكن الموقف فى حاجة إلى شرح مفصل.

من الطبيعى أن ألج الموضوع من زاوية خبرتى كطبيب، على صلة يومية بالمرضى الفقراء الذين يتوافدون بالآلاف إلى المستشفى للاستشارة وتلقى العلاج، إلا اننى أفضل أن أعرض موضوعى متخذا زاوية أوسع مدى، عارضا المشاكل الاجتماعية مع عرض للجوانب السياسية أيضا، لكن كله من وجهة نظر طبيب وأستاذ فى الجامعة الأولى المصرية.

المستشفيات الجامعية فى القاهرة هم ثلاثة: مستشفى القصر العينى ٩٦٧ سرير، مستشفى فؤاد الأول ١١٥١ سريرا، مستشفى الأطفال ١٥٠ سريراً.

مستشفى القصر العينى هو أقدمهم ومقرها هو قصر قديم بناه المسمى أحمد بن العينى، رئيس إسطبلات السلطان وحفيد أحد سلاطين المماليك سنة ١٤٦٦-١٤٦٧م. هذه المستشفى تقع على شط النيل مقابل جزيرة الروضة.

أما مستشفى فؤاد الأول، فإنها تقع عبر مستشفى القصر العينى فى جزيرة الروضة نفسها بجوار القصر المنيف لولى العهد الأمير محمد على.

فكرة مشروع بناء مستشفى فؤاد الأول تعود أساسا للمستر ريتشاردز أستاذ الجراحة قبل سنة ,١٩١٤ هذا الرجل حصل على نيشان الجدارة فى الحرب العالمية الأولى،

ثم عين مديرا لمستشفى ومدرسة القصر العينى سنة ١٩١٩ بدأ فى تنفيذ مشروعه، بأن أوصى بتكوين لجنتين لدراسة الموضوع، وتعهدت مؤسسة هندسية إنجليزية بإعداد الرسوم التفصيلية، إلا أن المخطط تعرض لهجوم ضارٍ من مساعد المدير، الدكتور صالح حمدى الذى اقترح - وقد اتضح بعد ذلك أنه ذو رأى راجح - أن تبنى ثلاث أو أربع مستشفيات فى أماكن مختلفة فى القاهرة، بدلا من بناء مستشفى ضخم واحد فى جزيرة الروضة.

بعد ذلك تأجل المشروع بسبب العقبات المالية التى ارتبطت بمطالبة مصر بالاستقلال، وفى عام ١٩٢٤ استقال الدكتور ريتشاردز.

عندما كان رئيس الجامعة الحالى عميدا لكلية الطب عام ١٩٢٩، استؤنف العمل بالمشروع. فى عام ١٩٣٢ نجح هذا الرجل فى الحصول على مبلغ ضخم قدره ٢٥٠ ألف جنيه من وزارة المالية ليشرع فى البناء، وتكرر تخصيص نفس المبلغ كل سنة حتى عام ١٩٣٧ حتى اكتمل بناء مستشفى فؤاد الأول.

يؤسفنى القول أن المستشفى الجديد ليس إلا فيل أبيض ضخم، أو كأنما هو ضريح جسيم أبيض أكثر من كونه مستشفى، وتفخر الجامعة أن مساحة الدور الأرضى

للمستشفى يعتبر أكبر من أربعة مستشفيات كبرى فى لندن، هذا الدور له ثلاثة ممرات واسعة ومرتفعة طول كل منها ٥٦٩ ياردة، وأن القسم الخارجى يستطيع التعامل مع خمسة آلاف مريض يوميا، لكن ما فائدة الحجم والعدد عندما تقاس راحة المرضى وكفاءة العلاج بالموازين فتوجد ناقصة.

التجهيزات داخل المستشفى بخلاف غرف العمليات - وحتى قبل الحرب - فى حالة مزرية وسيئة. من الصعب أن يعثر الطالب على مقعد ليكتب عليه أو ليستخدمه أقارب المرضى للجلوس عليه فى يوم الزيارة، وهؤلاء يلجئون بالطبع إلى مشاركة المريض فى سريره، مما يؤدى إلى انتشار حمى التيفوس التى تنشط فى الشتاء خاصة بين الفقراء. الأسرة لا تزود بأغطية كافية، لذا يعانى المرضى بشكل مفجع من البرد القارص فى الشتاء، وما أن تشرق الشمس ويشتد عودها حتى يتدفق المرضى على الفرندات مستقبلين الأشعة الدافئة آملين أن تطرد من أجسادهم برد الليل.

افتتاح المستشفى الجديد فى ديسمبر ١٩٣٦، كان أمرا مدهشا يستحق التسجيل، ولأن الزائر المهم الذى يحضر من لندن عادة فى الشتاء ليفتش على المستشفيات قد حان موعد حضوره، لذا قرر العميد افتتاح المستشفى الضخم فى ظرف يوم واحد فقط !

لكن دعنا نستمع إلى السستر سميث فى ذكرى افتتاح هذه المستشفى:

"كلفتنا رئيسة المرضات، بناء على تعليمات من عميد الكلية أن تستعد كل من مس شو (المسئولة على النقل)، ومس سميث (أنا)، ومس واتكنز للانتقال إلى المستشفى الجديد مصاحبين معنا عددا كبيرا من المرضى الذين كانوا متواجدين بمستشفى القصر العينى. كان البرد قارصا، ولم تكن نوافذ الممرات قد ثبتت فيها ألواح الزجاج بعد. ولأن الرياح كانت تزمجر خارجا، لذا تحولت أجنحة المستشفى إلى ثلاجات ضخمة. لم نُخطر ولو قبلها بعدة أيام أو حتى أسبوع واحد لنستعد لنقل مئات المرضى. أخطرنا توفيق بيك مساعد المدير، أن المهمات المطلوبة كلها فى المخازن وأن لنا أن نختار منها ما يلائم تجهيز المستشفى على الفور. فى المستشفى الجديد لم نرَ سوى الأسرة والمراتب والدواليب، أما الأغطية والبطاطين والمخدات والأوعية فعلينا أن نعمل ليلا ونهارا للحصول على أى منها، لذا نفذنا الأوامر مكرهين، ورصصنا المرضى المطلوبين للدراسة عليهم فى ظرف يوم واحد. لم يكن لدينا الوقت الكافى لنسجل على الورق احتياجاتنا من المخازن. لم تكن هناك وسيلة متاحة للتدفئة. كان الموقف مريعا، وأعتقد انه كان واجبا علينا نحن المرضات أن نرفض

تنفيذ تلك الأوامر العشوائية ونطلب أن نُمنح عدة أيام أو حتى أسبوع لنجهز الأقسام، أو حتى إلى أن يتم تثبيت الألواح الزجاجية على نوافذ الممرات، لأننا كممرضات يجب أن يكون شاغلنا الوحيد هو راحة المرضى.. لكن دفعنا دفعا ولم يكن لدينا حتى الوقت الكافى لنحتج فيه".

المسئولية بالطبع لا تقع على عاتق الممرضات، وحتى بدون الوصف السابق، فإن حالات انتشار الالتهاب الرئوى منتشرة بشكل بشع فى مستشفى فؤاد الأول لعدم وجود تدفئة مركزية، وما حدث من نقل فجائى بدون تخطيط بغرض وحيد، هو التأثير على زائر لندن، لا يعتبر مبررا لما حدث.

كل هذا يعطى مثالا واضحا وضوح الشمس عما تفعله الطبقة العليا فى المجتمع المصرى - مع استثناءات قليلة - بإخوانهم الأقل حظا فى الحياة. إن مسألة التدفئة المركزية فى مستشفى فؤاد الأول ذات أهمية قصوى، فى أيام امتحانات شهر ديسمبر حيث تنخفض الحرارة بشكل ملحوظ ويسود البرد القارص، كنت أرتدى فوق ملابسى الثقيلة بالطو كثيف وواضعا فوق رأسى قبعة. أكثر من ذلك، فقد شهدت حالات متعددة لإصابة المرضى بالالتهاب الرئوى أثناء نزع الأغطية والملابس لفحصهم، لذا كنت أحرص دائما على

تواجد دفاية كهربائية مسلطة على المريض أثناء الشرح، لكن هذه الدفايات لم تكن متيسرة دائما. هذه الأحوال الغريبة كانت سائدة حتى قبل بداية الحرب، وقدمت بشأنها عديد من الاحتجاجات، لكن بلا فائدة.

وكان المرضى يرفضون أن يتم فحصهم فى الشتاء ولا ألومهم على ذلك، ولو كان هذا الرفض مسيطرا على الجميع لأصبحت عملية الامتحانات كلها فى خبر كان. العذر الذى يقدمه المسئولون عن عدم توافر التدفئة المركزية هو قلة الاعتمادات، مع ذلك أنفقوا أكثر من مليون ونصف من الجنيهات لعمل هيكل خرسانى لدار عرض خاوية على عروشها. كان من الممكن أن يبنوا مستشفى أقل مظهرية تتسع لنفس العدد من المرضى وبنصف التكاليف، وكان ممكنا أن يجهزوا تلك المستشفى بكل ما يلزمها من مهمات ويتبقى معهم بعد ذلك رصيد يكفى لبناء أربع أو خمس مستشفيات صغيرة كاملة العدة فى أحياء القاهرة الأخرى التى هى فى أشد الحاجة إليها.

مهما كان القصد من بناء مستشفى فؤاد الأول بهذا الحجم الضخم، فمن الواضح أنها بنيت وقد وضعوا نصب أعينهم الحضارة الفرعونية وفخامتها، انه فى الواقع بناء متين

قد يعيش عمرا أطول من الأهرامات. إذا تصورنا جدلا أن هذا البناء قد دمر بسبب التقدم الحضارى، واذا افترضنا أن المتخصصين فى الحضارات القديمة قد حفروا فى الأساسات الهائلة والحجارة الضخمة التى بُنيت بها تلك المستشفى.. فإنهم بالتأكيد سيصرخون قائلين، "لقد اكتشفنا آثارا ترجع لأيام الأسرة الفرعونية الرابعة !"

لذلك فالسبيل الوحيد الذى يجب أن يتخذ بشأن تلك المستشفى الضخمة هو أن تقسم إلى اثنين أو ثلاث مستشفيات، كل واحدة منها مستقلة عن الأخرى من ناحية الإدارة والطاقم الطبى والعيادات الخارجية والأيام.. وهكذا ، لأنها بشكلها الحالى يصعب على فرد واحد أن يديرها ويشرف عليها بمفرده .

حاليا يُنقل الطعام إلى الأقسام المختلفة فى عربات مستهلكة تصدر أنينا وأصواتاً مزعجة تقلل من راحة المرضى. قد يبعد قسم عن الآخر ثلاثمائة ياردة، وعندما يصل الطعام، يكون باردا محتاجا للتسخين مرة أخرى، وهذا ما يحدث أحيانا، إلا انه فى الغالب يوزع كما هو بارد.

هو طعام ردىء الإعداد والطعم، إذا أُضيف إليه عنصر البرودة، فانه يصبح غير لائق للتقديم ولا سيما بالنسبة لمن

يحتاجه من المرضى بأمراض خطيرة.

العدوى من الذباب

حديثا زارنا طبيب هندى، وتجول فى المستشفى. كان تعليقه، "فعلا هذا بناء رائع وأنت تنظر إليه عبر النيل، لكن أين السلك المانع لدخول الذباب ؟".

انه شيء محزن، لا سيما خلال أيام الصيف، عندما نرى النائمين وقد غطوا أيديهم وأرجلهم خوفا من الهجوم المتواصل الذى تشنه عليهم جحافل الذباب. طبعا كما هو معروف، ليس الذباب فقط مصدر إزعاج، لكنه هو أيضا ناقل نشط لأنواع مختلفة من الأمراض. الدوسنتاريا تنتشر بشكل بشع وتصيب المرضى بالمستشفيات، لا سيما فى أيام الصيف. حديثا فى أحد الأقسام، لاحظت أن اثنين من المرضى المصابين بهبوط قلبى حاد، قد التقطوا أيضا مرض الإسهال الأميبى من المستشفى ذاتها، هذا أمر يصعب تصوره، لكن سهل التفسير، فعدم وجود موانع تقف حائلا من مخالطة الذباب للمرضى فى الأقسام أو دورات المياه، هو السبب فى كل تلك المعاناة.

يجب أن تجهز المطابخ والحمامات فورا بمصدات تحول دون دخول الذباب، بالإضافة إلى ضرورة مقاومة هذه الحشرة

المؤذية داخليا أيضا بكل الوسائل المعروفة فى كل من المستشفيين.

لكن ما الذى يصنعه الإنسان لأفراد بنوا مستشفى تكلف مليونين من الجنيهات، ثم ينقصهم الوعى وبعد النظر، بحيث يعملوا على منع الأمراض الدخيلة التى تتعايش وتتزامن مع البرد أو الحر الشديد، وحتى إذا لُفت نظرهم لهذا القصور فإنهم يغضون الطرف ولا يفعلون شيئا بشأنها.

□□□

الفصل الثالث عشر
التمورجية الذكور فى مصر
وخطة السنوات الخمس للتمريض

بدون تمريض جيد لا تعتبر أي مستشفى مكانا مناسبا لارتياده، فى مصر يعتبر دخول المستشفى الحكومى أمرا مهددا للحياة نفسها

منذ عامين، فى أبريل ١٩٤٢، أخبرت مكرم عبيد باشا الذى كان يشغل منصب وزير المالية حينذاك، أن مستشفى فؤاد الأول يمثل تهديدا بالغا لحياة وصحة المرضي الفقراء، ويجب إغلاقها فورا.

كل هذا ليس بسبب ما يتعرض إليه المرضى من إهمال وسوء معاملة من الممرضين، ولكنهم - كما عبر عن ذلك أستاذ مصرى أفضل تعبير - يلتقطون بسهولة من داخل المستشفى أمراضاً أخرى متعددة كالدوسنتاريا التى يسببها الذباب وكذلك الالتهاب الرئوى الذى يسببه عدم تدفئة الأقسام. الطبقة الوسطي لا تفكر أبدا فى دخول مستشفى فؤاد الأول، أما الطبقة العليا والأوروبيون، فإنهم لا يرسلون خدمهم إلى تلك المستشفى، بل يفضلون إلحاقهم بالمستشفيات الخاصة

بالمصروفات.

السفرجى الذى يعمل لدى، رفض تماما أن يرسل زوجته لتلك المستشفى، أما الأمير محمد على الذى طُلب منه أن يجود بتبرع بمناسبة يوم المستشفيات، فانه قال، "بصفتى ولى العهد سأعطيكم ٢٠٠ جنيه، لكن بصفتى محمد على فقط، فلن تحصلوا منى على شىء، بسبب الحالة المزرية التى لاحظتها على مستشفياتكم". هذا ما رواه لى الأمير شخصيا.

أعرف مصريين سروا وابتهجوا لأنهم خرجوا بابنتهم حية من مستشفى فؤاد، حتى أن أقاربهم حضروا ومعهم الورود والرياحين، احتفالا بخروجها سالمة، وهم يزغردون ويعبرون عن خالص شكرهم لله.

أما عويل النساء المرعب، فإنك تسمعه كثيرا فى الجوار بقرب المشرحة. كل يوم هناك وارد جديد، والفلاحون لديهم قول مأثور أوردته فى (خطابى المفتوح) يقول، "من يدخل القصر العينى مفقود ومن يخرج منه مولود". أعتقد أن لفظ محظوظ أكثر تعبيرا من مولود.

لعل أكثر الأمور ملامة ويعتبر مظهرا مقززا فى المستشفيات الحكومية المصرية سواء بالقاهرة أو الإسكندرية أو باقى المديريات، هو الابتزاز الذى يتعرض له الفلاحون التعساء الفقراء على يد التمورجية.

معظم هؤلاء الناس ليسوا إلا رجال عصابات من أسوأ الأنواع، يجب أن يستبعدوا من هذه الوظيفة المهمة إذا أراد المسئولون أن تصبح المستشفيات مكانا لائقا يطلق عليها هذا الاسم بالمفهوم الحضارى.

بمجرد وصولى مصر، قُبض على تمرجى لأنه كان يبتز مريضا، وأحضروه إلى فبعثت به إلى رئيسة الممرضات، وبدلا من تعمل على رفته، غرمته أجر عدة أيام وأعادته مرة أخرى للعمل.

كان هذا الرجل عديم النفع وكسولاً ومجرماً. كنت أعلم أنه يأخذ نقودا من المرضى، لكنى لم أتمكن من الإمساك به. ومنذ ثمانية عشر شهرا أهان هذا التمرجى ذاته الممرضة المسئولة عن قسمى، فأبلغت عنه رئيسة الممرضات، مرة أخرى بدلا من أن تبعده نهائيا عن العمل، أرسلته للعمل بالمستشفى القديم تحت ملاحظتها ورقابتها. أما الممرضة التى أُهينت، وهى مس بارنز - والتى تعتبر من أفضل الممرضات - فقد قدمت استقالتها وعادت لانجلترا. قالت لى قبل مغادرتها انه لا يوجد ما يسمى بالتمريض فى مستشفى فؤاد الأول.

لقد كان رحيلها خسارة كبرى، لكنها الآن تشغل منصب كبيرة الممرضات فى مستشفى بمدينة لندن.

هذا التمرجى بالذات أرسل لى باقة من الزهور مرفق به

خطاب كتبته له سيدة إنجليزية تجهل بالمرة أخلاقه، طالبا عودته للعمل بقسمى.. بالطبع رفضت.

التمورجية هؤلاء هم آفة كريهة ابتليت بهم كل المستشفيات الحكومية. هم لا يتلقون أى محاضرات أو تعليم روتينى، لكن يؤخذون كما هم، ثم يُدفع بهم إلى الأقسام لعلهم يلتقطون شيئا من هنا أو هناك كل حسب مقدرته. فى الواقع، أفضل ما يلتقطونه هى النقود الشحيحة التى يحضر بها المرضى، كذلك كل ما تقع عليه أيديهم من مهمات، على شريطة أن لا يتعرضوا للإمساك بهم متلبسين.

أجور هؤلاء تتراوح ما بين ٢-٤ جنيهات شهريا طبقا لمدة الخدمة، وقد يحصل البعض منهم على زيادات بناء على توصيات خاصة. وكثيرا ما كان يُطلب منى كتابة توصية عن ممرضين لم أرهم أو أسمع عنهم شيئا من قبل !

بالرغم من أجورهم الضئيلة، إلا أنهم يتهافتون على تلك الوظيفة بسبب ما قد يسلبونه من المرضى، بعضهم قد يصل دخله إلى عشرة أو خمسة عشر جنيها شهريا باستخدام هذا الأسلوب الدنيء.

المرضى يجب أن يدفعوا مقابل الدواء الموصوف لهم. حتى الأكل المخصص لهم لا ينالونه إلا إذا ابرزوا المقابل، واذا رفضوا هذا الأسلوب فإنهم سيغادرون المستشفى وهم ما

زالوا مرضى أو نصف جائعين أو مضروبين من التمورجية الذين يستخدمون كل الوسائل لابتزاز النقود القليلة التى يمتلكونها.

أعرف أفرادا يعملون فى المجال الطبى أو الادارى فى المستشفى يعطون خدمهم نقودا ليدفعونها بقشيشا للتمرجية ليتجنبوا المعاملة السيئة، هى بالطبع سياسة الضعفاء وسياسة خاطئة أيضا، حيث تسمح لهؤلاء اللصوص على مداومة ممارساتهم.

كنت يوما فى مكتب العميد عندما دخل إلينا أستاذ مصرى متخصص فى الأمراض العصبية - وهو إنسان طيب - وتقدم للعميد بشكوى مفادها أن جاره أرسل خادمه للمستشفى ومعه ثلاثين قرشا ليدفعها رشوة للتمرجى. فى مكتب الاستقبال تحرش به بعض التمورجية وطلبوا أن يعطيهم نقودا فرفض، لذا قادوه إلى قسم خارجى وفى الطريق اعتدوا عليه ضربا وسرقوه. اشتكى الأستاذ إلى مساعدة رئيسة الممرضات، التى ادعت انه طالما حدث الاعتداء خارج حدود المستشفى الداخلية، فإنها لا تستطيع عمل شىء ما. تم إخطار البوليس، لكن هؤلاء قالوا بأنه لا أمل فى عمل إجراء ما، لأن كلام اثنين من التمورجية أقوى من الناحية القانونية من كلام السفرجى، أيضا لم يكن هناك شهود.

وأخبرني العميد أيضا أن خادم صديق له، دفع كل ما كان معه التمورجية، إلا انه استبقى قرشين معه. عند عودته، تبعه أحد أفراد عصابة التمورجية وطالبه بدفع أجر ركوبه الترماى، ثم أخذ منه القرش المتبقى الذى استبقاه الخادم لغذائه.

الطبيب الشهير، الدكتور عفت المسئول عن أقسام الخريجين، قال: إنه أنذر كل المرضى الذين أرسلهم لمستشفى فؤاد الأول بأنهم مسئولون عن تصرفهم هذا وحذرهم منها.

فى صباح أحد الأيام، كانت إحدى الإنجليزيات فى غرفة تطل على قسم الجراحة بمستشفى القصر العينى. رأت بعينيها ممرضا يمسك بمرتبة يرقد عليه صبى مصاب بجرح خطير فى ساقه ويلقى به إلى الأرض، فأسرعت وهى مرعوبة وأخطرت رئيسة الممرضات ومساعد المدير، نتج عن ذلك رفت هذا التمورجى، بينما كان واجبا أن يلقى به فى السجن.

بالإضافة إلى نشاط التمورجية فى ابتزاز المرضى، فإنهم أيضا يسرقون مهمات المستشفى وأجهزتها وكذلك الدواء والطعام.

هذا علمته بمجرد قدومى مصر. أخبرونى أنه باستطاعتى شراء كل أنواع الأدوية والحقن وكل الأدوات الطبية، من المقاهى المنتشرة فى بولاق. إنها جميعا ليست سوى مهمات

مسروقة من مستشفى القصر العينى. لذا أعطيت مرة سائقى جنيها مصريا وطلبت منه أن يشترى بعض هذه المهمات، فعاد إلىّ ومعه كمية ضخمة من الأدوية والحقن والأمبولات الإنجليزية التى لن تجدها سوى فى تلك المستشفى، حيث إنها لا تتوافر فى أى صيدلية بالقاهرة. أخبر البائع سائقى بأنه يستطيع أن يشترى منه أى شىء يطلبه من مهمات المستشفى وأن مبيعاته تصل إلى الصعيد حسب الطلب !.

فأخطرت البوليس وأرسلت لهم الأدوية، وتركت لهم سائقى لمدة ثلاثة أيام ليساعدهم فى العثور على هذا الرجل. عندما عثروا عليه، أمروا السائق بان يظل معهم مدة أطول حتى يمسكوا بالمجرم ومن يعاونه داخل المستشفى، هذا لم يعجبنى بالطبع، فالبوليس لديه المخبرين ولم أكن مستعدا أن أترك رجلى الذى أدفع له أجرا ليقوم بعملهم الخطير. خشيت أيضا أن يلفقوا له تهمة، لذا رفضت أن يكون تابعا لهم وسحبته من قبضتهم. ولم نسمع بعد ذلك عن هذا الموضوع - وهذا أيضا من الأمور المتوقعة هنا.

حدثت منذ عامين سرقة حقيرة وطريفة فى نفس الوقت. فقد سرق تمورجى عدداً كبيراً من أرغفة الخبز من المستشفى ولفهُم فى ملاءة سرير ووضعهم فى المسجد الصغير الملحق بالمستشفى. هذه السرقة وما تبعها من تدنيس، لاحظه

تمورجى آخر، فتسلل هذا الأخير إلى الجامع واختلس الأرغفة. لسوء حظه، ضبطه السارق الأول وجرى وراءه وأمسك بالمختلس - الذى يبدو انه لم يسمع من قبل بمسألة الشرف بين اللصوص- إدعي التمورجى الثانى أمام المدير بأنه كان يجرى بهدف التبليغ عن تلك السرقة، واستطاع بهذا الدفع أن يفلت من العقاب، أما التمورجى الأول فقد أبدى ضيقا شديدا وعلق على الواقعة قائلا، "إنها جريمة لا تغتفر، أن يسرق الإنسان خبزا من الجامع !".

قبل مغادرتى القاهرة سرق بعض التمورجية أحد عشر مروحة كهربائية، أيضا ٩٠٠ متر من الأسلاك التى تربط بين الساعات الكهربائية الأربعة داخل المستشفى، وعديد من ألواح الزجاج المثبتة فى الأبواب، كذلك بعض الأكر والأرقام المفضضة التى تثبت فوق أبواب القسم الخارجى.. واقتحموا غرفة الأشعة وسرقوا منها مجموعة قيمة من الأشعات كانت تستخدم كمرجع علمى، لذا قام الدكتور رجب بتخزين كل ما هو متحرك فى دواليب مقفلة قائلا: "ما يحدث شىء لا يصدقه عقل".

لا يمكن أن نلوم التمورجية كليةً، الحقيقة المؤكدة أن الحراسة والإشراف سواء ليلا أو نهارا مفتقدة تماما. هذه الأمور من اختصاص مساعدى المدير اللذين اعتبرهما قليلى

الكفاءة وغير مقدرين للمسئولية. للأسف تم تعيين كليهما بمعرفة رئيس الجامعة، لذا فالمسئولية الحقيقية تقع على كاهله، لا سيما أنه يساندهم دائما ضد عميد كلية الطب.

بالإضافة إلى عدم أمانة التمورجية، فإنهم فى الواقع لا يصلحون أصلا كممرضين مع استثناءات قليلة، هم كثيرا ما يتشاجرون مع بعضهم البعض أو مع المرضى، ودائما ما تسمع صياحهم فى ممرات وأقسام المستشفى. إن أقل ما يتوقعه المريض بمرض خطير هو أن يموت فى سلام، لكنه لا يترك لشأنه ولا يمنح هذا الحق الطبيعى له.

فى كل بلد فى العالم تعتبر مهنة التمريض ليست مناسبة للرجال، إلا فى المصحات العقلية حيث يلزم أحيانا استخدام القوة البدنية إذا دعت الحاجة إليها، فهى مهنة دقيقة تناسب تماما طبيعة المرأة. فى مصر يعتبر استخدام الرجال فى مهنة التمريض كارثة، لا سيما إذا لم يتلقوا التدريب الكافى كممرضين، ولم يلقنوا كيفية احترام المريض والعمل على مساعدته ومراعاته بضمير سليم يقظ.

الممرضات فى مستشفانا هذا عددهم كبير، يتلقين محاضرات ويتعرضن لامتحان جيد للتخرج، لكنهن لسن تحت الملاحظة المستمرة الدقيقة، لا يراعى تزويدهن بجرعات من التعليم العملى فى الأقسام كما يحدث للممرضات الأوروبيات،

ويعتبرن الآن أحسن حالا من التمورجية، لكن بدرجة طفيفة للغاية. في الحقيقة تفضل رئيسات المرضات المرضين عن المرضات ! .. هذا كله يوضح أهمية وضرورة إعادة تنظيم التعليم التمريضي في مصر ليماثل المستوى المرتفع في الخارج... لكل هذه العقبات التي ذكرتها، فإن أطباء المستشفي ليسوا على يقين ثابت بأن مرضاهم سيحصلون على العلاج الموصوف لهم.

المرضة الإنجليزية المسئولة عن قسم يتكون من خمسين أو خمسة وسبعين سريرا في آن واحد في وقت السلم وأضعافهم في وقت الحرب، لا يمكن لها أن تؤدي واجباتها بكفاءة أو بشكل مرض، إذا أضيف إليها مهمة تدريب المرضات. إننا في الواقع نطلب منها المستحيل، والنتيجة النهائية أن المرضى لن يتمكنوا من الحصول على ما هو نافع لهم.

رأيت بعيني بعض التمورجية يقفون فوق دولاب للأدوية في مقدمة قسم من الأقسام ويزعقون بأعلى صوت منادين المرضى بأسمائهم ليحضروا بأنفسهم لاستلام أدويتهم، بغض النظر عن كون بعضهم قد يكون في حالة مرضية حرجة، كأن يكون مصابا بهبوط قلبي حاد أو مريض بأي مرض خطير آخر.

الأقسام ينقصها دائما النظام والترتيب، فالمرضى من جميع الأنواع سواء أكانوا فى أشد حالات المرض أو لا، يقومون من أسرتهم ويتجولون فى الممرات أو يطلون فى الشرفات. من النادر أن تجد مريضا ملازما لفراشه، إلا فى حالة مرور الأطباء، أو قيام هؤلاء بشرح دروسهم العملية على المرضى.

يوما قابلت رجلا فى الطرقة يتمايل يمينا ويسارا، عرفته على الفور، فهو المريض الذى يعانى من تجمع صديدى يتخلل الغشاء التامورى للقلب. بالرغم أن وجهه أزرق وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة، فإنه استحسن أن يتجول قليلا. لذا أرسلته فورا لسريره ولم أسمح له بالقيام منه مرة أخرى.. هناك الكثير من تلك الحالات.

الفلاح المصرى يحتقر الموت، هو لا يهتم كثيرا بما قد يحدث له. أعتقد انه يعتبر الحياة ما هى إلا مصدرا للمتاعب والنضال المستمر، وأن الجنة الموعودة المذكورة فى الكتب المقدسة، جديرة بأن يسعى الإنسان إليها ويتمناها.

هذا بالطبع لا ينطبق على الأطفال الذين لا يفقهون شيئا، وتبهجهم أتفه الأشياء. عدد من مرضاى الصغار لهم ملامح دقيقة وجميلة فعلا، يستحق الأمر أحيانا أن أنفق قروشا قليلة لمجرد أن أتلمس وجوههم وقد ارتسمت عليها إمارات السعادة

والفرح، وكثيرا ما رأيت أطفالا وجوههم كوجوه الملائكة - هو تعبير زوجتى- وهم يتسولون فى الشوارع بهلاهيلهم الممزقة.

كنت قد فقدت طفلة من تلك الأطفال بسبب أن العلاج الذى تلقته كان ناجحا تماما، أتت هذه الطفلة إلى المستشفى وهى تعانى التهابا كلويا مع احتجاز للماء فى جسدها. بعد شهرين من المكوث فى المستشفى ومرضها يقاوم العلاج، نجحنا أخيرا فى التخلص من التورم فى جسمها. كان الوقت شتاء، وشعرت الفتاة بأنها فى حالة طيبة، فقامت من سريرها تحجل بين الأقسام فرحة سعيدة، لكن بقدمين حافيتين. كان من نتيجة ذلك أن أصيبت بالتهاب رئوى وماتت، حدث هذا قبل الحرب. لو كان هناك قدر بسيط من الملاحظة بالإضافة إلى التدفئة المركزية، لكانت هذه الفتاة ما زالت على قيد الحياة حتى اليوم.

فى أحد أيام الجمع، وهو يوم الأجازة فى مصر، بحثت عن التمورجية، لكنى لم أجد أحدا. حتى المرضى اختفوا. بعد بحث وجدت الممرضة المسئولة نائمة فى إحدى الغرف وقد أسندت رأسها على حافة مائدة، علما بأن الساعة لم تتجاوز العاشرة والنصف صباحا.

بالرغم من أن مستشفى القصر العينى مجهزة بعدد من الأقسام الإحصائية، حيث تتدفق منها واليها كمية هائلة

من الأوراق والتقارير الطبية، ينشر عديد منها سنويا، إلا أن هذه الإحصاءات لا يعتمد عليها فى ٩٠ ٪ من الحالات. أحيانا يضطر الأطباء إلى القيام بالبحوث المعملية بأنفسهم، فى تلك الحالة يحصلون على نتائج حسنة؛ لكن الإنسان لا يمكن أن يعتمد على نتائج تحاليل المعامل، أو أخذ العينات، الخ، من الأقسام.

حتى بالنسبة لإعطاء جرعات الأدوية الموصوفة للمرضى، فإنه لا يمكن الاعتماد على التمورجية، فكثيرا ما وجدتهم يعطون المريض الدواء الخطأ.

فى مرة، لم تستجب حالة مرضية شديدة بالحمى الروماتزمية، للعلاج بالساليسلات. اعتقدت أنه ربما كان التشخيص خاطئاً، أو أن الدواء لم يعد فعالا بسبب ظروف الحرب، فطلبت إرسال الدواء إلىّ لأفحصه. اكتشفت أن هذا المريض يتناول راوند صودا بينما يتناول مريض آخر الساليسلات.

قصة اكتشاف الساليسلات كدواء ناجع فى علاج الروماتزم مثيرة أحكى لكم عنها. كان أحد السادة الكبار فى السن يعيش على ضفاف نهر فى الأرض المنخفضة بانجلترا، يعانى من أوجاع الروماتزم، وارجع ذلك للرطوبة السائدة فى مقر إقامته. كان بجوار مسكنه عديد من أشجار الصفصاف

ترخى فروعها على النهر، لذا فكر وقال فى نفسه: إذا كانت الرطوبة التى يبثها النهر يسبب الروماتزم، لذا فإن الله سبحانه أوجد تلك الأشجار فى هذا المكان لمعالجة هذا المرض، لذا شمّر ساعديه وأخذ بعضاً من لحاء شجرة صفصاف وعمل منها مستخلصا استعمله، فوجد أن لها مفعولاً علاجياً أكيداً.

نعود إلى التمورجية مرة أخرى. هؤلاء يمثلون خطرا على حياة المرضى. فى أحد الأقسام التى أشرف عليها، لاحظنا أن عدداً من المرضى بمرض السكر على مشارف الموت، واكتشفت لاحقا أن أحد التمورجية سحب الأنسولين المتواجد فى زجاجة ذات غطاء مطاطى، ثم استخدم حقنة لشفطه واستبدل العقار بالماء !

ومثل هذه الأفعال الإجرامية قد تجدها فى كل مستشفى هنا. أجزم أنه لا توجد مستشفيات تديرها الحكومات تماثل هذه، ولن ينصلح حالها إلا إذا نُظمت الخدمات التمريضية على أسس سليمة.

التمورجية هؤلاء لا يعملون فقط كممرضين داخل المستشفى، بل أحيانا يمارسون التطبيب خارجها. منذ فترة أُستدعى عزمى باشا عميد الكلية للكشف على مريض يعانى

من مرض خطير. في غرفة المريض لاحظ وجود رجل مهندم، ومن تفحص ملامحه خُيل له انه رآه من قبل. لاحظ أن الجميع ينادونه بلفظ (يا دكتور)، فسأل عنه، فقيل له إنه رئيس قسم طبي بمستشفى فؤاد الأول. ما أن ضيق عليه الخناق حتى اعترف هذا، أنه يعمل باشتمرجي في مستشفى فؤاد، وأنه هو الذي أوصى بكل وقاحة أن يستعينوا بخبرة الدكتور عزمي ويستدعونه ليتشاورا سويا في النظام العلاجي الذي كان يصفه للمريض بشكل خاطئ وبطريقة غير شرعية.

مهما قيل عن هؤلاء التمورجية، إلا أنه لا مندوحة من الاعتراف بأنهم يتمتعون بأعصاب من حديد. هم ليسوا بمفردهم الذين يصفون الدواء الخاطئ، فهناك مريض أُدخل المستشفى وهو يعاني من التهاب كبدي حاد ويرقان تسممي شامل، بالبحث اتضح أنه كان يحقن بدواء اسمه "جونوكيور"، هو دواء به مادة "أكروفلافين" صُنع في مصر لعلاج مرض السيلان، هو علاج لم أسمع عنه من قبل. بالرغم من احتجاجي لسنوات عدة، إلا أنهم لم يمتنعوا عن وصفه حتى مغادرتي مصر. الغريب أن الأطباء الذين يصفونه للمرضى يقولون: إنهم يفعلون ذلك بدوافع وطنية بحتة، لأنه منتج مصري بأموال مصرية، لكنهم لا يصفونه أبدا في عياداتهم

الخاصة - عجبى !

هذا المريض السابق الإشارة إليه، لم يتلقَ تلك الحقن بيد طبيب أو تمرجى - ولو أننى متأكداً أن الحقنة والدواء أُختلسا من المستشفى الجامعى- لكن من حقنه، هو حلاق يقع دكانه بجوار المجزر العام القريب من مستشفى القصر العينى القديم، لذا أرسلت تمورجياً أثق فيه لينصب له كمينا بغية الإمساك به، إلا انه عاد خائبا قائلا بأن هناك ثلاثة حلاقين يمارسون هذا النشاط، فأيهم المقصود ؟

حتى المريض لم يرشد عنه، وذكر أنه لو فعل هذا فقد يتعرض للضرب أو ربما للقتل. علما بأن كل المرضى الذين يتعرضون للإيذاء من التمورجية، يخافون هم أيضا الإبلاغ عنهم، خوفا من الثأر.

أكرر هنا مرة أخرى بأن الحال لن ينصلح، إلا إذا نُظر نظرة شاملة لنظام التمريض فى مصر.

لا يمكن أن نلوم الممرضات الإنجليزيات، فهن أيضا ضحايا نظام فاسد، ولن تجد أى جماعة متفانية فى العمل مثلهن. مع ذلك، لا يتلقين أى شكر أو حمد، بالرغم من أن الراتب الشهرى للواحدة منهن لا يتعدى عشرة جنيهات مصرية فى وقت السلم، وهو مرتب ضئيل قياسا على ما

يبذلنه من جهد وتفانٍ في العمل. مع ذلك، فهن لا يبدين أي وجه للشكوى والتذمر، بالإضافة إلى أن الطقس في الصيف لا يطاق، فهو عبارة عن محنة وعذاب أليم للأوروبيين عامة.

رئيسة الممرضات تعمل كالنحلة، ولها نفوذ قوي، وقد حضرت ولادة الملك فاروق وكذلك ولادة بناته بعد ذلك. هي تعتبر إنجليزية مصرية، لأنها عاشت فترة طويلة في مصر.

لسوء الحظ، كانت زيادة عدد الأسرة المسئولة عنها بعد افتتاح المستشفى يتطلب منها عملاً شاقاً مضنياً من الصعب أن يقع على كاهل فرد واحد. كنت أفضل ألَّا تتجمع كل الخيوط تحت يديها، ويا حبذا لو عينت كمستشارة تمريض. لقد كانت طوال إقامتها بمصر سببا في خلق نوع من التعاطف على التمورجية، وهو عطف لا يستحقونه أبدا. إنني أؤيدها من حيث أن مرتبات هذه الفئة من الناس ضئيلة، بالكاد تكفي مطالب الحياة، لكن لا أتفق معها في استمرار عملهم كممرضين، بسبب سجلهم الإجرامي المعروف.

قبل الحرب قلت لرئيس الجامعة حاليا وعميد كلية الطب حينذاك، أن هؤلاء التمورجية لا نفع منهم، ويجب استئصال شأفتهم تماما، لكنه لم يعرني التفاتا. وعندما ترأس عزمي باشا كلية الطب، قدمت له اقتراحا ودراسة لعمل خطة

تستغرق خمس سنوات لإنشاء طاقم متميز للتمريض من الفتيات. هذه الخطة بالذات طلبها مني أحد السادة الأتراك المهتمين بالخدمات الاجتماعية ومتزوج من أميرة مصرية، وكان قد سمع بها، فأعطيتها له بكل سرور، فترجمها إلى التركية والفرنسية وأخذها معه لتركيا لعرضها على رئيس الجمهورية، لتطبق على المستشفيات التركية التى هى أحسن حالا من المصرية، لكنها لا ترقى إلى مستوى المستشفيات الإنجليزية.

فى ديسمبر ١٩٤٠، قدمت أنا وعزمى باشا هذه الخطة للمسئولين، ووضحنا بأنها لو نفذت بعد انتهاء الحرب، فإنها ستنتج عدداً كبيراً من الممرضات ذوات الكفاءة المرموقة، ليس فقط لسد احتياجات مستشفيات القاهرة، بل لخدمة الأقاليم أيضا. الفكرة الأساسية فى المشروع، تستند على ضرورة تعيين رئيسات للممرضات متمرسات حازمات لا يزدن فى العمر على أربعين عاما، لكن أهم ما فى الموضوع هو ضرورة تعيين ممرضة إنجليزية أو أمريكية كمسئولة عن خمسة وعشرين سريرا على الأكثر، ويتكفلن بتدريب الفتيات المصريات بالاحتكاك الفعلى والمثال، ليس فقط لخلق وعى بكيفية التمريض، لكن لإنماء الشعور الحقيقى للإحساس

بالواجب والخدمة نحو المرضى والمشرفين على الموت من الفقراء.

لا يمكن لمرضة أجنبية واحدة أن تشرف على أكثر من خمسة وعشرين سريرا، واذا ارتفع العدد ليصبح ثلاثين سريرا، فإن هذا سيدمر خطة التمريض هذه. فى مستشفى سانت مارى تشرف الممرضة الكفء على اثنى عشر سريرا فقط.

التمورجية فى ظل النظام المقترح سيشغلون وظائف أخرى فى الحكومة، يعملون مثلا كمساعدى معمل أو حراس أو عاملى مصعد.. ، ولا شك فى أن الفتيات المصريات إذا دُربن كما وضحت، سيصبحن ممرضات من الدرجة الأولى، لكن الموضوع كله يحتاج إلى أكبر قدر من بعد النظر والتصميم والعمل الشاق من جانب المختارين لإدارة هذا المشروع.

المستشفيات التى تدار بالأسلوب الأوروبى ستجذب إليها نوعية ممتازة من الفتيات المصريات المتعلمات اللاتى يتحملن المسئولية، بذلك يفضلن كثيرا الموجودات حاليا فى الساحة. الطبقة المتميزة فى مصر ترفض بشكل بات أن ترسل فتياتها ليعملن بالتمريض فى بعض المستشفيات كالقصر العينى وفؤاد الأول. أرى انه إذا تم إرسال الفتيات للخارج ليعملن

مثلا فى مستشفيات إنجليزية لمدة ثلاث سنوات، فإنهن سيعدن وهن قادرات أن يشغلن وظائف الممرضات الأجنبيات فى مصر، أو حتى يصبحن رئيسات للممرضات.

ما أن نشرنا خطة السنوات الخمس عام ١٩٤٠، حتى قام التمورجية والممرضات بسلسلة من الإضرابات، ساندهم فى ذلك حزب العمل المصرى ورئيسه الأمير عباس حلمى، وكنت قد قابلت هذا الرجل وأعجبت به وهو رجل رياضى متمرس، لكن له أفكار خاصة.

عارض المشروع أيضا رئيسة الممرضات العجوز وأستاذ الباثولوجى، أما بقية طاقم التدريس فقد أيدوه.

تظاهر التمورجية فى الشوارع وأمام مبنى وزارة الداخلية صارخين قائلين، "فليسقط الدكتور عزمى، نحن نرفض هذا المشروع"، قالوا فى نداءاتهم أمام الدكتور عزمى، "لماذا تعارض أن نأخذ القليل من قروش المرضى، بينما زملاءك من الأطباء يلهفون الجنيهات عن نفس العمل الذى نقوم به نحن!"

هذه الملاحظة الأخيرة تشير إلى الأطباء الذين يتقاضون خمسين قرشا من المريض حتى يرسلونه للمستشفى، أو أولئك الجراحين الذى يطالبون من المريض جنيهان أو ثلاثة ثم يرسلونه للمستشفى لتجرى له عملية جراحية، واستثناء منهم

أستاذ الأمراض الباطنية بمستشفى فؤاد الأول، الذى بالرغم من إهماله لواجباته، إلا انه لا يتقاضى أبدا مثل تلك الرشاوى. هناك أحد الأطباء فى عيادة طب الأسنان يرد إليه بعض طلبة الطب قبل الامتحانات، فيصنع فى أسنانهم حفرة صغيرة ثم يعالجهم ويطالبهم بأجر مرتفع، قيل لى أنه عادة ما تكون أربعين جنيها، ويا لتلك المصادفات السعيدة، فهؤلاء الطلبة ينجحون بتفوق فى امتحان نهاية العام. إنها مجرد مصادفة !

حتى الممرضات المصريات أضربن بسبب مشروع السنوات الخمس. عندما خرج العميد ليقنعهن تطاولوا عليه ومزقوا رداءه. وعندما صادفونى فى الطرقة، أخذوا يتصايحون ويهللون، وما أن التفت إليهن حتى سارعن بالهرب. إنهن متأثرات بالطبع بتحريض أحدهم، لكن عملهن هذا يدل على غباء منقطع النظير لأن المشروع فى الأساس هو لمصلحتهن.

تسلم عزمى باشا كثيراً من خطابات التهديد، وأصبح خائفا على حياته لأسابيع عديدة متلاحقة، وكان المخبرون دائما فى حراسته، على الرغم من أننى أخبرته أن المهددين دائما ما يعيشون أطول من غيرهم، إلا أن هذا لم يعزه كثيرا.

تجمع التمورجية فى الأقسام، ومنعوا طاقم تمريض قسمي من الدخول، إلى أن هددهم عزمى باشا بأنه سيعمل على رفتهم جميعا، حينئذ فقط عادوا للعمل المنتظم.

فى النهاية، لم تتجاوب الحكومة مع هذا المشروع، لكنى على ثقة بأنه فى حالة إحياء هذا المشروع، فإن المستشفيات المصرية ستحصل على سمعة طيبة بين مستشفيات العالم المتحضر، وهو مشروع سليم من كل جوانبه وضرورى تماما لنفع ومصلحة الطبقة الفقيرة فى مصر.

□□□

الفصل الرابع عشر

الأوبئة فى مصر

منذ عهد موسى النبى وضرباته العشر، اشتهرت مصر بالأوبئة الخطيرة، بالأخص البلهارسيا، وربما بسببها أصبح المصريون عبيدا للآخرين.

الأوبئة السبعة الحديثة هى: البلهارسيا، الدوسنتاريا الأميبية، الأنيميا الناتجة عن الإصابة بدودة الإنكلستوما، البلاجرا، السل، الملاريا، التيفوس، الجدرى، الطاعون.

عرفت مريضا كان مصابا بسبعة أرزاء فى نفس الوقت. معظم المرضى الذين يحضرون للمستشفى مصابون بالبلهارسيا والأنيميا التى تسببها دودة الانكلستوما وأيضا بالديدان المستديرة، بالإضافة إلى أعراض أمراض أخرى تدعو إلى ضرورة إدخال المريض للمستشفى. هناك يصبح موضوع عمل خطة لعلاجه أمرا محيرا، فأنت تعالج أولا الأعراض الرئيسية، مثل الالتهاب الرئوى، ثم تلتفت إلى موضوع الأنيميا الذى يستغرق علاجه شهورا طويلة باستخدام مركبات الحديد، وربما يستلزم الأمر إجراء عملية نقل دم له.. هذا كله يبدو كأنه طريق خاطئ للعلاج، لأن الأنيميا سببتها دودة الانكلستوما، والدواء الذى يوصف

للتخلص منها قد يسبب تدهور وظائف الكبد ويعتبر خطيرا في حالة الأنيميا الحادة، لذا أنت مضطر أن ترمي وراء ظهرك كل معارفك الطبية السليمة، ثم تبدأ بعلاج الأثر أولا قبل أن تصل إلى السبب. حتى في تلك الحالة لن تستطيع أن تتخلص من دودة الإنكلستوما قبل أن تهاجم الدودة المستديرة، لأن الدواء الذي تستخدمه لعلاج الانكلستوما ليس محببا للدودة المستديرة، التي تسرع بالتجمع في القناة المرارية وتسدها عندما يظهر تأثير هذا الدواء في أمعاء المريض، بذلك تحدث ظاهرة الصفراء الرهيبة. عند تشريح الجثث، وجدنا الدودة المستديرة متجمعة في القناة الصفراوية بعد علاج الانكلستوما، لكل هذا أنت مضطر أن تعالج أولا الأنيميا ثم الدودة المستديرة ثم الانكلستوما، أخيرا تجد نفسك حرا في مهاجمة البلهارسيا أو أي حالات مرضية أخرى يعاني منها المريض.

لكي يحدث التوازن، جنبت العناية الإلهية المصريين من بعض الأمراض المنتشرة في أوروبا، فمعظم أقسام مستشفيات انجلترا مزدحمة بالمرضى الذين يعانون من قرحة المعدة والإثني عشر ومن تضخم الغدة الدرقية وبالتالي جحوظ العينين، ومن السرطان، ومن الأنيميا الخبيثة التي تعالج بخلاصات الكبد.

تعتبر قرحة المعدة والإثنى عشر من الأمراض النادرة فى مصر، لم أر سوى حالتين أو ثلاث على مدى ست سنوات ونصف قضيتها فى مصر. كذلك يعتبر تضخم الغدة الدرقية من الأمراض النادرة أيضا، ولم أر سوى حالة واحدة للأنيميا الخبيثة، وأحيانا تحدث حالات إصابة بمرض السرطان فى الأمعاء بسبب البلهارسيا.

أما الأمراض الخطيرة التى تكثر فى مصر فمنها السل. معروف أنه كلما كان لون الشخص قاتما زادت فرصة تعرضه لهذا المرض، عندما يحضر عندى نوبى مصاب بالسل فى كلا الرئتين، تكون حالته متفاقمة غالبا وإمكانية بقائه على قيد الحياة لن تستغرق سوى بضع شهور معدودة، لكنى لاحظت أيضا أن المصريين معرضين لهذا المرض، هذا ولا توجد مستشفيات متخصصة لعلاج السل.

ليس هناك قوانين تمنع المرضى من البصق فى الشوارع، هم يفعلون ذلك فى أى مكان. إذا لم تتخذ الحكومة إجراءات قوية فى هذا الشأن فإن الحالة ستتفاقم وينتشر هذا المرض وتُفقد أرواح من السهل الحفاظ عليها، هذا وقد وُجدت آثار هذا المرض فى عظام مومياوات قدماء المصريين.

مرض السكر أيضا ليس له مستشفيات أو أقسام خاصة، وبسبب مشاكل التمريض يصعب التحكم فى هذا المرض أيضا.

البلهارسيا مرض مهم فى مصر، وربما يرجع تاريخه إلى عهد الفراعنة. ابنة فرعون التى وجدت الطفل موسى بين أحراش النهر ربما تعرضت لهذا المرض.

تيودور بلهارس الذى أعطى اسمه لهذا المرض، كان أستاذا فى المدرسة الطبية بمصر خلال الفترة من ١٨٥٠-, ١٨٦٢ البلهارسيا التى تعتبر من مآسى مصر تنتشر فى القنوات والحقول التى تروى بنظام الرى الدائم، بالأخص فى الدلتا. دورة حياة هذه الدودة تنحصر فى خروج البويضة من المريض ثم إلى القواقع ثم إلى مريض آخر، والقواقع هذه توجد ملتصقة بالنباتات التى تنمو داخل مياه القنوات، علما بأن سركاريا الطفيل تخترق جلد الإنسان، عادة فى منطقة السيقان والأقدام فى ثوان معدودات. هى لا تنتشر بشرب الماء، لأنها تهلك بفعل أحماض المعدة. هناك نوعان من البلهارسيا ، الأولى تتعايش فى الجهاز البولى للمريض ، أما الأخرى فإنها تغزو الأمعاء والكبد والطحال .

كان فى قسمى طبيب ناشئ مرشح للعمل فى مستشفى الحميات، لكنه رُفض بسبب تواجد زلال فى عينة بوله، ففحصته جيدا وتأكدت من إصابته بالبلهارسيا، على الرغم من أنه سبق وفُحص منذ ستة شهور سابقة، ولم يكن مصابا بشيء. أتضح بعد ذلك انه زار قريته لمدة يومين فقط، واعترف

بأنه غسل يديه فى الترعة.. كان هذا كافيا. بعد نظام علاجى مكثف تخلص من هذا الطفيل واستلم وظيفته الجديدة.

يعتبر هذا المرض مأساويا وحادا يصيب الفلاحين الذين يغسلون متعلقاتهم أو يمشون فى مياه القنوات. هناك جهود مكثفة للقضاء على القواقع الناقلة للمرض، لكن بلا جدوى حقيقية، بسبب أسلوب معيشة وعمل الفلاحين، حيث نلاحظ أن معظمهم مصابون بتضخم الكبد والطحال.

انه منظر محزن أن ترى أطفالا أو شبابا ببطن منتفخ، فالتجويف البطنى ملئ بالسوائل التى لا يمكن التخلص منها إلا بالبذل، وإمكانية بقائهم على قيد الحياة لن تستمر سوى عدة سنوات معدودة. ربما يستقر فى التجويف البطنى لمريض ما، أربعة عشر لترا من السوائل، ويفضل عدم سحب أكثر من ثمانية لترات منها فى الجلسة الواحدة خوفا من انهيار الحالة الصحية للمريض. مع ذلك، منذ سنوات قليلة سابقة، كان عدد من الأطباء المقيمين يتبارون فيمن يستطيع منهم بذل أكبر كمية من السوائل. بعد وصولى بذل أحد الأطباء أكثر من اللازم من السوائل فى بطن سيدة، فانهارت وماتت على الفور، لكن هذا لم يحدث بعد ذلك، على الأقل ليس فى الأقسام التى كنت مسئولا عنها.

البلهارسيا التى تتعايش فى الأجهزة البولية للإنسان

ليست منتشرة فى مصر، لكنها على أية حال تحدث حتى فى محيط أكثر العائلات رقيا !

فى مرة اشتكت إحدى السيدات الجميلات الفاضلات التابعة لإحدى السفارات بألم فى ظهرها. شك الطبيب فى مرض أصاب كليتها، فأرسل عينة من البول إلى معمل حكومى. عادت النتيجة تقول "ايجابى بلهارسيا".

حدث لغط متزايد ودهشة فى الوسط الدبلوماسى، واستدعى المستشارون الطبيون. ولأن السيدة المبجلة لم تستحم أبدا، سواء فى نهر النيل أو الترع، لذا كان الموضوع كله محيرا ومربكا، ثم أُكتشف بعد ذلك أن السفرجى الذى أُعطيت له العينة سقطت منه الأنبوبة عفوا وانكسرت، لذا بكل بساطة حصل على أنبوبة فارغة وملأها من بوله وذهب بها إلى المعمل، للأسف، كان هو مصابا بالبلهارسيا البولية.

فى مستشفيات الانكلستوما التى تعالج البلهارسيا أيضا، أتقن الأطباء الشبان عملية حقن المرضى بالطرطير الأميتى وأصبحوا فنانين فيه، فهم يقضون معظم حياتهم العملية لا يفعلون سوى هذا الأمر. بعض منهم يستطيع أن يحقن مائتي حقنة فى أوردة المرضى فى الساعة الواحدة ولا يفلت منه وريد واحد، إنه عرض مذهل حقا ! . البلاجرا لا يعتبر مرضا قائما بذاته، انه مرض اجتماعى أصيب به الكيان المصرى

منذ آلاف السنين، سببه هو نوعية الغذاء الذى ينقصه حمض النيكوتينيك وهو أحد مكونات فيتامين ب.

نحن فى إنجلترا نسمع كثيرا عن الفيتامينات، لا سيما فى الصحف السيارة التى تنشر إعلانات عن المنتجات الغذائية. ربما سمعنا أيضا عن عسر الهضم والنقرس والانفلونزا، لكن هل سمع أحد بالبلاجرا ؟ .. فى مصر لا تعنى عدم كفاية الأطعمة نقص الفيتامينات بها، لكن تعنى أيضا نقص فى الغذاء باللحوم والدهون والسكريات.. إنها تعنى الفقر.

البلاجرا تؤثر على جلد المريض، كذلك على أمعائه ومخه، والظواهر العصبية لهذا المرض غريبة وطريفة.

فى زمن زفاف الملك فاروق، ذهبت فى زيارة تفقدية لعنبر الحريم بالمستشفى، فوجدت مريضة بالبلاجرا تفترش بلاط الأرضية الأسمنتية الباردة. لم يكن هذا غريبا، فكثير من الفلاحين يفضلون النوم فوق الأسطح الصلبة كما هى عادتهم فى قراهم، إلا أنَ حالة هذه السيدة المصابة بالبلاجرا كانت مختلفة. لقد أثَّر المرض على قواها العقلية وتخيلت نفسها أميرة، قالت إنها لن تترك مرقدها هذا قبل أن يحضروا لها الملك فاروق لتتزوجه.

أحد المرضى كان يعانى من البلاجرا، ادعى انه رأى الله

سبحانه فى رؤيا، وشرح ما رآه وهو مقتنع بكل كلمة يتفوه بها، قال إن الله ظهر له على هيئة رائعة مرتديا جلابية بيضاء من أحسن الأصناف، وجهه مشرق جميل وعيناه براقتان لا يجرؤ أحد أن يحملق فيهما سواه !

الدوسنتاريا: هناك حقيقة مدهشة، فالدوسنتاريا الباسيلية منتشرة وسط الإنجليز، ووسط أفراد الجيش البريطانى فى مصر، لكن نادرا ما تتواجد وسط المصريين. تقريبا كل انجليزى يزور مصر يصاب بحالة فجائية غريبة من الإسهال، هى ليست بالدوسنتاريا، ونعالجه بإعطائه كمية كبيرة من زيت الكستر أو الأملاح لإزالة المواد المثيرة فى أمعائه. فى حالة مستعصية من هذا النوع استعملت سلفا جوانيدين وأعطت نتائج مدهشة، اتضح بعدها أن هذا هو الدواء المناسب لعلاج الدوسنتاريا الباسيلية.

بالرغم من اننى عالجت مئات الحالات من الدوسنتاريا الأميبية التى أصابت من أهتم بهم وهم الفلاحين، إلا أن حالات الدوسنتاريا الباسيلية التى وردت للمستشفى لا تكاد تذكر. سبب ذلك، هو أن تعرض المصريين لإصابات حادة على مدى عدة قرون منحهم مناعة ضد الدوسنتاريا الباسيلية، لكن من جهة أخرى، لا تعطى الإصابة بالدوسنتاريا الأميبية أى مناعة.

المشكلة الكبرى للدوسنتاريا الأميبية، هى قدرتها على تكوين خراريج فى أكباد بعض المرضى. مرة استخرجت من كبد أحدهم ثلاثة مكاييل من الصديد من خراج ضخم سبّب تدمير هائل فى جسده، إلا أن وظائف كبده لم تتأثر كثيرا. شفى بعدها الرجل تماما وأصبح طبيعيا بعد فترة. كما هو معروف أن التدمير الكامل للكبد أو إزالته تؤدى إلى وفاة المريض، لكن استئصال الطحال المتضخم لا يمثل مشكلة إذا تحمل المريض العملية الجراحية.

فى قسمى طالما حذرت طلبتى من الخضراوات التى تنمو قريبا من الأرض لاحتمال تعرضهم للإصابة بالدوسنتاريا والأمراض المعوية المختلفة. كنت يوميا أشرح لهم مبادئ الحذر من الخضراوات غير المطبوخة كالطماطم والفراولة والخس، إلى أن صاح أحد الطلبة الصغار، "من فضلك يا أستاذ، إلا الخس، دعه لنا"، فضحك باقى الفصل واعتبروها دعابة لطيفة.

مصح مرضى الجذام يقع فى الصحراء. هو ليس من الأماكن المحببة للزيارة ويشترك معه فى ذلك مستشفى الكلب. وقد أخذنى مدير المستشفى الأخيرة فى جولة داخلها، رأيت أحد المرضى الذى أصيب بعضة كلب غائرة فى وجهه، تقدم المدير نحو هذا الرجل ونفخ فى وجهه، فارتعش الرجل وقفز

للخلف. ما أن غادرنا المكان حتى قال لى المدير، "سيموت هذا الرجل صباح الغد".. وهذا ما حدث بالفعل.

هناك مأساة أخرى تصيب الشباب المصرى، هى الإصابة بمرض باركنسون الذى يصيب أعصاب المخ فيعطى للوجه منظرا متجمدا ساكنا، مع حركات مرتعشة دائرية لليدين، مع تدهور واضح فى الوظائف العقلية. هذا المرض يحدث أحيانا فى انجلترا، لكنه منتشر فى مصر. رأيت حالات كثيرة مصاب به فى شوارع القاهرة. هناك حالة محزنة صادفتها، حيث أصاب هذا المرض طالب طب فى سنواته الأخيرة من الدراسة. حتى السنة السابقة للإصابة، كان هذا الفتى متميزا فى دراسته ويتمتع بذكاء نادر، إلى أن أصيب بحمى مجهولة، أصبح بعدها "غبيا"، فهو يخطر فى عز الحر وقد ارتدى بالطو كثيفا، ثم يظهر فى الأقسام قبل بدء الامتحانات بفترة طويلة لعل وعسى.. إنها كارثة لو جاز الامتحانات بنجاح، فهو غير قادر تماما على ممارسة الطب. كنت قد اقترحت على المسئولين عدم استمراره فى الدراسة، لكن بلا فائدة. هو إنسان سيئ الحظ أصابه ذلك الوحش المسمى باركنسون.

كان من نتيجة تعرض مصر لتلك الأنواع المختلفة من الأوبئة، أن انخفض معدل البقاء على الحياة للطبقات الدنيا إلى ٣١ عاما. الطبقة الأعلى نسبيا تترواح أعمار أفرادها ما

بين ٥٠-٦٠ عاما. هذه المعدلات تقل بمقدار ١٥ سنة عن مثيلتها فى انجلترا. من الأسباب الرئيسية لذلك هو ضغط الدم المرتفع، لكن جزئيا يعود إلى كثرة الأكل مع انعدام التمرينات الرياضية. تصيب "السكتة" الفلاحين أحيانا فى سن مبكرة، وربما يعود هذا إلى ضعف متوارث فى النظام الدورى للدم يصيب الجنس ككل.

آخر الأوبئة المبتلى بها المجتمع المصرى فى أيامنا هذه هو الملاريا. تركت هذا المرض ليكون الأخير، لأنه يعطى مثالا واضحا لعدم كفاءة الطبقة الحاكمة فى مصر، لتوضيح النقص المشين فى قدراتهم التنظيمية والإدارية، وعجزهم عن التصدى للأمور الطارئة العاجلة. فى سنة ١٩٤٢، أخبرنى السفرجى النوبى محمد الذى يعمل لدى، أن هناك مرضاً غامضاً يجتاح قريته القريبة من أسوان، وأن هناك ستة أفراد ماتوا فى يوم واحد. باستفسارى الدقيق، علمت أن السبب هو الملاريا الخبيثة. فى بداية سنة ١٩٤٢، حذرت السلطات البريطانية الحكومة المصرية أن هناك احتمالاً أن يسود هذا المرض قريبا. وفى فبراير١٩٤٣، تقدمت السلطات البريطانية والأمريكية - بعد بحث مستفيض- باقتراح أن تجند خبرائها فى هذا الشأن، لذا بالفعل أرسلت للحكومة المصرية كميات ضخمة من المواد الكيماوية التى تقاوم البعوض الناقل

للمرض. فى أكتوبر ١٩٤٣ تقدموا أيضا باقتراح إرسال خبرائهم إلى الصعيد، إلا أن الحكومة رفضت هذا التوجه قائلة: إن خبرائها فيهم الكفاية، وأن ما يحتاجونه فعلا هو المواد الكيماوية. حتى شهر فبراير ١٩٤٤، أرسل الحلفاء إليهم ٤٩ طنا من مادة الأخضر باريس، بالإضافة إلى أن هناك مرضاً غامضاً إلى ٨.٥ مليون قرص أتبرين وكمية كبيرة من مادة بيريثرم . فى فبراير ٤٤، تقدم المسئولون البريطانيون بإرسال معمل متكامل بالأخصائيين لمحاربة انتشار المرض وتدريب المصريين على هذا المعمل. فى ٧يناير ١٩٤٤، ذكر وزير الصحة فى البرلمان أن سبب انتشار هذا المرض هو سوء التغذية - هذا توصيف خاطئ من قبل الحكومة - ووزعوا وجبات مجانية فى المناطق المصابة. بعد شهر واحد، كان الموت يحصد الآلاف من المرضى، وأصبحت الأرض التى يسكنها مليون من الفلاحين لا تجد من يرعاها وتعفن الزرع على عروشه. هامت على وجوهها عائلات بأكملها، أخذت تتلمس كل جهد لمكافحة هذا المرض، لكن بلا جدوى.

فى ١٩ فبراير ١٩٤٤، نشرت جريدة اجبشيان جازيت الآتى، "لا فائدة من ادعاء نهاية المرض وأن ما تبقى من المرضى محتاجين فقط للتغذية حتى تسلم مصر، إذا لم تكافح

حشرة البعوض فى الصعيد، فإنها ستنفذ بالتأكيد إلى الدلتا حيث تتوافر المياه الراكدة والبرك بكثرة، حينئذ سيتضاعف الخطر مئات المرات". فى ٢٨ فبراير من نفس السنة، ذكر النحاس باشا فى مجلس النواب، انه منذ ابريل ٤٢ كان إجمالى مرضى الملاريا لا يتجاوز ١٤٣٥٢ حالة. كانت نسبة الوفيات فى قنا ٦ . ٢٠ فى الألف، أما فى أسوان فكانت ٩ . ٤٠ فى الألف، وعزا ارتفاع نسبة الوفيات إلى عامل الفقر.

فى نفس الوقت ظهر فى جريدة التايمز اللندنية الآتى، "منذ عدة أسابيع، ذاعت قصص تدعى انتشار مرض الملاريا فى مصر بسبب نقص الغذاء، وأن الغذاء المفترض تخصيصه للفلاحين أُرسل للقوات البريطانية وقوات الحلفاء، هذا ما نفاه مصدر مسئول بريطانى هناك". ثم أضافت الجريدة، "يجب أن نذكر هنا بكل الصدق أن فلاحى الصعيد عاشوا لدهور طويلة وهم على حافة الفقر والجوع. الموقف الحالى مرجعه الأساسى يعود إلى أسباب داخلية بحتة".

هذا الهجوم المستمر على القوات البريطانية، هى سياسة مستقرة استنها باشاوات الحكم للتغطية على عدم أمانتهم وكفاءتهم !

فى ١٤ أبريل ١٩٤٤، ذكر سعد زكى بشارة فى مجلس الشيوخ، أن الدواء الذى توزعه الحكومة معظمه مسروق، أو

أن فاعليته منتهية فى لحظة وصوله للمرضى، وأن هؤلاء المساكين على قدر عظيم من الضعف لدرجة انه استحال عليهم استجلاب المياه من النيل لبلع الأقراص. ذكر أيضا أن عدد الوفيات يزيد على مئة ألف مريض فى مدى سنتين فقط.

لمدة سنتين كاملتين، رفع الوزراء المصريون أنوفهم إلى أعلى مدعين الفخر والاعتداد بالنفس، ورفضوا أى مساعدة من الخبراء الإنجليز والأمريكيين. عدم كفاءتهم هذه تسببت فى وفاة مئات الآلاف من الفلاحين، كان من الممكن إنقاذهم، لو لم تتصف طبقة الباشاوات الحاكمة بكل هذا القدر من الفشل المريع. مع ذلك، كيف يلاموا وتاريخهم وما ورثوه أثبت على مدى الأيام أنهم غير مؤهلين لتبوء مناصبهم تلك، لقد وضعوا فى مناصب خطيرة بدون تدريب على الحكم وبدون خلفية خلقية سليمة تسندهم وتشد أزرهم، تعتبر ضرورية لتحقيق ولو قدر بسيط من النجاح كرجال دولة مسئولين.

□□□

الفصل الخامس عشر
الأقسام الخارجية للمستشفى

مسألة حياة أو موت المريض تعتمد فى أحيان كثيرة على كفاءة الطبيب، هذه الكفاءة تعتمد بدورها على كفاءة تدريبه فى المراحل الأولى ليس فقط داخل أقسام المستشفى الداخلية، لكن أيضا، بل الأكثر أهمية، فى الأقسام التى تكشف على المرضى الخارجيين.

فى هذه الأقسام، نرى نحن الأطباء الحياة على طبيعتها. هنا نتعلم ليس فقط اكتشاف المرض بسرعة لكن بدقة؛ هنا نتعلم كيف ننمى قدراتنا على الملاحظة. ما كنا قد سمعنا عن شرلوك هولمز، لو صمّم مؤلف رواياته كونان دويل على استمراره فى العمل كطبيب ممارس، بدلا من أن يصبح مؤلفا للكتب البوليسية، وشاعرا، ما لم يكن قد قضى سنوات عديدة كطبيب فى الأقسام الخارجية بعيادة الدكتور بيل فى أدنبره.

هذه بعض الأمور التعليمية التى كنت أركز عليها دائماً أمام طلبتى:

"إذا لم تنظر جيدا فإنك لن ترى؛
إذا لم تنصت جيدا فإنك لن تسمع؛
إذا لم تلمس، فكيف لك أن تشعر؟"

كثير من الناس يسيرون في الدنيا مغمضي العيون؛ فمن السهل على المرء أن يغلق عيناه ولا يشاهد ما يحدث أمامه من ظلم وفوضى؛ ولكن في الطب، الأمر جد مختلف، فحياة ورفاهية المريض تعتمد إلى حد بعيد على طبيب عيناه مفتوحتين عن آخرهما. يا ترى كم من طبيب أو جراح مارس الطب طويلا، ثم قال في نهاية أيامه، "أنا لم أقتل مريضا." إن هذه المأساة تحدث غالبا بسبب: المغامرة غير المحسوبة، الإهمال، عدم إعمال الفكر، العمى، الجهل، أو بسبب ظروف لم يكن مسيطرا عليها؛ لكن الحقيقة ستظل على الدوام ناصعة بيضاء، سواء أكان الحظ أو الأقدار هي المتحكمة، إلا أن أخطاءنا - بما فيها عنصر السهو والخطأ- سوف تكشفنا وتعرينا...وفي النهاية لسنا نحن الذين نعاني ونتألم، ولكن هم مرضانا.

من الأهمية بمكان أن يستمع طلبة الطب جيدا ويدققوا النظر في الأقسام الداخلية والخارجية للمستشفى إذا أرادوا أن يتجنبوا المآسي التي قد تحدث بعد تخرجهم.

إحدى المظاهر الغريبة التي تلفت النظر في مصر، من واقع تجربتي كقائد لسيارتي داخل القاهرة والأقاليم، هو نقص الانتباه والتفكير لدى المصري العادي. بالرغم من تواجد السيارات في مصر منذ أربعين سنة، إلا أن الجمهور

يعتمد أساسا على حاسة السمع. هم يهملون تماما حاسة النظر. الناس عامة يتركون الأرصفة ويعبرون الشارع أمام السيارات المارقة بدون اهتمام حقيقى، بدون تقدير للمخاطر أو حتى تقديرا لحياتهم. النتيجة هى ورود عشرات من المصابين فى حوادث السيارات يوميا لأقسام المستشفى الداخلية والخارجية فى القاهرة والمديريات الأخرى. وما يقلل من عدد المدهوسين والقتلى، هو أن السائقين جميعا يجب أن يتخذوا مظهر القط الذى يراقب الفأر الذى يجرى أمامه بشكل عشوائى. ربما هذا سبب رئيسى فى أن كل السائقين يضعون أيديهم باستمرار على أبواق السيارات، لا يتركونها إلا بعد وصولهم إلى مبتغاهم. ربما لا توجد مدينة فى العالم يصعب فيها قيادة السيارات مثل مصر.

لتحفيز قدرة الملاحظة لطلبتى، كنت أحيانا انظم لهم مسابقة تجرى بين اثنين منهما، مستخدما طريقة احتساب النقاط كما فى لعبة التنس، فأثناء سيرنا فى الشارع يكتشف أحدهما حالة صفراء فيحصل على ١٥ درجة، ثم يلتقط آخر حالة شلل فى الوجه، فيستحق ١٥ درجة وهكذا.. ثم فى النهاية نجمع النقاط ونحيي الفائز بأكبر النقاط.

فى القسم الخارجى لمستشفى فؤاد الأول، نتعامل مع ٥٠٠٠ مريض يوميا. كل قسم يكشف على ٥٠٠-٨٠٠ مريض

كل صباح، و ٩٠٪ من الموضوع كله ليس إلا مسرحية هزلية FARCE، حيث يجلس الطبيب الشاب على مائدة وأمامه طابور طويل من المرضى للكشف عليهم ووصف العلاج. الأتوقراطيون الصغار يسألون سؤالا واحدا، ثم يسرعون بكتابة الروشتة.. هذا كل ما فى الأمر. إذا بدا أحدهم فعلا مريضا فإنه يجنب على ناحية ليفحصه بعد ذلك النائب المتواجد فى الغرفة المجاورة، هذا بدوره إذا رأى أن الموضوع أكبر من قدراته فإنه يرسله بالتالى إلى الدكتور الأستاذ أو يستبقى المريض ليكون أداة للشرح والدرس، لكن إذا كان المريض مريضا فعلا ولا يبدو عليه، فهذا أمر مؤسف حقا، يمكن أن يقال عنه أنه إنسان سيئ الحظ.

فى الأقسام الخارجية نجد أن معظم المرضى هم فى الواقع متمارضين، يستغلون الأقسام ليجنوا ربحا، فهم يحصلون على الدواء ليبيعونه فى الأسواق والقرى ويستفيدون ماديا. الآتى عدة ملاحظات كتبتها فى أحد أيام الكشف فى قسم خارجى بالمستشفى:

– امرأة شابة، لا تشكو من شىء، معها زجاجة كبيرة، تطلب نفس الدواء الذى أُعطى للمريضة التى سبقتها.

– ذكرت مريضة تالية أنها تعانى من كحة مزمنة، وطلبت من الطبيب الشاب أن يكتب لها مزيج "أمونيا وأثير"، على

الرغم من أنها لا تتكلم الإنجليزية، إلا أنها نطقت الألفاظ كما هى مدونة أعلاه. الواضح أنها تطلب هذا المزيج لتسلمه لآخر مقابل قرش أو قرشين.

– امرأة شابة تطلب زيت كبد الحوت، هو غير متوافر حاليا، لكنه كان مطلوبا بشدة قبل الحرب، لأن الفلاح المصرى يفضل أن تكون زوجته سمينة.

– حالة ربو حادة، المفترض أن يوصف لها أدرينالين، لكن هذا الدواء غير متوافر فى الصيدلية. هذا النقص يعود إلى حد كبير إلى الإسراف الذى يحدث من الأقسام الخارجية، هذا وتلام الحـــرب على نقص الأدوية، لكن فى الواقع هى مشكلة مزمنة وكانت سائدة حتى قبل بداية الحرب.

– امرأة أخرى، يبدو أنها متفائلة جدا، لذا ظهرت أمامنا وبيدها كيس مخدة بها أربع زجاجات فارغة خصصتها للأدوية التى توقعت الحصول عليها، بالكشف عليها اتضح أنها تعانى من برد بسيط.

من المألوف أن يحضر مريض وبيده تذكرة طبية مسجل بها دواء مثلا "حديد وزرنيخ" كتبها له تمرجى أو طالب طب أو أى شخص آخر، ويطلب من الطبيب التوقيع عليها.

هناك حالة مريض حضر للقسم الخارجى يعانى من كحة مزمنة، وبدون فحص دقيق شخصت الحالة بأنها التهاب

رئوى، وأُعطى له المزيج المعالج للكحة، ثم تبين بعد ذلك أنه يعانى من تمدد فى الأورطى.

حالة أخرى لمريض شخصت حالته بأنها ربو شعبى وأعطى له الأدوية المخففة لآثار هذا المرض، ثم اتضح بعد ذلك أنه مصاب بخراج فى الكبد.

أن يحصل المريض على الدواء ليتاجر فيه، أو أن يمتعض لأن أطباء الأقسام الخارجية لا يكشفون عليه، تفصله تلك الواقعة التى رواها لى الأمير محمد على. قال إن طبيبه الخاص كان يوما مارا أمام الأقسام الخارجية لمستشفى فؤاد فى طريقه إلى القصر، عندما رأى امرأة تسكب الدواء على الأرض، فأوقف سيارته وسألها عن سبب ما تفعله، فأجابت، "أنا ذهبت إلى المستشفى لأننى أحسست بالمرض، لكن الطبيب لم يكلف خاطره ويكشف على، هو لا يعلم شيئا عما أعانيه، مع ذلك كتب لى هذا الدواء، وهو ليس له أى نفع، لذا ألقيت به إلى الأرض". أضاف الأمير، "توجه هذا الطبيب ذاته لمقابلة العميد الدكتور على إبراهيم باشا وأخبره عما شاهده، ذكر له أنه لو توافر العدد الكافى من الأطباء للكشف على مرضى العيادات الخارجية لما حدث مثل هذا الأمر. أجاب سيادة العميد بأنه إذا إرتأى أن باستطاعته أن يدير منصب العميد أفضل منه، فليتفضل ويستلم مكانه!

فى أكتوبر١٩٣٨ ذهبت أنا أيضا للعميد، أخبرته أن نظام العمل بالعيادات الخارجية فى حاجة إلى إصلاح شامل. كان أساس فكرتى يعتمد على أنه من حق المريضُ أن يخلع ملابسه ؤيتم فحصه فحصا دقيقا، لذا اقترحت أن تحدث زيادة فعالة فى الأطباء المناوبين ليتماشوا مع الواقع الفعلى، لأنه من المعروف أن المريض لن يحصل على علاج ناجع بدون الفحص الشامل والتوصيف الدقيق لحالته. لكن العميد لم يهتم بتلك المشورة، فاضطررت إلى كتابة مقترحاتى فى ورقة وأرسلتها بشكل رسمى، وتفاعل سيادة العميد فعلا، وذلك عندما أرسل لى كلمة مع المنجورى بيك مسجل الكلية عندما قابلنى صباح اليوم التالى قائلا، "الباشا" يقول لك، لا ترسل لى خطاباتك الطويلة تلك مرة أخرى"

الشيء المحزن أن هذا العميد - الذى اصبح رئيسا للجامعة بعد ذلك - كانت لديه فرصة نادرة. كان من الممكن أن يفعل الكثير فى صالح أخوته فى الوطن والفقراء الأقل حظا فى الحياة، لكن ثبت بالدليل القاطع انه عجز، أو لم يفكر فى انتهازها بينما كان فى إمكانه، بسبب سمعته الطيبة، أن يجعل مصر إحدى المراكز الكبرى للعلاج الطبى فى الشرق.

المأساة أن هذا الرجل سيعتبر طبقا للمعايير المصرية

الغربية كرجل عظيم، هو في الحقيقة ليس كذلك، وأزيد بقولى أن الحكومة الحالية تعتبر شريكة له أخلاقيا. هم يعتبرون أنفسهم زعماء مجموعة الدول العربية، لكن إذا لم تتدخل القوى العظمى فى العالم لفرملتهم، فإن هؤلاء الباشاوات سيتسببون فى مصائب كبرى تحيق بالشرق الأوسط بأكمله فى القريب العاجل بعد نهاية الحرب.

إننى أسمع من الآن همس الساسة الإنجليز قائلين "هذا الرجل ألبورت يتكلم هراء، فهو ليس إلا طبيب، ليس فى مكنته أن يصدر أحكاما"، لكنى أود أن أشير إلى أننى حذرت الشعب البريطانى سابقا. أعلم اننى فعلا لست بالرجل السياسى، إنما أنا رجل عادى، لكنى أحوز القدر الكافى من المنطق والعقل، ففى الصفحة الأخيرة من كتابى، "الجوانب الطريفة للحرب"، الصادر سنة ١٩٣٤، كتبت، "هناك معروف وحيد أطلبه من انجلترا بالنيابة عمن حاربوا وماتوا من أجلها، هو أن تكون على حذر. فمهما كانت الفكرة جميلة ورائعة، تلك التى تنادى بضرورة نشر السلام والإخوة العالمية، إلا أن هذا لا يمنع اتخاذ الاحتياطيات الكافية والعنيفة للحرص ضد أى فكرة هجوم قد تبيته لنا دولة أو مجموعة من الدول المعادية، فالتصور الرائع الذى ينشد السلام للجميع إنما مصيره ومقره الوحيد هو السماء، لكن فى عالمنا الشرير

ذاك ما هو إلا سراب، وسوف يقود انجلترا وإمبراطوريتها - إذا تخلينا عن الحذر - إلى مصيدة الخراب العاجل".

لكن فلنستأنف حديثنا. فى أكتوبر ١٩٤٠، بعد تولى عزمى باشا عمادة كلية الطب، أُنعش مشروع تنظيم العيادات الخارجية ونفذ بالقوة، ثم طبق بحذافيره فى قسمى وقسم آخر يرأسه أحد مساعدى، لكن للأسف لم يطبق فى باقى الأقسام، حيث استمر الأطباء الشبان فى مسلكهم القديم الذى يعتمد على التشخيص بالنظر دون فحص كافٍ، بذلك يصلوا إلى نتيجة مؤداها: علاج خاطئ.

تدريس الطلبة أصبحت مهمة شاقة فى ظل الظروف التى تجابهها مستشفى فؤاد الأول، فى أحيان كثيرة يصعب على الإنسان اختراق الحشود الواقفة أو المقرفصة فى طرقات المستشفى ويزحمون فنائها، حيث لا توجد مقاعد لهم. إذا كان هناك مريض حالته سيئة فما عليه سوى أن يفترش الأرض الأسمنتية منتظرا من يهتم به.

تقريبا كل المرضى يبدون فى حالة مزرية والقمل يرعى بحرية فى ثنايا ملابسهم، علما بأنه لا توجد وسيلة فعالة لتنظيفهم قبل دخول العيادات. الطلبة الذين يحضرون للعيادات الخارجية يجب أن يرتدوا ملابس بيضاء وممنوعين من الانحناء لفحص المرضى. ولا يصلح لتحقيق الفحص

الطبى سوى ارتداء ملابس العمليات الجراحية التى تزرر من الخلف، لأن تلك التى تثبت من الأمام لا تمنع من تسلل القمل داخلها، هذا وكنت معتادا على الدوام على تفتيش ملابسى بعد رجوعى من عملى فى العيادات الخارجية. أى نظام يسمح باستمرار هذا الوضع سنة بعد أخرى ما هو إلا فضيحة عظمى وكبرى أيضا.

أتذكر يوما كنت فيه أفحص مريضا بائسا هزيلا يعانى من مرض قلبى وبلاجرا وبلهارسيا، كانت جلابيته (GALLA-BIA) ممزقة يعشش فيها القمل، فجأة رأيت بجوارى طالبة تنفجر فى بكاء قائلة: إنه من المؤلم أن ترى مثل ذلك الإنسان المعرض لكل مظاهر البؤس والإهمال. منذ ذلك الحين احترمت تلك الفتاة وقدرتها، وهذا مطابق تماما لمسلكى أمام أى سيدة بمثل تلك المشاعر الرقيقة.

الرجال الذين أُرسلوا لبعثات فى الخارج بانجلترا ثم عادوا بسبب ظروف الحرب لاستئناف دراستهم، أُصيبوا بصدمة شديدة وحزن مستديم عندما لمسوا حالة المستشفيات المصرية مقارنة بالإنجليزية، وشعرنا نحن أيضا بالأسف من أجلهم، لكنهم مع الوقت تقست قلوبهم واعتادوا الأمر.

هناك مجموعة لم تهضم ما شاهدوه فى مصر، هم مجموعة من الأفارقة المسلمين من ممباسا وما جاورها الذين

كانوا يخدمون فى قوات الحلفاء، هؤلاء حضروا لمصر ليعملوا فى كتائب العمل. فى طريق عودتهم، أخبروا زملاءهم غير المسلمين أنهم رحبوا عندما علموا بقدومهم لبلد إسلامى، آملين أن يروا بأعينهم كيف تدار بلد مطعمة بكل تلك المقاييس الإنسانية العظيمة. عندما وصلوا مصر وشاهدوا الحالة المحزنة التى يعيش فى ظلها الفلاحون من فقر وتخلف، والأجور الهزيلة التى يتقاضونها والقذارة والمرض والطريقة التى يعامل بها حكام البلد مواطنيهم، أصيبوا جميعا بخيبة أمل نفذت حتى النخاع، وأداروا وجوههم خجلا من زملائهم الوثنيين الذين عيروهم قائلين، "أين ذلك البلد العظيم الرائع الذى طالما تفاخرتم به ؟" .. هذه المعلومات سمعتها بنفسى من قائد مسئول بإحدى فرق العمل بمصر.

الفلاحون الذين لا يجدوا وسيلة للحصول على تذكرة دخول للمستشفى، يعانون أشد المعاناة. قد رأيت الكثير من هؤلاء التعساء راقدين على أرضية الجراجات المفتوحة القريبة من المستشفى أثناء حضورى صباحا، منهم من لم يستطع الدخول بالأمس، إما لأنه لا يملك قروشاً قليلة يدفعها رشوة للكاتب ليسمح له بالحصول على تذكرة طبية، أو لعدم توافر سرير خالٍ فى الأقسام. أحد هؤلاء سار ٨٠ كيلومترا من بلدته وفشل فى الدخول للمستشفى، فبات فى جراج مفتوح

وظل يومين بلا طعام، لم يجد بدا سوى أن يبحث عن طعام في صفائح الزبالة. أخيرا صادفه سائقى، وأخبرنى عن حالته، فدبرت له سريرا فى أحد أقسامى المسئول عنها.

هذا الفقر المدقع الذى يكتنف هؤلاء المصريين شيء بشع، رأيت مرة فى الصباح الباكر خلف مطبخ المستشفى، سيدة عجوز وطفل متشرد وكلب بائس وقطتين وحدأتين مصريتين، الأخيرتين كانتا تتقافزان هنا وهناك تحاولان التقاط ما يمكن الحصول عليه من بقايا الطعام، بينما انشغلت السيدة العجوز فى مطاردة الكلب والقطتين الذين يرغبون فى مقاسمتها الرزق.

أى زائر لمصر قادر على النهوض مبكرا، ثم يأخذ أهبته لجولة فى الشوارع سيفاجأ بعشرات من البؤساء يفتشون حاويات القمامة بحثا عن طعام، أو عن أى شيء بسيط يمكن أن يباع.

☐☐☐

الفصل السادس عشر
طلبة الطب المصريون والامتحانات

كلما تعايشت مع طلبة الطب المصريون، زاد اقتناعي بإمكانياتهم العظيمة، حتى إذا افترضنا أن أفضل الطلبة وأنبههم هم الذين أتيحت لهم فرصة الالتحاق بكلية الطب. ما يدهشني حقا هو قدراتهم المدهشة، علما بان دراستهم وامتحاناتهم تتم كلها بلغة غريبة عليهم وهى الإنجليزية. أتصور العجب الذى يمكن أن يحدث، لو اضطر الطلبة الإنجليز أداء امتحاناتهم باللغة العربية مثلا!

لكن أحيانا يخونهم استخدام التعبير المناسب باللغة الانجليزية، مثال ذلك هو الطالب الذى طلبت منه اختبار حاسة الشم لمريض بمرض عصبى، فسألنى "وهل لدينا شيء نستعمله لنشم المريض به ؟"

فى مناسبة أخرى، ارتكب أعضاء الجماعة العلمية خطأ لغويا، فقد سألوا أحد الأساتذة الإنجليز أن يلقى محاضرة عنوانها "كيف رسبت فى عملى الطبى"، كانوا يقصدون بالطبع، "أخطاء ارتكبتها عند بداية ممارستى كطبيب".

أنا أيضا وقعت فى أخطاء مضحكة عند استعمالى للغة العربية. كنت مرة أعطى درسا عمليا فى أحد أقسام الكلية،

ثم لاحظت أن بعض المرضى فى نهاية العنبر يحدثون جلبة ولغطا، فصرخت بهم "شت أب"، ولكن لم يحدث شيء، فسألت طالب عن معنى هذه الكلمة باللغة العربية، فقال لى إنها "اسكت" Escut، فما أن نطقت بها بكل قوتى، حتى ساد صمت شامل. فى يوم آخر حدثت نفس الجلبة، فصرخت فى المرضى قائلا، "أبصم" Epsom ولكن لم يحدث شىء ! والآن نعود مرة أخرى لموضوع الامتحانات.

يقرر الممتحنون فى انجلترا وجنوب أفريقيا أن إجابات الطلبة المصريين هى أفضل كثيرا من مثيلتها فى كلتا البلدين.

أحد الطلبة الذين يستعدون لنيل درجة الدبلوم، كانت إجاباته باللغة الإنجليزية رائعة، وربما تفضل المرجع الطبى المتخصص. هو بلا شك يمتلك موهبة متميزة وعقل راجح. اعترف بأننى لم أقرأ من قبل مثل ذلك الوضوح والتنظيم والتوازن فى إجابة عن سؤال صعب فى الطب. سوف أحاول يوما أن أقنعه - عندما تتحسن قدراته العملية - أن يكتب مذكرة مختصرة عن النظرية والتطبيق فى الطب، ينتفع بها الطلبة المصريون، وأنا على ثقة أنها ستكون ممتازة ووافية بالغرض. لو كنت أماثله فى هذه الموهبة ما ترددت لحظة فى كتابتها بنفسى. الشىء العجيب أن هذا الطالب رسب مرتين فى امتحانات الدبلوم، وقد أسهمت أنا فى ذلك خوفا منى على

مستقبله. هو كطالب للطب، لم ينبنى على أسس سليمة فى الطب الاكلينيكى، وكان قد استقر فى وجدان الجميع انه سيصبح يوما ما مدرسا بالكلية، إذا حدث هذا فإنه سيوقع أبلغ الضرر بطلبته، إذا لم يتقن الطب العملى ويصبح متميزا فيه كما هو شأنه فى الطب النظرى، وكان هذا الشاب قبطيا، لو عاش فى انجلترا ومارس عمله هناك لأصبح له مستقبل لامع، لكن فى مصر.. أشك .

كنت أشترك فى امتحانات الطلبة كل عام، لكنى اكتشفت أن الموضوع ليس بهذه السهولة، كانت المشكلة فى حقيقتها أن الأستاذ المصرى يعتبر ممتحنا جيدا، لكنه ليس دائما إنسانا عادلا، لذلك كان يُنتدب أطباء خارجيين حاصلين على درجة الزمالة - هم غالبا أطباء إنجليز يعملون بالجيش البريطانى فى مصر.

كانت نصيحتى الدائمة للممتحن الخارجى الذى ليست لديه خبرة سابقة بالامتحانات هى كالآتى، "الممتحن المصرى جيد جدا، لكن لا تدعه يؤثر عليك بطريق ملتو. فى امتحان الطب الاكلينيكى ودرجاته القصوى ٦٠ درجة، إذا اقترح هو ٣٦ درجة لطالب ما، ثم اعتقدت أن الدرجة مناسبة فوافق عليها، لكن إذا اقترح مثلا ٤٦ درجة، وأنت تعتقد أن أداء الطالب لم يكن فى المستوى المناسب وانه لا يستحق سوى

درجة النجاح وهي ٣٦ درجة، فتأكد في تلك اللحظة أن هذا الطالب ليس إلا ابن باشا أو وزير، أو هو قريب للممتحن ذاته، فاقترح أنت أن تكون الدرجة ٣٠ ، بعد المساومة، من الممكن أن ترفعها إلى ٣٨ درجة. من جهة أخرى إذا كانت إجابة الطالب مرضية في نظرك واقترح الأستاذ المصرى أن ينال ٣٢ درجة، فتأكد أن هذا الطالب ربما يكون مخالفا للأستاذ في الدين، أو انه على معرفة شخصية به ولا يحبه، أو لا يحب أقرباءه أو أصدقاءه، لذا إذا اعتقدت أن الدرجة العادلة لهذا الطالب هي ٤٠ درجة، فاقترح أنت ٤٤، ثم تبدأ المساومة لتصل في النهاية إلى ٣٨، بهذا ينجح الطالب. الواقع انه في المجتمعات الصغيرة كمصر، دائما ما يكون الممتحن على معرفة وثيقة بعديد من طلبته. بالتجربة اتضح أن الممتحنين المصريين غالبا ما يكونون متصلين بجهات معينة تؤثر فيهم أو تدفعهم لأن ينحازوا". قبل الحرب أعطى لي ممتحن ورقة إجابة لطالب رقم جلوسه ١٣، أتذكر انني قلت له ضاحكا، "لكن ألا ترى أن رقم جلوسه نحس" فرد قائلا، "لكن لغته الإنجليزية رائعة"، في تلك الليلة قرأت إجابة الطالب. كانت لغته الإنجليزية فعلا جيدة، لكنها لم تكن كذلك في الطب. جمعت درجة إجاباته حسب تقديرى فكان مجموعها ٢١ درجة من ٤٥ (درجة النجاح في تلك المادة ٢٧ درجة). بعدها اتضح لي أن الممتحن المصرى أعطاه ٣٨ درجة.. وفي

امتحان الاكلينيكى، تعمدت أن أعرف من هو الطالب رقم ١٣، ففوجئت أنه ابن أحد الباشاوات الذين يعملون بالجامعة. بالرغم من أن تقديرى له كان لا يزيد على ٢١درجة، إلا انه نجح بتفوق فى كل المواد وكان ترتيبه الأول. هذا ليس إلا مجرد مثال يوضح مدى ما يكنه السادة المتحنون لذوى الحيثية والنفوذ فى المجتمع.

بعض الإجابات التى يرصدها الطلبة المصريون تعتبر طريفة ومثيرة للدهشة وأعتقدت أن أسجل ما ألاحظه من إجابات عجيبة فى مذكرة صغيرة أحتفظ بها. فيما يلى قطعة شعرية مؤثرة دبجها طالب عندما أجاب عن سؤال يطلب فيه الممتحن شرح أعراض الالتهاب البلورى، كتب الطالب، "الألم مستمر لا ينقطع، أما الضلع فإنه يختفى تماما، ووجيعة المريض تصبح قاسية مؤلمة لا تطاق."

أقسى المتاعب التى تواجه طالب الطب المصرى فى الامتحانات هى عادة حبس نفسه فى منزله ساهرا الليالى المتوالية يقرأ ويعيد ويزيد، بدلا من أن يركز جهده وانتباهه لما يحدث أمام عينيه فى الأقسام الخارجية.

أحد الأطباء المساعدين أخبرنى أن نصف المتقدمين لامتحان الدبلوم يتعاطون البنزدرين لإنعاش ذاكرتهم، والنصف الآخر يتعاطى البروميدات لتهدئة أعصابهم.

النواب هم فى الأســاس طلبــة مـتـقـدمـون لنوال درجـة الدبلوم، هم يقضون كل وقتهم داخل المستشفى كمسئولين عن الأقسام المختلفة، أو هذا ما هـو مفترض. واقـع ما يحدث هو أن يسمح لهم – ما عدا فى قسمى– أن يخصصوا جل وقتهم فى غـرفـهم يذاكـرون، فى نهـاية الأمـر بدلا من أن يشـحـذوا قدراتهم ويثبتوا أقدامهم فى الطب العملى، فإنهم يهبطون عدة درجـات ويصـبـحـون أقل مـسـتـوى عـمـا كـانوا عليـه يوم أن تخرجوا من الكلية.

أخبرت عميد الكلية عن هذا الموضوع وأثبت له ذلك عمليا، ففى امتحان العملى للدبلوم فى مايو ١٩٤٢، أخبرت مساعدى الدكتور قناوى، أن يختار أسئلة مشابهة تماما لتلك التى سُئل فيها طلبة البكالوريوس عن أمراض شائعة فى القلب والرئة.. الخ، وبالرغم من سهولة الامتحان، فقد كانت إجابات النواب الخـمـسة مـخـيـبة للآمال. عندما حللت إجاباتهم وجدت أن الصـحـيـح منهـا لا يزيد على ٤٥-٦٣ ٪ بمتوسط قـدره ٥٥٪، وكان الامتحان هو نفسه الذى امتحن فيه طلبة البكالوريوس، وكانت مـسـتـويات درجـات الخـمـسـة الأوائل فى البكالوريوس تتـراوح مــا بين ٧٦,٦ –٨٠٪ (الأولى والرابعـة من الأوائل كانوا فتيات).

مع العلم أن هؤلاء النواب اخـتـيـروا لهـذا المنصب لأنـهم

كانوا من الاوائل فى امتحان البكالوريوس، لكن بعد خبرة عملية قدرها سنتين، مع الإشراف المباشر على أقسام تحتوى بعضها على ٧٥ سريرا، نسوا جميعا معظم ما تعلموه عن الطب الاكلينيكى.

لكن ربما كان أكثر الأمثلة إثارة والتى تدل على مدى إهمال فرص التدريب العملى للنواب، هو ما حدث أمامى لأحدهم، وهو مسئول عن قسم الأمراض الصدرية بالمستشفى، وبالطبع قضى سنتين يتدرب عمليا. فى الامتحان الاكلينيكى للدبلوم قُدمت له حالة ليفحصها، بعدها أخذنى أحد الأساتذة الممتحنين جانبا وقال لى، "ألا تعلم انك أعطيت له حالة بسيطة جدا لتشخيص مرض صدرى مع العلم بأنه نائب بنفس القسم ؟". الواقع اننى لم انتبه لحقيقة انه نائب قسم الأمراض الصدرية، لذلك أجبت الأستاذ، "ولا يهمك، هذا ليس سوى حظه الحسن".. لكن للأسف لم يكتشف أن الحالة المرضية البسيطة التى أمامه، وإنها ليست إلا حالة تجمع السوائل فى البللورا والتى تُكتشف بمجرد النقر بالإصبع على الصدر كما لو أنك تنقر على سطح حائط صم. إنها من الحالات البسيطة التى يمكن لطالب مبتدئ أن يكتشفها بسهولة. بالطبع يرجع سبب فشل هذا النائب، إلى أنه قضى معظم وقته يستذكر فى غرفته، وكان يعتمد فى تشخيصه للأمراض على فحص الأشعات المختلفة.. لهذا اضطررت

بالطبع إعلان رسوبه فى هذا الامتحان.

فى أيام ما قبل الحرب، اتهم أحد الأساتذة الحاصلين على درجة الزمالة الشرفية، أحد نوابه بالغش فى الامتحان. فى تلك الأيام كان كل من ليس لديه عمل يشغله من المدرسين، يحضر جلسات الامتحان، ويشاهد الممتحنين وهم يتلوون. كنت قد عارضت هذا الأسلوب الغريب، لكن قيل لى أن هذا نافع لهم ويفيدهم فى مستقبل أيامهم عندما يصبحون هم أيضا من الممتحنين. كانت دلائل غش النائب هى، أنه من المؤكد أن أحد الأطباء المساعدين قد اختلى به فى غرفة جانبية وأطلعه على خفايا بعض الرسوم التى أظهرها رسام القلب لحالة مرضية، أسس الأستاذ رأيه القائل بأن النائب غشاش، هو أنه أجاب عن كل الأسئلة ولم يخطئ فى واحدة منها. هذا ما يدعو للدهشة ! . وقد رفضت هذا المنطق، لكن غُلبت على أمرى لأننى كنت وحيدا وسط مجموعة من الممتحنين الذين أصروا على رسوب النائب.

لا أعرف ما هى الدوافع والعلاقات التى تربط هذا الأستاذ بتلميذه، لكن فى حقيقة الأمر ما شاهدته أمامى ليس إلا تحميل خاطئ لمعايير الحق والعدل. طالما أن هذا النائب كانت إجاباته كلها صحيحة، بالتالى كان واجبا أن ينجح وبتفوق أيضا.

بعد تلك الواقعة أصررت على أن لا يحضر مكان

الامتحان سوى طرفى المعادلة فقط، وأن يكون الامتحان كله تحت الإشراف المباشر للممتحنين. منذ بداية الحرب وطبقا لموافقة الدكتور على إبراهيم باشا، وُضعت امتحانات النيابة لتكون مماثلة لامتحانات الزمالة بلندن، واستمر هذا الوضع حتى مغادرتى القاهرة.

الطلبة المصريون يعتبرون الامتحانات كأنما هى بداية ونهاية العالم، والكثير منهم فى فقر مدقع، وبعض منهم يجد صعوبة بالغة فى تدبير مصروفات الامتحانات. أعلم يقينا أن الدكتور عزمى باشا يدفع من جيبه الخاص مصروفات بعض الطلبة ليلحقوا بالامتحانات.

ربما من أكثر الأمور غرابة هى عادة الممتحنين المصريين فى رصد درجات الامتحانات بدون قراءة الإجابات. أحد الممتحنين افتخر أمامى أنه قرأ مجموعة ضخمة من الإجابات فى مدى ساعتين فقط، بينما مجموعة مماثلة قد تستغرق منى اثنتى عشرة ساعة لقراءتها وتقييمها. أعلم أن هناك من يفوقنى فى مهارة القراءة، لكن عندما تصل النسبة إلى ١:٦ يتضح أن، "هناك شىء فاسد فى دولة الدانمرك"، ومن الملاحظ أن هناك تناقض غريب فى التصحيح بين أستاذ وآخر.

فى الحقيقة، لا تختلف كثيرا الدرجات بين ممتحن

وآخـر فى الدول الأخـرى، ذلك بفـرض أنـهم جـمـيـعـا قـرأوا الإجابات بتمعن ولم يكونوا تحت تأثير انحيازات مـختلفة كما يحدث فى مصر.. إننى على يقين أن الطالب المصرى لا يعامل بالعدل والإنصاف الذى يستحقه.

□□□

الفصل السابع عشر
طاقم التدريس فى المستشفيات الجامعية
قسم الأطباء

على أيام محمد على باشا الذى حكم مصر منذ مائة عام تقريبا، كان الناجحون فى مدرسة الطب يرغمون على أداء قسم الأطباء المبنى فى محتواه على قسم أبوقراط الذى يرجع عهده إلى القرن الرابع قبل الميلاد.. فالمصرى يقسم عند تخرجه قائلا، "أقسم بالله العظيم وبنبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، أن أكون مخلصا لمقتضيات الشرف والأمانة والكرامة لمهنتى الطبية. سوف أرعى الفقراء بكل الكرم ولا أغلو فى تقدير أتعابى، وعندما أدخل البيوت لا تتصفح عيناى ما بداخله، ويحفظ لسانى أسرار البيوت. عملى لن يكون أبدا مساعدا بأى شكل من الأشكال لنشر الفساد أو الجريمة، ولن استسلم لأى ضغط أو تهديد لأصف سموما لأى إنسان، ولن أعطى أى سيدة حامل دواء يؤدى إلى إجهاضها. سوف أكون مخلصا ومطيعا لأساتذتى، وأتعهد بأن أسلم ما تعلمته منهم إلى أولادهم، وأرجو من الله أن أنال الرضى والاحترام طالما أنا ملازم لقسمى هذا، وإذا حنثت به، فليشملنى العار والشنار، وأكون مستحقا للإزدراء والتحقير أمام الناس

جميعا، والله على ما أقول شهيد.

عدد كبير من طاقم التدريس بالمستشفيات الجامعية ممتازون كأطباء وجراحين، لكن المعايير الأخلاقية لمعظمهم أقل من المطلوب، فضميرهم دائما ما يصمت ويخرس إذا اتصل الأمر بالماديات، إذا قورنت هذه بمصلحة المرضى أو الطلاب. هذا حكم قاسٍ منى، لكنه حقيقى قولا وفعلا.. للأسف لا ينطبق هذا فقط على المصريين، فقد عرفت أناساً فى أعلى المناصب الطبية فى انجلترا يعتبرون أسوأ من المصريين فيما يختص الأمر بمالى ومالك أو ملكى وملكك.

إن العدالة تقتضى أن أتهم أبناء الفراعنة بهذه الأمور، فليس هناك مبرر واحد أن يدأب معظم طاقم التدريس بالجامعة فى إهمال المرضى والطلاب بأقبح الطرق الممكنة، تقريبا كل طبقات الأطباء من صغيرهم إلى كبيرهم، من الأساتذة الباشاوات والبهوات حتى الأطباء المناوبين الصغار، كانوا وما زالوا موصومين بإهمال واجباتهم، وسوف يواصلون مسيرتهم هذه طالما أن المسئولين عن تلك المستشفيات لا يدركون أنها صروح بُنيت لمصلحة المرضى والمشرفين على الموت، وليس فقط كوسيلة لإثراء طاقم التدريس وتلميعه وزيادة شهرتهم.

بعد فترة قصيرة من وصولى مصر أثرت هذا الموضوع

فى مجلس الكلية، قال لى المرحوم الدكتور بيومى أستاذ وجراح العظام والذى قضى سنوات فى انجلترا، أن هذا الموضوع يعود تماما إلى ضمائر الأساتذة أكثر مما نرجوه من اجتماعات مجلس الكلية. مع ذلك، تكونت لجنة برئاسة العميد، وتقدمت بمشروع ينص على أن يلتزم أطباء نصف الوقت بالحضور للمستشفى ساعتين فى اليوم لمدة أربعة أيام فى الأسبوع. هذا عرض متواضع لو قارنا هؤلاء بالأساتذة الشرفيين بانجلترا، حيث يتقاضى المصريون مرتبات مجزية من الحكومة، وتمت الموافقة على المشروع، بعدها خاطبت العميد قائلا: "هذا بالفعل شىء يبعث على السرور والرضى، لكن هل سينفذ ؟" فأجاب سيادته "إننى أعدك بشرفى أنه سيطبق حرفيا".. لكنه بالطبع لم ينفذ.

بعدما أصبح هذا العميد رئيسا للجامعة، حضر معنا اجتماعا لبحث المناهج، فأثرت الموضوع مرة أخرى. قلت إنه من الضرورى اتخاذ إجراءات تنظيمية، وأن تقرر الجامعة رفت أو عقاب العضو الذى يهمل فى واجباته، فكان رده القاطع، "إنك لا تفهم جيدا الأحوال المصرية".

الحقيقة أن الدكتور رئيس الجامعة كان فى مأزق حقيقى، وقد أخبرنى أحد مساعدى الجراحين بمستشفى الدمرداش والذى ألف كتابا بالعربية عن المستشفيات المصرية، أن سيادة

الرئيس كان يماثل الآخرين سواء عندما كان أستاذا فى الكلية، كان دائما ما يحضر متأخرا لإجراء العمليات الجراحية، ذلك قبلما يصبح ذاك الباشا العظيم. أيضا أخبرنى محاضر بمستشفى القصر العينى أنه عندما كان فى السنة الخامسة بكلية الطب، لاحظ أن الدكتور الباشا كان نادر الحضور لزيارة أجنحة المستشفى المسئول عنها مسئولية مباشرة.

لكل هذا لم يكن غريبا أن يتهمنى بالجنون عندما أكدت على ضرورة العمل على تأديب أو طرد الأساتذة الذين يهملون فى واجباتهم فى "خطابى المفتوح"، والذى علق عليه عميد الكلية قائلا: "يتعذر عمل أى إجراء فى هذا الشأن، وكلنا أمل أن يتحفنا الحظ بجيل لاحق يكون أفضل من جيلنا".

أى أمل لمصر بينما قادتها يفشلون فى إقرار أمور تنظيمية بحتة تخص خدام الدولة الذين يتقاضون أجرا مجزيا من الدولة فى مقابلها، فى الحقيقة يستطيع كل من يملكون نفوذا أو لديهم أصدقاء أو أقرباء من الوزراء أن يستهزئوا بالجامعة والحكومة بكل اطمئنان وراحة بال.

هناك بعض الأساتذة لم تتمتع أقسام المستشفى بطلعتهم البهية لأسابيع متوالية قد تمتد إلى شهر أو أكثر، ويلقى العبء كله بالطبع على المساعدين من النواب والأطباء الصغار

– غالبا يتم العمل بشكل غير مرض، بهذا لا يعانى فقط المرضى والطلبة، بل أيضا الأطباء المناوبون الذين هم فى أشد الحاجة لتلقى المشورة والنصح الذى يؤثر على مستقبل حياتهم. يضاف إلى ذلك، أن الأطباء الصغار لا يجدون أمامهم سوى المثُل السيئة التى تشجعهم على إهمال واجباتهم.

الطلبة يدركون كيف تساء معاملتهم، ولكن كل احتجاجاتهم تذهب أدراج الرياح، هم يعلمون حجم المخاطرة إذا أبدوا أى مظهر للانتقاد أو الاعتراض لأن مستقبلهم معلق على خيط رفيع يسهل قطعه بإشارة إصبع.

منذ فترة بسيطة أبرق طلبة سنة نهائية لوزير سابق فى مجلس الوزراء يشكون أحد الأساتذة المسنودين بأنه لا يحضر ليلقى عليهم محاضراته إلا نادرا، وأنهم زهقوا وتعبوا من انتظاره يوما بعد يوم داخل المدرجات وهو لا يعيرهم التفاتا. ما كان من الوزير إلا أن أرسل البرقية كما هى لذاك الأستاذ، فحضر هذا فى صباح اليوم التالى والشرر يتطاير من عينيه، ومزق البرقية أمام الطلبة ورمى القصاصات على الأرض غاضبا، قال بأنه لن يحضر أى محاضرة حتى نهاية العام، وانه فى انتظارهم أيام الامتحانات.

بالرغم من كل هذه الأمور، فقد تجرأ مرة أحد الطلبة

ونشر مقالة مُرّة فى صحيفة اتحاد طلبة كلية الطب فى ابريل ١٩٤٣، فيما يلى مقتطفات منها بعد ترجمتها من اللغة العربية:

إننى أتهم هيئة التدريس

ملحوظة للمحرر: هذه الصحيفة تخص الطلبة، ولهم الحق فى نشر كل ما يمس صالحهم، ورغم أن المحررين لا يتفقون مع كل ما جاء بتلك المقالة من اتهامات لطاقم التدريس، إلا إننا وافقنا على النشر بهدف إعلام المسئولين بالكلية عما يدور فى أذهان الطلبة من أمور.

"منذ ثلاث سنوات قال لطفى السيد باشا رئيس الجامعة ما يلى: (إذا لم يتفوق طلبة هذا الجيل عن أساتذتهم، فهذا لا يعنى سوى أن هؤلاء المدرسين لم يقوموا بواجبهم كاملا تجاه وطنهم، وهو دليل مجدد على تأخرنا فى المدنية). هنا أود أن أنتقد قليلا ما يجرى فى كليتنا".

يعتقد المصريون جميعا أن المجال الطبى عموما لا يشكو من استغلال النفوذ، وأن العدالة المطلقة هى السائدة فى كلية الطب، لكنى أشعر أن هذا لا يحدث بالمرة، فالاستثناءات تُخلَق عند الحاجة، ثم تلغى عند تحقق مرادها، فيما يلى أمثلة لذلك:

١- صدر منذ فترة قرار بأن يلتحق أبناء خمسة من

أساتذة الكلية بهذه الكلية كل سنة بدون أى شروط، هذه السنة فقط أُلغى هذا النظام، إننى أتعجب، ألا يوجد أحد من أبناء الأساتذة يود ممارسة مهنة آبائهم ؟

هل كان هؤلاء الأبناء أكثر ذكاء عما هو حادث الآن ؟ .. الإجابة الوحيدة لذلك هى أن هذه القاعدة أُنشئت لغرض ما، وما أن تحققت تلك الأغراض أُلغيت.

٢- الدروس الخصوصية: ما هى وظيفة الأستاذ أو المدرس الجامعى ؟ وما تعنيه كلمة مدرس ؟ .. هى فى الواقع تعنى أن هناك شخصاً ما عُين ليعلم مجموعة من الطلبة لقاء أجر محدد. لماذا إذاً سادت موضة الدروس الخصوصية ؟ ولماذا يقبل المعيد أو المدرس أن يندرج تحت لوائها ؟

ربما يقال أن المدرس حر فى أن يستغل وقت فراغه كما يشاء، وربما يقال أيضا إن الدروس الخصوصية معروفة أيضا فى أوروبا ولا تجد من يعارضها من السلطات الحكومية هناك.. وألم يصدر سيادة العميد قرارا بإلغائها ؟

سمعت من أحد أساتذتى أنه عندما كان طالبا، كان يجمع كل الأسئلة المحيرة وما غمض عليه فهمه، ويوجهه كأسئلة لأستاذه، الذى يبادر بكل سرور بالشرح الوافى. أيضا كان مسموحا له أن يتوجه مع عدد من زملائه إلى عيادة الأستاذ الخاصة ويشاهدوه أثناء ممارسته لعمله، فيبادر بشرح كل ما

لم يجدوا الفرصة سانحة لاستبيانه فى المستشفى.

هذا حـــدث سنة ١٩١٨، لكن نـحن الآن سنة ١٩٤٢، إذا توجـه أى طالب بسؤال لأستاذه، فإنه لن يتلقى إجابة شافية، هذا يوقع الحيرة والرعب فى قلب الطالب وهو يرى شهر مـايو يقـترب حـثيـثـا ومـوسم الامـتـحـانات على الأبواب، ولن يكون أمامه من مخرج سوى أن يلجأ للدروس الخصوصية.

هناك عـضـو من هيـئـة الطب الجـراحى اعـتـذر عن إلقـاء مـحـاضـراته على الطلبـة النظامـيين بـحـجـة أنه مـرهق، بينمـا استمـر فى إلقاء دروسـه الخصـوصـيـة بعيدا عن العيـون.. هذه حقائق أنشرها بدون تعليق، وأدع القارئ يحكم بنفسه.

٣- انتظام حضور الأساتذة: هذا مـا يشـرحـه زميل لنا عندما قال، "فى سنة ثانية طب، كنا نزوغ من دروس التشريح بينمـا ينتظم الأسـاتذة فى الحـضـور، لكننا الآن ونحن فى مرحلة التدريب داخل المستشفى، ننتظم نحن فى الحضور، بينما يزوغ منا الأساتذة. بعضهم يحضر الساعة ١٢ ظهرا بينما موعدهم الرسمى ١١، بعضـهم مخصص له مـحـاضرة واحدة أسبوعيا، لكنه نادرا ما يحـضـر. يواظب الطلبـة على الحضور ويسرعون إلى احتلال المقاعد الأمامية، لكن كثيرا ما يقال لهم أن الأستاذ معتذر عن الحضور هذا اليوم".

هل يعلم سيـادة العـمـيد كل هذه الأمـور ؟ وهل اتخـذ أى

إجراء لمنعها ؟

أيها الأساتذة، نحن نريد أن ننهل من علمكم وخبرتكم، **هل** كنتم تُعاملون بمثل ما نعامل به الآن عندما كنتم طلبة ؟ وإذا كان هذا هو ما حدث فى أيامكم، فهل استسلمتم ؟

بينما ينتظم الدكتور عبد الواحد الوكيل فى كل محاضراته، ويستحق منا كل الثناء والاستحسان، بل هو أيضا يزيد من عدد محاضراته عن المقرر، نتساءل نحن: متى يحذو باقى الأساتذة مثاله ؟

بعض من أساتذتنا ينتسبون لكليتنا بالاسم فقط ويتسلمون رواتبهم فى نهاية كل شهر بكل ضمير مستريح. مع ذلك، لا يساهمون فى تعليم الطلبة: السنة الماضية، فى أحد أيام العملى، حدث هرج ومرج فى ممرات المستشفى، فقد حضر كبير الجراحين لإجراء عملية، وصادف أننى كنت أعرف شكله، فسألنى أحد زملائى عمن حضر، فأخبرته بأنه هو الأستاذ، فقال لى، "إنها المرة الأولى التى أراه فيها منذ بداية الدراسة من ثلاثة شهور". تمر تسعون يوما وهو لا يجد الوقت الكافى ليجتمع بطلبته، ولولا تلك العملية الهامة لما كنا قد رأيناه أبدا.

إنه شىء مخجل قولنا أن الأساتذة الذين يواظبون على الحضور للأقسام الخارجية هم الأساتذة الإنجليز هارسنت

وألبورت فقط، بينما يترك باقى الأساتذة المصريين مهمة تعليمنا للمدرسين أو الأقل منهم مركزا وعلما.

أيها الأساتذة: نحن نريد أن نتعلم منكم ما لم نجده فى الكتب، مدونا بعلمكم لكى ننفع الآخرين، فنحن الذين سنتسلم كراسيكم وأماكنكم بعد حين، دربونا كيف نلتزم بواجباتنا والتزاماتنا".

بعد ظهور هذا المقال، أرادت سلطات الكلية اتخاذ إجراءات عنيفة ضد الكاتب، لكن طلبة الطب هددوا بالقيام بمظاهرة عارمة إذا تعرض هذا الطالب لأى إساءة، ولأن الجامعة لا ترغب فى وصول الأمر إلى الجماهير، لذا تركوا الحال على ما هو عليه.

من كل هذا يتضح أن العقلية الطبية فى مصر ما هى إلا مأساة حقيقية من أدنى الأنواع، ومن الصعب أن ينتسب إليه أى إنسان متحضر.

كان من شأن النشرة التى أصدرتها أنا عن الحالة المخزية للمستشفيات الجامعية وما حدث بشأنها من استجواب فى البرلمان المصرى، أن صدرت وعود بالإصلاح. ليس لدى أدنى شك أنه بمرور الزمن سيمتثل صغار المدرسين للأمر وينتظمون فى عملهم ويخلصون، لكن كما نعلم: لا يستطيع النمر تغيير جلده إلا إذا سُلخ، لذلك يمكن القول أن الدكاترة

الأساتذة الباشاوات ذوى الشأن المسنودين لن يتأثروا ولن يحيدوا عن موقفهم الحالى قيد أنملة. المشروع الذى يقضى بأن يعمل أساتذة نصف الوقت بوقت كامل وبأجر كامل لن ينجح وسيستمرون فى تحطيم عملهم بالمستشفيات التعليمية ويركزون كل جهدهم فى عملهم الخاص كما كان يحدث سابقا.

أعلق هنا - ربما يتهمنى البعض بأنى أجلد حصانا ميتا - أن عدم تقديرهم للقيم الأخلاقية بالمفهوم الحضارى المعروف، هم فى الواقع يعاقبون المرضى الفقراء الذين يمثلون ٩٠٪ من أهالى البلد. هؤلاء بالطبع ليسوا مواطنّى بل مواطنيهم، لا يفعلون هذا بمجرد إهمالهم الشخصى للعمل المكلفين به، لكن بما يمثلونه كقدوة للإهمال الذى يسهل على طلبتهم الصغار أن يقتدوا به ويمتثلوا إليه.

□□□

الفصل الثامن عشر
الاعتراف بجامعة فاروق بالإسكندرية

بمجـرد أن انتصـب حـزب الوفـد فى الحكم سنة ١٩٤١، حتى بُذلت جهود حثيثة لزيادة عدد طلاب الجامعة بأكثر مما تتيحه الإمكانيات من قدرات تعليمية وتدريبية. كان يقبل فى كلية الطب حتى سنة ١٩٤٢ مئة طالب سنويا، حتى هذا الرقم المتـواضع كـان يمثل عـبئـا ثقـيـلا على طاقم التـدريس وقـدرة المعامل، حيث لا يتمكن الطلبة من ولوج المستشفيات للتدريب العـملى، إلا مع بداية السنة الثـالثـة الدراسـيـة. أثناء السنتين الأخيرتين من دراستهم، يحتاجون فعلا إلى اهـتمام شـخـصى كلما أمكن ذلك. من الصعوبة بمكان أن تشـرح لمجموعة مكونة من خمسة عشر أو عشرين طالبا، دقائق الطب الإكلينيكى أو الجراحـة. إذا اكـتـشـفنا مـثـلا صوت تنفس مـرضى، فإلى أن ينتهى خمسة عشر طالبا من تلمسه والاستماع إليه فى صدر المريض، يكون الطالب الأول قد استغرق فى نوم عميق، أو أن يفقد الطالب رقم خمسة عشر الأمل ويقرر بينه وبين نفسه أن يهجر مهنة الطب إلى الأبد.

الأمـر المناسب النموذجى، هو أن لا تتـعدى المجموعة سـتة طلاب وبحد أقصى ثمانية.

بالرغم من سـيل الاحـتـجـاجـات التى تدفـقت من كـافـة

الأقسام الجامعية والتى تشير إلى أن الزيادة الفجائية فى عداد الطلبة فى ظل الإمكانيات التعليمية الحالية لن تؤدى إلى تخريج رجال أكفاء تفتخر بهم الأمة، فقد أصرت الحكومة على زيادة عدد الطلبة المقبولين من ١٠٠ إلى ٢٠٠ دفعة واحدة فى كلية الطب بالذات.

لا يخطر على بالى أبدا أن أنتقص من رغبة أى إنسان فى رفعة شأنه بالمقارنة بزملاء له والحصول على أعلى درجات العلم، حتى لو كان هذا الطموح لن يؤدى سوى إلى الحصول على وظيفة آمنة مستقرة ومجزية فى وزارة الصحة. لكن أقرر هنا أن الجامعات لم تخلق لمثل هذه الأمور، فمهمتها الأساسية هى فرز مجموعة مؤهلة من الأطباء الشبان والشابات ذوى القدرات المهنية المتميزة التى تمكنهم أن يكونوا مع الأيام فخرا لأوطانهم، فالمتخرجين الأقل كفاءة الذين لم يحوزوا على تدريب كاف، لا يعتبرون فقط عديمى الفائدة، لكن فى مجال الطب خاصة يعتبرون خطرا داهما وضد مصلحة عامة الناس.

كانت ندرة التجهيزات بالجامعة التى أفرزتها السياسة العقيمة للحكومة، تمثل فرصة سانحة لرئيس جامعة القاهرة الذى حرص على عدم تفويتها. ولأنه كان ذا شأن، خاصة فى مسألة إنشاء مستشفى جامعة فؤاد الأول بجزيرة الروضة، لذا تملكته رغبة جامحة أن يتوج مجده الشخصى بالعمل على

إنشـاء كلية للطب بالجامعة الوليدة بالإسكندرية تكريما لشخصه، لذا سعى أيضا فى نفس الوقت، على أن تعترف بها الكليات الملكية البريطانية.

ما أن بدأ العمل الإنشائى بالجامعة الجديدة، حتى كتب سيادته رسالة موجهة للكليات الملكية طالبا اعترافها ومباركتها للوليد الجديد. ما أن علمت بهذا الأمر، حتى بادرت - بصفتى أستاذا للطب وزميل قديم أنتمى للكليات الملكية، باتخاذ إجراءات معارضة، فبالرغم من استطاعة الحكومة المصرية أن تنشئ جامعة جديدة فى أى وقت أو مكان تشاؤه، فإن الكليات الملكية لا يجوز لها أن تعترف بالإنشاء الجديد دون المجازفة بفقدان قدر كبير من سمعتها ونفوذها. كيف لها أن تعترف بهذا النشء الجديد غير المجهز أو المُعدّ ليكون كلية للطب ؟ .. علما بأن هناك ضرر بالغ سيقع على الطلبة الجدد الذين سيلتحقون بها، وضرر مماثل على المرضى الفقراء.

إنشاء جامعة بهذا القدر من التعجل وسط حرب ناشبة أظفارها فى العالم كله، هو خطأ بالغ وليس فى صالح مصر. كان واجبا أن يؤجل المشروع إلى ما بعد نهاية الحرب بعدة سنوات، ثم يجب أيضا تدبير كل المستلزمات المناسبة من أجهزة وطاقم للتدريس، ويمكن بعد عشرة أو عشرين سنة

مثلا أن تعترف بها الكليات الملكية، على شريطة أن تصل للمستويات التى تقررها هذه الكليات.

إنه من غير المنطقى على الغباء أن نفترض فى جماعة من الأطباء الممارسين بالإسكندرية، لا يحوزون أى خبرة فى مجال التدريس، ومعهم جماعة محدودة من صغار الأخصائيين والجراحين من كلية طب القاهرة، غير مجهزين بأى قدر مناسب من الأجهزة والمهمات والمحاليل، أن يستطيعوا إنشاء كلية للطب تدعى أنها مماثلة لأقدم مؤسستين طبيتين فى العالم أجمع.

تناقشت فى هذا الأمر بكل جوانبه التفصيلية مع الأساتذة الإنجليز وأيدوا رأيي تماما. حتى كثير من الأساتذة المصريين كانوا مجمعين على أن هذا المشروع سابق لأوانه، ونظروا إليه كأنه نكتة سمجة. فى ١٥ يناير ١٩٤٣، كتبت للكليات الملكية شارحا لهم كل الأمور الخافية بالتفصيل، ثم طلبت منهم بكل حرارة أن لا يضعوا فى الاعتبار الاعتراف بهذه الكلية الوليدة. أبلغتهم أن الأحوال السيئة فى الكلية الأقدم وهى كلية طب القاهرة لا تشجع أبدا الاعتراف بكلية طب الإسكندرية.

صادفت متاعب جمة فى إرسال خطابى هذا بسبب الحرب والرقابة على المخطوطات، لكنى بعد جهد جهيد نجحت فى

مسعاى. على الرغم من أنه لم يبلغنى أن هذا الخطاب قد وصلهم، لكن لدى من الدلائل التى تؤكد لى استلامهم له، علما بأن هناك رسائل تسلموها من جهات أخرى تؤيد رأيى.

استجابة لطلب رئيس جامعة القاهرة دعت الكليات الملكية جمعية أطباء وجراحى الشرق الأوسط للتشاور معهم فى شأن الاعتراف بكلية الطب بجامعة فاروق بالإسكندرية.

فى الواقع فإن الطلب لم تقدمه جامعة القاهرة، لكن أصدره مجلس الوزراء المصرى. بذلك اصطبغ الأمر كله بالصبغة السياسية، وكما هو الحال بالنسبة للماء والزيت، فإن السياسة والطب لا يمتزجان مع بعضهما البعض.

فى نهاية مايو ١٩٤٣، طلب عميد كلية طب القاهرة من أستاذى الفسيولوجى والتشريح أن يصاحبا المستشارين الطبيين الإنجليزيين اللذين عُينا لتقديم تقرير للكليات الملكية ويعملان بالجيش البريطانى فى مصر، إلا أن كليهما رفض تلك المهمة. قالا أنها تستلزم أستاذا فى الطب الاكلينيكى وآخر فى الجراحة. لكن السلطات رفضت إقرار هذا الاقتراح، لذلك سافر حضرات السادة المستشارين الإنجليز إلى الإسكندرية وليس بصحبتهما أحد !

بمجرد وصولهم، دُبر لهم جولة متقنة نظمها سيادة رئيس جامعة القاهرة وعدد من المسئولين هناك، زارا فيها

المستشفى وكلية الطب فى صباحين متتاليين، وقضيا حوالى خمس عشرة دقيقة فى كل قسم ولم يكن موسم الامتحانات قد بدأ بعد. فى نهاية الزيارة، سئلا عما إذا كانا مستعدين للتوصية بالاعتراف بكلية طب الإسكندرية، فأجابا بكل حرص ووقار أن الأمر ليس بيديهما بل يرجع للمسئولين بالكليات الملكية البريطانية. كان اعتراضهما الوحيد هو عدم تواجد مكتبة طبية تابعة للكلية.

من المدهش حقا أن يكلف بهذه المهمة الخطيرة سيدان مشغولان بالحرب، لا شك أن هذه المهمة سببت لهما انزعاجا شديدا.

لأسابيع عدة قبل التفتيش، أُفرغت معامل كلية طب القاهرة من مهماتها ومحاليلها ومجاهرها وأنابيب اختباراتها.. الخ، مما سبب ضررا بالغا لطلبة هذه الكلية، وأُرسلت هذه المهمات على عجل إلى الإسكندرية كإعارة حتى ينتهى التفتيش. مع ذلك فقد خصص ١٣ ميكروسكوبا لاستعمال ٧٠ طالبا يدرسون الفسيولوجى، أى بمعدل خمسة طلاب لكل جهاز واحد - هذا وضع مستحيل من وجهة نظر أى تعليم بدائى. طلبة السنة الرابعة الذين نقلوا من كلية طب القاهرة إلى الإسكندرية اشتكوا بكل مرارة وعبروا عن حاجتهم للتعلم والدراسة، وتذمروا من إهمال أساتذة كلية طب

الإسكندرية لواجباتهم المهنية وعدم انتظامهم.

أما عن المستشفى فهى تماثل ما يحدث بالقاهرة، حيث يستولى التمورجية على الرشاوى باليمين واليسار، علما بأن ما يتقاضاه الفرد منهم لا يتجاوز الجنيهين شهريا. إلا أن المظهر الخارجي لكلية طب الإسكندرية يعتبر جيدا والمبنى يعتبر نظيفا بالرغم من قدمه (١٨٣٠) بالمقارنة بالقصر العينى، ربما لقربه من البحر.

حدثت حالة عامة من التذمر من الأطباء المحاضرين الذين نقلوا من القاهرة إلى الإسكندرية، وتجمعت خطابات عديدة أمام العميد تشكو من غلاء المعيشة فى الإسكندرية التى تزيد بمقدار ٥٠٪ بالمقارنة بالقاهرة. قالوا أن المحسوبية متفشية، والترقيات تجرى بالواسطة، فالبعض ترقى من الدرجة الثالثة إلى الأولى فى خطوة واحدة، بينما ظل الآخرون كما هم. على الرغم من أنهم جميعا تلقوا تأكيدات مغلظة بإنصافهم قبل نقلهم من القاهرة إلى الإسكندرية، إلا أن الأمر العجيب هو أن عددا كبيرا منهم خُفضت درجاتهم. لكل هذا، طلبوا جميعا إعادتهم للقاهرة، وتقابلوا مع رئيس جامعة الإسكندرية، الكفيف طه حسين، الذى قال لهم، "فى القصر العينى يوجد أستاذ ممتاز هو الدكتور ألبورت الإنجليزى، الذى فضح فى تقرير مكتوب الحالة السيئة لمستشفى القصر العينى، وقدم

استقالته احتجاجا على ذلك.. وأنتم أيها الشباب، أتريدون أن أعيدكم لمثل هذا المكان الفظيع ؟"، ولم يسمح بإعادة أى أحد منهم.

بالرغم من نقص الأجهزة التعليمية، فإن الأساتذة المحاضرين بالإسكندرية - مع استثناءات قليلة- كانت تنقصهم الخبرة. الخطأ هنا هو أنه ليس كل من حصل على الدكتوراه قادر على تدريس الطب.

هذا الأمر يذكرنى بقصة تلك الفرقة الموسيقية الريفية الحديثة التكوين، التى كان لديها كل ما هو ضرورى، ما عدا قائد الاوركسترا، لذا تطوعت سيادة زوجة العمدة فى احتلال هذا المركز، لكن أعضاء الفرقة احتجوا قائلين، "لكنك لا تعرفين شيئا عن الموسيقى، فردت السيدة المبجلة، "إن الأمر فى منتهى البساطة، ليس على الإنسان سوى أن يعتلى على صندوق أمامكم ويحرك عصاه هنا وهناك !"

الوضع فى كلية طب الإسكندرية مماثل لما حدث فى تلك القصة، فبعض من طاقم التدريس بها ليسوا فقط غير مؤهلين لعملية التدريس، لكن أيضا لا يحوزون على الشهادات الأكاديمية المناسبة للمراكز التى شغلوها. أستاذ الأدوية المساعد ليس حاصلا سوى على شهادة البكالوريوس بالإضافة إلى دبلوم تخصص فى الأمراض العقلية. كان قد

قضى جزءاً من وقته كطبيب فى مصحة نفسية، وباقى وقته كطبيب ملازم للنحاس باشا وأسرته. هذا الأخير هو الذى عينه فى تلك الوظيفة وهو نادرا ما يتواجد بالإسكندرية، لأنه دائما فى معية الزعيم الوفدى بالقاهرة.

إننى أعجز عن فهم مطالبة جامعة ما الاعتراف بها من قبل الكليات الملكية البريطانية، ثم تعين طاقم تدريسها بهذا الأسلوب. هناك قصة تدور على كل الألسنة، فحواها أن أحد الباشاوات اعترض على تعيين هذا الطبيب للتدريس بالجامعة، لكن النحاس باشا أفحم الجميع عندما قال، "هذا الطبيب ممتاز، يكفى أنه يرعى صحتنا شخصيا، لذا هو جدير بذاك المنصب !"

رئيس الجامعة أيضا مناصر لهذا الاتجاه، فى حفلة شاى قال: إنه فخور بطاقم التدريس بكلية طب الإسكندرية، ثم أضاف قائلا، "إنهم مناسبون للتدريس حتى فى جامعة كامبردج !"، وهذا بالطبع ملأ قلوب الأساتذة الصغار بكل الفخار، لا سيما لمن ذهب منهم إلى انجلترا.

على الرغم من أننى حاولت كل جهدى لأن أظهر الحقائق امام مسئولى الكليات الملكية، إلا أنهم منحوا جامعة فاروق اعترافا كاملا بها !

يصعب أن يتهمنى أحد بالتحامل والتجنى، فإن

شاغلي الأوحد هو مصلحة المرضى والطلاب. للأسف، لم يلتفت إلى ما قدمته أنا وزملائي الإنجليز من اعتراضات للكليات الملكية على الرغم من أننا أجدر الناس بتقديم تقييم سليم للموقف.. وأقولها صريحة هنا: إن السياسة العامة للكليات الملكية -للأسف الشديد- خاطئة على طول الخط.

لكن لماذا تحرص الجامعات المصرية على الحصول على اعتراف الكليات الملكية؟ إنه ليس فقط للحصول على التميز العلمى والحصول على الأنواع المختلفة من درجات الزمالة، لكن أيضا لتدعيم النظرة إليهم فى أعين رعايا الدول العربية الأخرى، فالكليات الملكية لا تعطى هذا الامتياز للجامعات فى دمشق أو بيروت لأنهم لا يرتقون إلى المستوى الذى تشترطه الكليات الملكية، على الرغم من أنهم فى الواقع، وسيظلون لسنوات عديدة قادمة. أفضل من الناحية الأكاديمية من كلية طب الإسكندرية.

□□□

الفصل التاسع عشر
فضيحة تبادل الكراسى

كان الإنشاء المبتور لجامعة فاروق الأول بالإسكندرية انعكاساً خطيراً ومؤسفاً على طاقم التدريس بجامعة فؤاد الأول بالقاهرة.

تحقيقا لإمداد جامعة الإسكندرية بطاقم التدريس، أصدرت حكومة الوفد قانونا يتيح لها أن تنقل بعض أعضاء هيئة التدريس من جامعة القاهرة إلى الإسكندرية، بدون حتى موافقتهم أو العمل على إنصافهم.

لذا فإن أى أستاذ فى الطب أو القانون ومقر إقامته الدائم هو القاهرة وله باع طويل فى مجال تخصصه، يمكن أن ينقل بأمر الحكومة فى لحظة، وبدون أى إنذار سابق.

هذا القانون يعتبر من أكثر الأمور ظلما، لأنه دهس تحت رجليه الكثير من الأبرياء، هو وضع أعناق أساتذة فى تخصصاتهم تحت أقدام الحكوميين ذوى الشخصيات المهترئة. كان وما زال، ليس سوى تحقير وازدراء وفضيحة للقانون والإنصاف.

كان أول ضحايا هذا القانون، هو الأستاذ على بدوى عميد كلية الحقوق بجامعة فؤاد، وهو الذى رفض أن يلتحق بكليته أكثر من ٢٥٠ طالبا، لأنه كان مقتنعا بصعوبة تدريس

المواد القانونية لأكثر من هذا العدد بالإمكانيات المتاحة تحت يديه. لذا كان قرار نقله بمثابة عزله من مركزه السامى، الأدهى من ذلك أنه نقل كأستاذ عادى فى القانون بجامعة الإسكندرية. لأنه تجرأ أن يعارض رغبات جامعته وحكومته مناصرا لعوامل الكفاءة التى تقف شامخة، تبغى مصلحة طلبته وتحافظ على سمعة المهنة القانونية، وقُعت عليه تلك العقوبة الشنعاء. بسبب كل تلك الظروف الغريبة لم يجد الرجل بدا من تقديم استقالته والدخول إلى مجال العمل الحر ويعمل كمحامى.

لذا خسرت الجامعة رجل مبادئ. بسبب هذا القانون أيضا استقال خمسة من المدرسين الصغار بكلية حقوق القاهرة، لكن المسئولين استطاعوا إقناع هؤلاء بالرجوع عن قرارهم، ما عدا الدكتور محمد هاشم، وهو ابن زوجة سرى باشا رئيس الوزراء السابق. هو شاب نابه ويعتبر موسرا، لذا أصر على الاستقالة ويعمل الآن كمحامى حر بالقاهرة.

فى ظل هذا القانون، وفيما يختص بالأطباء، فإنه أصبح ممكنا لأى وزير أو عضو فى مجلس إدارة جامعة فؤاد أن يعين طبيبا صديقا أو قريبا له كأستاذ للطب فى جامعة القاهرة ببساطة متناهية، ذلك بدفع الوزير المختص بنقل أستاذ من القاهرة إلى الإسكندرية أو العكس. الضحية

سيضطر إلى الإذعان أو أن يستقيل من منصبه.

حديثا أُنشئ كرسى طبى فى الإسكندرية لمصلحة طبيب معين، هو صديق لعائلة زعيم الوفد. فى تصويتين متتاليين رفض مجلس كلية طب الإسكندرية إنشاء هذا الكرسى، لأنهم أدركوا أنه أنشئ فقط لأغراض سياسية ولم يرغبوا بأن يُزج بهم فى هذا المعترك. مع ذلك، فقد أنشئ هذا الكرسى وبالطبع سينقل إلى جامعة القاهرة مشغولا بهذا الطبيب، إلا أن مجلس كلية طب القاهرة ثار على هذا الوضع، وكنت قائدا لهم وعقدت اجتماعات عديدة، إلا أن العميد رفض أولا أن تعقد هذه الاجتماعات، قائلا إنه يتعذر ذلك بدون استئذان السكرتير العام لوزارة المعارف، الذى ليس له أى شأن أو صفة لنعقد اجتماعاتنا.. فى النهاية تقدمنا بالتماس كتبته أنا وأرسلناه إلى مجلس الجامعة، فيه أوضحنا أن هذا القانون لا يحقق أى ضمانة لأى عضو فى هيئة تدريس الجامعات المصرية، وطالبنا أن لا يُنقل أى زميل بدون موافقته الشخصية وكذلك موافقة مجلس الكلية، على أن يعلن عن أى وظيفة شاغرة لأستاذ كرسى، وأن يقوم مجلس الكلية بفحص مؤهلات المتقدمين جيدا ويفاضل بين المرشحين ثم يتم اختيار أفضلهم لشغل الوظيفة. وقع على هذا الالتماس ستة عشر أستاذا من الأطباء والجراحين، بالطبع كان مصير هذا

الالتماس دهاليز الأرشيف كما هى العادة فى مصر وحتى غادرتها نهائيا.

جرت محاولة منذ تسعة أشهر خلت لمصلحة نفس الطبيب السابق الإشارة إليه، وذلك قبل صدور قانون تبادل الكراسى. فى هذا الوقت حاولوا تعيينه مباشرة لشغل كرسى بجامعة القاهرة، لكننا تقدمنا باحتجاجات عاصفة واستنكرنا أن يتم هذا الأمر بذلك الشكل، فكيف يتم شغل وظيفة لم يتم الإعلان عنها ولأغراض سياسية بحتة. وتكون وفد من الأطباء توجهوا لمقابلة العميد. كنت حينذاك للأسف مريضا، لكنى تحاملت على نفسى وكتبت خطابا أطلب فيه من العميد أن يرفعها لمقام السيد رئيس الجامعة. فى هذا الخطاب، أوضحت الأمور قائلا، "لقد ارتفع مستوى كلية طب القاهرة فى السنوات القليلة الماضية، ولكى تحتفظ الكلية بهذه الرفعة، يجب أن تحصل على أفضل الأساتذة" والتمست من رئيس الجامعة أن يبذل أقصى جهوده لمنع كارثة ستحل على كلية الطب، مع ضرورة استثنائها من تعيين أساتذة أقل كثيرا فى المستوى العلمى".

كان الوفد الذى ترأسه عزمى باشا يجمع ضمنه الدكتور أنيس سلامه والدكتور محمد إبراهيم وهم جميعا من أرقى وأقدر الأساتذة فى تخصصاتهم. قام الدكتور عزمى بتسليم

رئيس الجامعة الخطاب الذى كتبته، لكن سيادته لم يكلف خاطره بفض الخطاب بل أعاده للدكتور عزمى بدون حتى النظر فيه، ثم وجه نظرات نارية إلى باقى أعضاء الوفد. أخبرني أحدهم بأنه عامل الوفد كأنهم حفنة من الصبية الصغار، وقد تجرأ الدكتور أنيس وجابهه قائلا بأنه سيتقدم باستقالته إذا تم هذا التعيين، فكان رد معاليه هو أنه يرحب باستقالته وليس لديه أى مانع من قبولها، وصرف الوفد من معيته كأنهم مطرودون.

لكن تعيين هذا الطبيب الذى قوبل بكل أنوا ع الاحتجاجات السابق ذكرها لم يتم تعيينه، وانتظر رئيس الجامعة فرصة أخرى مواتية، وقد حانت بصدور قانون تبادل الكراسى العجيب.

الخاصية المدهشة - وهى خاصية إنسانية فى المقام الأول- تتبدى وتظهر عندما يجد الأساتذة المصريون أن مصالحهم الشخصية فى خطر، هنا يناصروننى تماما ويتحمسون لدفاعاتى، لكن عندما يختص الأمر بمصلحة الطلبة والمستشفيات، فإنى أفتقد هذا الحماس.. ما عدا عزمى باشا.

□□□

الفصل العشرون
نساء مصر

"الجنة تحت أقدام الأمهات"، هذا قول بليغ لنبى الإسلام. مع ذلك، فإن واقع النساء المصريات يشى بعكس ذلك القول، فالمسلم يستطيع أن يلقى بزوجته عرض الشارع بسهولة كأنما هى قفاز عتيق، وقد قال لى أحد القادة الإنجليز أن سايس مصرى يعمل عنده تزوج وطلق أكثر من إحدى عشرة مرة فى ظرف سنتين فقط.

إن الزائر الأجنبى لمصر الذى يُصدم من مناظر القذارة التى ترتع فيها المدن الكبرى، سوف يشاهد نساء بائسات يزرعن الشوارع، وصبية صغار يمدون أيديهم طالبين الصدقة. مع ذلك، فإن العديد من هؤلاء النسوة والأطفال قليلى الحظ كانوا ضحية للظروف والملابسات، أيضا لسوء فهم المصرى لمعنى الجنة التى أشار إليها نبيهم الكريم.

كثير من البائسات تخلص منهن أزواجهن وطردوا بدون أدنى إنصاف ليمتهنَّ حياة قلقة عمادها قد يكون البغاء أو التسول أو السرقة، وكثيرا منهن قد يفضلن الانتحار.

فى سنة ١٩٤٢ كان عدد الزيجات التى عقدت ٢٢٦٥٧٦ زيجة بينما كانت حالات الطلاق ٦٨٠٥٥ حالة، وقد عبرت

الشاعرة فيليس طلعت عن هذا الأمر بقولها، "الإحصاءات تشير إلى تواجد ٦٣٠٠٠ طفل ملقى فى الشوارع، ينشب المرض فى أجسادهم الغضة ويحولهم فى الواقع إلى مجرمين قساة القلوب."

لسنوات دُرب صبية الشوارع هؤلاء ليكونوا نشالين، ومنذ سنوات قليلة سررت للكشف الذى أعلن عنه البوليس - لأنه ذكرنى بالطريقة المتبعة فى التدريس التى ينتهجها صغار المدرسين بجامعة فؤاد الأول - فقد عثر البوليس على مدرسة نظامية لتدريس طرق النشل. فى حجرة تدريس النشل وُجدت سبورة رُسم عليها بعض التخطيطات التى توضح كيفية نشل الجيوب بطريقة علمية، مشابهين فى ذلك ما كان يُرسم على السبورات المنتشرة فى عنابر مستشفيات جامعة القاهرة، موضحًا فيها كيف يتسمع طلبة الطب على النبضات المختلفة للقلب، أو كيفية الخبط على الصدر لفحص الرئة !

فى سنة ١٩٤٠، قُبض على ٢٤٠ نشالا وأرسلوهم لأماكن عزل مختلفة ليقضوا فيها الثلاثة أيام الخاصة بعيد الأضحى، ودائما فى المناسبات العامة المماثلة عندما تزدحم القاهرة بالفلاحين الذين حضروا من كافة أنحاء مصر يتخذ البوليس مثل تلك الإجراءات التعسفية.

معظم النشالين امتهنوا عملهم هذا عندما ألقى الأزواج

بأمـهاتهم عـرض الشـارع لتـحل مـحلهن زوجـات أصـغـر سنا وأجـمل. هؤلاء النشـالون يشـعـرون دائمـا بالعـزة والفـخـار بمهنتـهم تلك. من المعروف أنه عندما عاد المرحوم سعد زغلول باشـا من نفـيه، أرسل نشـالو القـاهرة بيـانا للصـحف مفـاده أنهم، "لن يمارسـوا مـهنتـهم فـى يوم عـودة زعـيمـهم الوفـدى عرفـانا وتقـديرا لما أداه لبـلادهم من خدمـات جليلة !". أيضـا ذكـرت جـريدة (الإجـبـشـيـان مـيل) أن هـناك خطاب مماثل أرسلتـه نقـابة النشـالين فـى مناسبـة زواج الملك فـاروق، وإنـهم وعـدوا بأن يمتنعـوا عن عـملـهم لمدة ثلاثة أيام احـتـفـالا بزواج مليكهم المحبوب. ونشـرت جـريدة الاجبشـيان جـازيت بتـاريخ ٢٧ نوفـمـبـر ١٩٣٩ مـا يفـيـد أن بوليس القـاهرة قـبض على عصابة خطيرة من النشالين تخـصصت فى خطف الأطفال من القرى وتدريبهم ليصبحْوا نشالين محترفين. كشفت التحقيقات أن هؤلاء الأطفـال كـان يبـيعـهم نشـال كبـير إلى آخـر، هؤلاء الضـحايا لا يعرفون ذويهم لأنهم اختطفوا وهـم فـى سن الثـالثة أو الرابعة من العمر، وقـد أُعطيت لهم دروس مكثـفة فى طرق النشـل، ومن يفـشل منـهم يعـاقب بقـسـوة ويحـرم من الطعـام لفترات طويلة.

مـسـألة الأطفـال ذوى المنبت الفـقـيـر ذات شـأن خطيـر ومـأسـاوى وتدعـو للاهـتـمـام بمعـالجـتـهـا، وقـد علمت أن هنـاك

مشروع قانون سيطرح أمام البرلمان المصرى يدعو إلى امتناع المصرى المسلم من طلاق زوجته أو الزواج من امرأة أخرى إلا أمام محكمة مختصة. إن هذا القانون - حسب ما ارتآه شيخ الأزهر السابق وكذلك مفتى الديار - هو تمثيل صادق لروح الإسلام. إذا نُفذ هذا القانون بحذافيره فإنه سيكون هدية عظمى للأطفال والزوجات المصريات، وسيكون عونا مفيدا لأى وزير للشئون الاجتماعية يكون فى السلطة حين صدوره، وكذلك لرؤساء الدين الإسلامي المناصرين له، ليس هناك قانون مهما كان قوته بقادر أن يحسن أحوال المرأة المصرية دون تعليم الرجال كيفية احترام الزوجة لشخصها ولكونها امرأة.

التعدى الوحشى الذى أحدثه اثنان من صغار الأطباء اللذين يعملان فى مستشفى القصر العينى لاثنتين من الممرضات خير شاهد على إساءة معاملة المرأة. أحدهما ضرب ممرضة بقبضة يده على وجهها وقطع شفتها، والثانى رفس ممرضة أخرى فى بطنها، شعرت بعده بألم شديد استدعى تدخلا جراحيا ويعتقد أنه تسبب فى إلحاق ضرر بالغ بأمعائها. عندما أُوقف هذا الطبيب عن العمل قام الثمانون طبيبا المقيمون بالمستشفى بإضراب ومظاهرة نصرة لزميلهم. لو كنت من رؤسائه، لنصحت بأن يُوضع فى جوال

تُغلق فــوهتــه جــيــدا، ويُلقى به فى النيل لنرى هل يمكنه السباحة، ويا حبذا لو لم يستطع.

إلحاقا لنفس الموضوع، كتب رئيس الجامعة السير على إبراهيم باشا، زميل الكليات الملكية البريطانية (درجة فخرية) فى مجال هجومه على تلك العبارة الغريبة، "..لا يكفى سوى أن نشنق الرجل المصرى الفقير أمام العامة تطبيقا لأوامر عميد كلية الطب وتحكمات الدكتور ألبورت، حتى يقتنع الأخير بأن مصر تستأهل خدماته الجليلة !"

إننى أتعجب، لماذا ذكر "الرجل الفقير" ؟ لماذا لا تكون "المرأة الفقيرة" ؟ على كل حال فإن المرأة هى التى تلقت ركلة شديدة فى بطنها.

لا يجب الظن أن الرجل الفقير هو فقط الذى يستحسن الزواج من أكثر من واحدة، فالطبقة العليا أيضا منغمسة فى هذا الوضع، لكنهم لا يعاملون زوجاتهم بقسوة الفقراء، وقد ذكر أحد اللوردات الذين عاشوا فى مصر أنه عرف أحد الباشاوات الذى اضطر أن يحضر جنازة زوجته الأولى التى اقترن بها منذ أربعين عاما، التى كان مجرد تواجدها على قيد الحياة، يمثل ذكرى خافتة فى مخيلته. سمعت عن مصرى آخر غنى، بنى لزوجته الأولى الدور الأول فى مبنى شيده من أجلها، وعندما تزوج بالثانية، بنى دورا ثانيا ونقل إليه زوجته

الأولى. فى نهاية الأمر أصبحت زوجته الأولى فى الدور الرابع من المبنى. لحسن الحظ أمر ببناء مصعد تحقيقا لراحته هو بالطبع وهو يتنقل بين زوجاته الأربعة.

أخبرنى أحد نوابى الأوائل، وهو إنسان مرح، أن جده الأكبر كان عمره سنة ١٩٣٩ ، هو ١٢٠عاما، هذا الرجل كان جنديا فى جيش محمد على باشا الذى توفى سنة ١٨٤٩ كان هذا الرجل بصحة جيدة وعلى يسار، وقد أنجب من زوجاته. الأربعة، خمسة وستين ابنا، منهم سبعة وثلاثون من الذكور والباقى إناث. عندما كان يحضر إليه أحد الأبناء أو الأحفاد يقول له: "أنت من فيهم، إبراهيم أم حسن أم محمد؟" وهكذا.

□□□

الفصل الحادى والعشرون

الطبيبات المصريات

منذ بدء الخليقة، أبدى الرجال مظاهر مختلفة للغيرة من النساء، والمعركة التى قادتها الدكتورة إليزابيث جاريت أندرسون فى إنجلترا، وانتصرت فيها على التعصب الأعمى، هو دليل أكيد يؤيد هذا الرأى. هذه الطبيبة هى الوحيدة التى سُمح لها - بعد مقاومة ومعارضة عنيفة - أن تلقى محاضرات فى الطب، ونالت كل الشرف والفخار والتفوق فى كل امتحان صادفته. كان هذا فى نظر الذكور ليس سوى الخطيئة الكبرى. كانت فعلتها هذه فى نظر آبائهم مصدر خطر وخوف على مستقبل أبنائهم. لكن بالرغم من معارضة الأطباء وطلبة الطب لجهودها، فقد حصلت هذه السيدة على تأييد عامة الناس، ولم تحوز فقط على أعظم مظاهر النجاح والتفوق فى مجال عملها كطبيبة، بل كانت أيضا أداة رئيسية فى إنشاء المدرسة الإنجليزية الطبية للنساء، التابعة للمستشفى الملكية الحرة بلندن.

كنت محظوظاً فى أولى خطواتى العملية كطبيب ناشئ فى مستشفى سانت مارى، القائمة فى بادنجتون، أن يكون ضمن طلبتى عدد من النساء. هن كن على مستوى مرتفع من

الذكـاء، لكنهن لم يصلن أبداً إلى المسـتـوى المرتفع الذى لاحظته فى البنات المصريات اللاتى التحقن بقسمى حديثا، ليتخرجن طبيبات فى المستقبل.

بغض النظر عن ظاهرة المسـتـوى المرتفع للذكـاء، فـإن الطبيبات عموماً يتصفن بأنهن ذوات ضمير حى، يخلصن فى العمل ويتفانين فيه أكثر من الرجال، لا سيما فيما يختص بالعمل فى مجال الطب الإكلينيكى، بالأخص فى مصر. هن يعكفن على فحص المرضى بكل عناية فائقة ويكتبن ما توصلن إليه فى مذكرات أمامهن، نتيجة لذلك يتفوقن على الشبان فى امتحانات كلية الطب. على الرغم من كراهية وخوف شباب الأطباء وآبائهم من منافسة النسـاء، ومـهـمـا تعرضن من تعصب أعمى ومعاملة ظالمة، فإنهن مستمرات ولن ينقطعن عن تعلم مهنة الطب والتفوق فيها.

إن تحرير المرأة المصرية من الطبقة المتعلمة، أصبحت حقيقة واقعة، فالنساء اللاتى كن محبوسات فى جناح حريم آبائهنَّ، أصبحن اليوم طبيبات، خاصة فى مجال تخصص طب الأطفال والولادة.

مع ذلك، تواجه نساء مصر مهمة صعبة ليحصلن على المسـاواة فى مـيـدان العـمل مع الرجـال، لأنهن فى الواقع يواجهن نفس الصعوبات والعقبات، كالمؤامرات السياسية

والتحيز والظلم والتفرقة على أسس اجتماعية أو دينية. ابنة الباشا مثلا لها الأفضلية الأولى مقارنة بابنة رجل فقير أو من عائلة متوسطة الحال، مهما كان مستواها العلمى متدنياً.

كنت يوما جالسا فى حجرتى بمستشفى فؤاد الأول فى أوائل سنة ١٩٤٢، عندما حضر إلى ثلاث فتيات يطلبن مشورتى ومساعدتى. اشتكوا إلىَّ أنهن تخرجن حديثا من كلية الطب بتفوق، لكن المسئولين ينكرون عليهن حقوقهن، وأبدين تذمرا مرا ضد رئيس الجامعة، حتى أن إحداهن قالت: "من يكون على إبراهيم باشا هذا ؟ ذلك الذى أخذ على عاتقه تقرير مصير الطبيبات المصريات". أعتقد أن تعبيرها هذا يعتبر جرأة بالغة أن تصدر من فم بنت مصرية.

فى الحقيقة، منذ سنوات قليلة ماضية، قامت أول فتاة تخرجت من كلية الطب، ورُفض طلبها لأن تعين كنائبة فى مستشفى القصر العينى، بإلقاء دواية حبر مملوءة على وجه مساعد مدير المستشفى، كان هذا عملا خارقا تحسد عليه.

هؤلاء الفتيات الثلاث اللامعات كن يتشوقن لتعيينهن نائبات فى المستشفى التعليمى، فالتدريب يؤهلهن للحصول على دبلومات أعلى، وإمكانية الحصول مثلا على درجة الزمالة من الكليات الملكية البريطانية.

كان السجل المشرف للأولى منهن، شىء مدهش، فهى

كبنت صغيرة كان ترتيبها الأول على القطر المصرى فى شهادة الابتدائية من ضمن ١٤٠٠٠ طالب وطالبة تقدموا للامتحان، ثم كان ترتيبها الرابع فى التوجيهية (الثانوية العامة)، وفى سنتها الأولى بكلية الطب حصلت على المركز الأول فى مادة البيولوجى والأول فى الكيمياء والأول فى الطبيعة، ثم تفوقت على الجميع فى مادتى التشريح والفسيولوجى وحصلت على الميدالية الذهبية التى خصصها الدكتور أوريب، علما بأن مستوى المعلومات المطلوب توافرها لنيل تلك الميدالية مرتفع للغاية، لدرجة أنها كانت تحجب لسنوات عديدة متوالية، لأن أحدهم لم يتمكن من اجتياز اختباراتها. فى الامتحان النهائى للحصول على درجة البكالوريوس فى الطب، كان ترتيبها السادس، وهو ترتيب متأخر. سبب ذلك أمر مثير للغاية، هو سبب أكاديمى بحت كان واجباً علّى ألا أذيعه، لكن الحقيقة ستظل دائما هى الحقيقة. قُدّم لهذه الآنسة فى الامتحان العملى حالة مرضية لتفحصها أمام اثنين من الأساتذة الممتحنين، بعد قيامها بفحص المريض أخبرتهما بأنهما مخطئان فى تشخيصهما بالنسبة لصوت معين استرعى انتباهها وهى تفحص الحالة، ما قالته لهم حرفيا هو: "يا الله العظيم، هل تريدان أن تقولا لى إنكما لا تستمعا لهذا اللغط فى قلب المريض ؟" .. كان هذا هو الخطأ الشنيع الذى ارتكبته، فالممتحنين عامة لا

يخطئون أبدا، ومن جهة أخرى، هم لا يحبذون من يناقشهم ويجادلهم. كان من نتيجة هذا التصرف الأهوج من جانبها أن خسفا بها الأرض، أعطوها درجات كفيلة بزحزحتها من المركز الأول الذى اعتادت عليه، لتستقر فى المركز السادس وقد أصابتها ضربة قاضية.

بمحض الصدفة كان أحد الأخصائيين حاضرا الامتحان، كان يعرف الحالة جيدا لأنها صادرة من قسمه. بعد انتهاء الامتحان أخبرنى عما جرى وسألنى أن أفحص الحالة بنفسى، لم يكن هناك أدنى شك أن الفتاة كانت على حق، لكننى كما قلت سابقا، سواء أكانت على صواب أم خطأ، فإن الممتحن دائما على صواب، ويجب على كل الطلبة أن يدركوا ذلك جيدا.

أما سجل الفتاة الثانية فكان أيضا مشرفا، إذ حصلت على الترتيب الثالث فى البكالوريوس، متفوقة بذلك على زميلتها العبقرية.

أما عن الفتاة الثالثة، فإنها لم توفق فى الامتحان الشفهى، فقد سُئلت عن جرعة الاستركنين المناسبة، فقالت إنها تسعة وحدات (GRAINS)، أكثر من ذلك، ولأنها امرأة، فقد تشبثت برأيها هذا، فحضر إلىَّ الممتحن المرتعب واقترح أن ترسب فى الامتحان، لكنى اقترحت عليه أن يعطيها صفرا

فى امتحان الشفهى مما يكفل أن يصيبها بصدمة عندما تدرك الخطأ الفظيع الذى ارتكبته. هو عقاب كافٍ ستتذكره طوال حياتها. ومع ذلك، فقد نجحت هذه الفتاة وحصلت على البكالوريوس، كيف ؟ لا أدرى.

بناء على التماس الفتيات الثلاث، تقدمت إلى مجلس كلية الطب، بطلب أذكر فيه أنه من الضرورى بحث تعيين الطبيبات كنائبات فى المستشفى التعليمى إسوة بالشباب. وفى اقتراعين متتاليين لمجلس الكلية. حصل اقتراحى على ١٧ صوت ضد ٢ فقط. هنا أسجل هذا الموقف الشجاع بكل التقدير، مع العلم بأن مدير مستشفى الأطفال التابع للجامعة كان لديه بالفعل عدد من النائبات. لا يوجد فى القانون مواد تمنع حصول الطبيبات على مراكز وظيفية فى المستشفيات الجامعية... لكن وللأسف، اتخذ مجلس الجامعة قرارا تعسفيا ظالما، واستبعدهن تماما كما يفعل الرجل الشرقى عندما يطرد زوجته من جنته بكل استخفاف إذا لم تعد لها فائدة تذكر.

على عهدة الرواة، قيل إن رئيس الجامعة صرح بأنه يمكن للطبيبات أن يحصلن على وظائف نائبات فى المستشفيات الجامعية بعد وفاته مباشرة، ثم أضاف بأنه يمكن التحاقهن بمستشفى كتشنر ذات المائة وخمسين سريرا، وهى مستشفى

متخمة بأطبائها ولا تعتبر من المستشفيات التعليمية المؤثرة، قال أيضا إن مستشفى فؤاد الأول والقصر العينى ليستا مؤهلتين بالتجهيزات اللازمة لاستضافة النائبات من النساء. مع ذلك، فقد أبدى الدكتور شوقي رئيس مستشفى الأطفال القريب، استعداده لاستضافتهن، أيضا هناك أماكن شاغرة فى مكان سكن السسترات بالإضافة إلى المنازل الخاصة القريبة من المستشفيين والمستعدة لتأجير شقق لهن.

العلاج الطبى الناجع يحتاج إلى أفضل نوعية من الأطباء. بالرغم من اعتراضى على تعيين اثنين من الأطباء الذكور، أعلم أنهما ليسا على قدر مناسب من الكفاءة، بينما يوجد أمامى اثنتين من الطبيبات اللاتى أشهد لهن بالتفوق والتميز، وكنت قد طلبتهن بالفعل، لكن بلا جدوى.

بعد يومين فقط من استلام الطبيبين المساعدين العمل فى القسم الذى أشرف عليه، أخطأ أحدهما فى معلومة طبية بدائية كلفتنا حياة مريض. رأيت هذا المريض البائس وهو ينزف دماً من رئتيه فى قسمى، فأسرعت باستدعاء العميد عزمي باشا ليرى بنفسه ما يحدث، أما أنا فقد تملكنى غضب عارم.

كانت الأحوال تسوء يوما بعد يوم فى مستشفى فؤاد الأول، وقد أخبرت عزمي باشا بذلك، ووافقنى على تحليلى

للأمور، لكنه قال بأن الموقف خارج عن سيطرته وأنه موثق اليدين.

في هذه اللحظة أدركت أهمية قيامي بإجراء ما، وأحسست أن هذه الأمور السيئة التى أشاهدها قد تدعونى فى النهاية إلى تقديم استقالتى، على أن أعرض قضيتى أمام الرأى العام. كان هذا الشعور الذى تملكنى مبكرا فى حدود أوائل سنة ١٩٤٢ .

لهذا تقربت من وزير الصحة، وطلبت منه أن يدبر لى مقابلة مع قريبه رئيس الوزراء، فوعدنى، لكنه لم يفى بوعده.

استطعت بعد ذلك أن أقابل مكرم عبيد باشا وزير المالية، وأخبرته أن مستشفى فؤاد الأول فى أسوأ حال، وأن التمورجية يسيئون معاملة المرضى، وأن طاقم التدريس يهملون فى واجباتهم نحو المرضى والطلبة أيضا، وأن إدارة الجامعة تضطهد الطبيبات بسبب جنسهن.. وأبدى تعاطفه معى، لكنه تشاجر بعد وقت قصير مع النحاس باشا وترك الحكومة، فحاولت مرة أخرى أن أقابل النحاس باشا. تقريبا كل أسبوع، كنت ألح على وزير الصحة فى هذا الشأن، لكنه لم يفلح فى ترتيب المقابلة. فى النهاية، سافرت فى إجازة وتركت خطابا لرئيس الوزراء مع قريبه، ولم أسمع عنه شيئا سوى ما نقله إلى وزير الصحة، عندما أنبأنى بأن النحاس

باشا لا يتعاطف مع تعيين نائبات فى المستشفيات التعليمية.

من الواضح أن حزب الوفد يعترض على تعيين الطبيبات ليس لأنهن طبيبات، لكن لأنهن من صنف الحريم. ولم يبذل السادة الوزراء أى جهد لإصلاح ما أشرت إليه من عيوب فى خطاباتى.

نرجع مرة أخرى للفتيات الثلاث، فقد اندهشت لأن الفتاة الثالثة (فتاة الإستركنين) حصلت على وظيفة نائبة فى مستشفى الأطفال التابع للجامعة، أما الطبيبتان النابهتان فقد عينتا فى وزارة الصحة، بذلك قُضى تماما على مستقبل طبيبتين متميزتين كانتا قادرتين بالفعل على نيل دبلومات التخصص بتفوق، بل كانتا قادرتين على الحصول على درجة الزمالة من لندن وتصبحان فى مستقبل أيامهما فخرا لوطنهما.

□□□

الفصل الثانى والعشرون
أحداث متفرقة خاصة بالمستشفى

المستشفيات الجامعية - كما وضحت سابقا - تتميز بأنها تخلق أمورا تخرج عن المألوف، فى هذا الفصل أرغب فى شرح بعض تلك الأمور التى عاصرتها.

أولا هو "يوم المستشفيات" الذى احتفل به فى مصر للمرة الأولى. لسنوات عدة تناقشت مع الدكتور عزمى باشا فى أهمية قيام الطبقة الموسرة بالتبرع لمصلحة المرضى الفقراء. فى أثناء قيامى بإجازة قصيرة فى فلسطين فى صيف عام ١٩٤٣، استجمع سيادة العميد شجاعته ونفذ اقتراحه الخاص بالاحتفال بيوم المستشفيات، كان هذا النشاط هو أفضل ما بلغته حياته المهنية، فقد ظفر هذا اليوم بأحسن النتائج مما لم يكن متوقعا. كان الدكتور عزمى يتوقع حصوله بالأكثر على ألفين من الجنيهات من الجماهير، لكن بعد مرور ثلاثة أيام من الحملة، أرسل له الملك فاروق شيكاً بنكياً قيمته ثلاثة آلاف من الجنيهات، تبعته الملكة الأم نازلى والأميرات بالتبرع بمبلغ ألف وخمسمائة جنيه. كان ما فعلوه هذا مؤشرا بارعا لتحفيز همم أغنياء البلد، فتبرع أحدهم بمبلغ عشرة آلاف من الجنيهات، وتورد وجه الدكتور عزمى واستنار

بسرور بالغ لهذا النجاح المبهر، وارتسمت بسمة عريضة على شفتيه، لكن سرعان ما غاضت هذه الابتسامة عندما استشاط النحاس باشا، الذى كان رئيسا للوزراء حينذاك، قائلا بأن تلك الحملة ما كان يجب أن تثار بدون الحصول على إذنه ومباركته أولا. لكن عزمى باشا، وهو مستشعر بتأييد القصر، رفض أن يسلم القياد، وبادر فى الإنفاق من الرصيد المتجمع فيما استحسنه من أمور بصفته عميدا لكلية الطب. كانت هذه هى المرة الأولى التى يقف فيها فرد من طاقم المستشفى صامدا أمام تحكمات الحكومة ثم ينجح.

مصر هى بلد المتناقضات، فى داخل المستشفيات لا يهتم الأساتذة بالإشراف التعليمى العملى لطلبتهم، بينما يبالغ البعض منهم فى تطويل مقرراتهم. لمدة خمسة شهور من عام ١٩٤٢، جلست ضمن لجنة تبحث فى تحديث المناهج التعليمية. فكل زائر من الكليات الملكية، يلفت النظر إلى ذاك الكم الهائل من المحاضرات التى لا لزوم لها، التى تلقى على عاتق الطلبة لاستيعابها وهضمها. هذا وقد اشتكى لى عديد من الطلبة من ذلك الجهد المضنى بدنيا ونفسيا وهم يلهثون وراء الأساتذة من محاضرة إلى أخرى، وصرحوا أنهم يفتقدون الوقت الكافى للقيام بواجباتهم الأساسية فى أجنحة المستشفى.

أستاذ الصحة العامة، هو فى نفس الوقت وزير الصحة، وافق على تقليص محاضراته، لكن أستاذىّ الطفيليات والبكتريا ركبا رأسيهما وهاجما اللجنة بعنف وضراوة كأنهما أسدان جريحان. إجمالى عدد المحاضرات التى يتمسك بها هذان الأستاذان تتكون من ٥٠ محاضرة بالإضافة إلى ١٠٠ درس عملى. فى الواقع هذه المحاضرات لا تهم سوى الخريجين الذين يدرسون لنوال درجة الدبلوم، لكن لا يعتبر لازما أو منصفا أن تلقى على عاتق طلبة السنة النهائية، الذين يجب أن يحاطوا بالطب بشكل شامل. فى الاجتماع الأخير للتطوير، وصلت الأمور إلى طريق مسدود، حيث تشبث أستاذ الطفيليات بموقفه فى عناد غريب، وأخذ يلوح بيديه ويزعق حتى ظن القائمون خارج القاعة أن هناك معركة قائمة بين المجتمعين، ثم فجأة ازرقّ وجهه حتى خشينا أن يتعرض لأزمة قلبية. حاول عزمى باشا تهدئته بكل الوسائل لكن بدون فائدة. فى نهاية الأمر اندفع خارجا وهو يهدد بتقديم استقالته.

بغض النظر عن هذه المعارضات اللامعقولة، فإن اللجنة نجحت فى إقرار مشروع لتطوير المناهج، لو تم فعلا تنفيذه لارتفعت كفاءة التعليم الطبى فى مصر لدرجات عليا، ولكن غُض النظر عنه وذلك بأوامر صريحة من مجلس إدارة الجامعة، غالبا تم هذا نتيجة لمساعى الأستاذين الغاضبين..

أثر ذلك تقدم عزمى باشا باستقالته من عمادة كلية الطب، لكن الجامعة رفضت قبولها، وبعد عدة شهور معدودة عاد مرة أخرى لمنصبه.

هناك لجنة أخرى استهلكت من جهدى وعرقى الكثير. كان هدفها هو تنظيم واجبات طاقم التدريس، وكان مصير التقرير النهائى لتلك اللجنة كالمعتاد: إلى سلة المهملات .

هناك أمر آخر يسبب أقصى درجات الضرر للطلبة والمرضى على السواء، هو كثرة أيام العطلات والإجازات الرسمية، وقد علمت أنه أثر نشر خطابى المفتوح ستقوم الحكومة بتقليص عدد أيام الإجازات.

ربما تدهش عندما نستعرض سويا تلك الأعياد الرسمية التى ستتعطل فيها الأعمال والدراسة خلال عام ١٩٤٢ وهى:

٧ يناير: يوم وقفة عيد الأضحى

من ٨-١١ يناير: عيد الأضحى

٢٨ يناير: عيد بدء السنة الهجرية

١١ فبراير: عيد ميلاد الملك

أحد أيام شهر فبراير: عودة المحمل

١٥ مارس: الاحتفال بيوم الدستور

٩ أبريل: عيد مولد النبى

٢١ أبريل: عيد شم النسيم
٦ مايو: عيد جلوس الملك
أحد أيام شهر أغسطس: الاحتفال بمناسبة فيضان النيل
٢٠ أكتوبر: اليوم السابق لعيد رمضان
٢١-٢٣ أكتوبر: عيد رمضان
١٣ نوفمبر: العيد القومى للثورة الشعبية " عيد الجهاد
أحد أيام شهر ديسمبر: سفر المحمل

هذا بالإضافة إلى عشرة أيام خلال شهرى ديسمبر ويناير، هى عطلة إجازة نصف السنة الدراسية، بالإضافة إلى الاحتفالات الخاصة المتعددة.

منذ عامين سابقين تقدمت باقتراح لمجلس الكلية لاختصار عدد أيام هذه الاحتفالات، وعُقدت كالمعتاد لجنة للدراسة، ثم اقترحت اللجنة أن تخفض الأيام العشرة التى تمنح خلال منتصف العام الدراسى !

الأحداث التى تمس المستشفيات وتؤثر على مصلحة المرضى تأثيرا مباشرا، تعتبر أكثر خطورة مما يحدث داخل مجلس الكلية، فبالرغم من أن المستشفيات الجامعية تعتبر إنجليزية المنبت، إلا أن المصريين اتبعوا النظم الأوروبية فى علاج المرضى.

فالمريض المصرى يتصور المستشفى كأنها المكان المعد

خصيصا ليتلقى فيها الحقن، لا يهتم أبدا بنوعيتها كأنما هو مخدة للإبر. الاهتمام الحُقنى هذا راجع إلى أن المؤسسات الكيماوية الفرنسية والألمانية والأوروبية الأخرى استغلت هذا البلد وتكالبت بالانتفاع بمعتقدات شعبها المؤصلة.

ما أن يظهر فى السوق مركب دوائى، جديد حتى تسارع تلك الشركات الأوروبية فى إعطائه اسما تجاريا مختلفا، وتوزعه فى السوق المصرى بأسعار مخفضة لا تستطيع أى مؤسسة إنجليزية مجاراتها فيه.

هناك مصل ظهر حديثا فى الأسواق تبيعه شركة باركس دافيز ب ٨٠ قرشا، وتسوقه شركة باروز ويلكوم بمبلغ ٧٥ قرشا، بينما تعرضه شركة باير الألمانية بمبلغ ١٠ قروش، ويزيد ببضعة قروش قليلة عندما تعرضه شركة باستير الفرنسية. وقد طلبت من صيدلى المستشفى أن يكتب للمؤسسات الدوائية الإنجليزية عن هذا الموضوع، فأجابوا بأنهم لا يستطيعون أبدا بيع منتج فعال.. ويعول عليه بسعر يقل عن ٧٠ قرشا. لكل هذا قبلت الحكومة المصرية عرض شركة باير.

بسبب استغلال الشركات الدوائية الأوروبية، أصبح الأطباء المصريون الممارسون ليسوا سوى "أصحاب السرنجة الواحدة والحقنة"، وأصبح محصولهم الطبى محصورا فى

نشرات تلك الشركات فقط، لذا أهملوا تماما الوصفات الطبية التى تعلموها فى الكلية. أصبحت زجاجة الدواء التى يتعاطى منها المريض جرعات مقننة ثلاث مرات يوميا، بعد رجها جيدا وتدوم خمسة أيام وتكلف المريض ١٥ قرشا، تستبدل بحقنتين يوميا بها نفس المادة، سعر الحقنة الواحدة عشرة قروش. لكن الطبيب يقتضى من المريض أجر الكشف بالإضافة إلى أجر ضرب الحقن، مما يجعل الطبيب صاعدا بأقصى سرعة سلم الرخاء والثروة.

مع ذلك، هناك أمر مثير حدث بعد بداية الحرب مباشرة أثَّر على هذا الاتجاه الحقنى، وذلك عندما امتنع ورود تلك المواد بسبب القتال، هنا تعرض هؤلاء الأطباء لأزمة حقيقية، فهم كانوا قد نسوا بالفعل معرفتهم بالأدوية والمقدار المناسب لكل جرعة والتى وردت فى الفارماكوبيا، كذلك تاه عن ذاكرتهم فن كتابة الروشتات، لذا اضطروا اضطرارا للرجوع إلى نظام العلاج الحقيقى، لكن بعد عنت شديد.

أثناء إقامتى فى مصر كنت أركز دائما على ضرورة اتباع نظم العلاج الروتينى المعروف، وحاضرت كثيرا فى هذا الشأن، من الطبيعى أن يتواجد عدد من الأدوية يجب أن تعطى على هيئة حقن، لكن أن يتحول النظام العلاجى كله ليصبح حُقناً، هذا شىء غير مقبول ولا منطقى، علاوة على أنه

يكلف الحكومة المصرية والفقراء من المرضى ما لا طاقة لهم به، كل هذا لمجرد أن تمتلئ جيوب مسلهمى شركات الأدوية الأوروبية. للأسف، لاحظت أن الأطباء الشبان على وجه الخصوص مغرمون بالحقن، ولن يترددوا فى وصف العديد منها للمريض الواحد إذا لم يراقبوا جيدا من قبل رؤسائهم.

فى مرات عديدة، كنت أراعى حصر عدد الحقن التى وصفها النواب فى سجل التطور العلاجى للمرضى.

أخيرا، ولكى لا أكون منتقدا على طول الخط للعمل فى المؤسسة التى قضيت فيها ساعات كثيرة هنيئة وسط مساعدىّ وطلبتى ومرضاى، مع ذلك أقرر هنا أن النظام العلاجى فى المستشفيات الجامعية بمصر هو أمر فى غاية الصعوبة مقارنة بما يحدث بمستشفيات إنجلترا.

فى إنجلترا يستطيع المرء أن يعتمد بكل ثقة على معطيات معامل التحاليل، لكن فى مصر يحصل طاقم المستشفيات من الأطباء المعالجين على قدر بسيط من المعاونة من تحليلات المعامل. فى القاهرة اعتمدت أساسا على إجراءات الفحص الإكلينيكى لتشخيص الأمراض، وحاولت قدر جهدى غرس هذا الاتجاه فى وجدان تلاميذى، لكن أقول أيضا إنه بدون معملى الصغير الذى أنشأته فى غرفة جانبية فى القسم الذى كنت مسئولا عنه، لأصبح الوضع غير محتمل ومؤلما للغاية.

عندما كنت أرسل عينة لقسم الباثولوجى، اعتدت أن أقرأ فى تقريرهم عبارات مثل "العينة غير صالحة للتحليل" أو مثلا "المريض الذى أرسلته لفحص العصارة المعدية رفض بلع الخرطوم" وهكذا.

مرة أرسلت حالة لاختبار الدم والسائل النخاعى لمريض يعانى من مرض عصبى، فجاءنى التقرير وبه أن هذا المريض يعانى من مرض السكر، بالرغم من أننى متأكد أن هذا المريض لا يعانى من هذا المرض، وكثير ما صادفنى مثل تلك النوادر الطريفة.

كثير من المرات عندما كنت أستلم تقريرا من معمل الباثولوجى وأجده غير متماش مع ما توصلت إليه من فحص المريض إكلينيكيا، كنت أرسل عينة أخرى لنفس المريض لنفس المعمل، لكن باسم آخر، هنا أحصل على نتيجة مختلفة تماما.

حتى تقارير الكشف بالأشعة السينية لم تكن أحيانا سليمة، ويمكن الاعتماد عليها. فى صباح يوم من الأيام حضر إلىَّ طالب طب ليرانى وهو يرتعش ووجهه شاحب. كان يعانى من كحة شديدة، وكما هى العادة تقدم لعمل أشعة سينية على صدره، فلاحظ أن النتيجة تقول إنه "مريض بالسل وحالته متقدمة". لم يكن لازما منى أن أفحص صدره، لأنه بدا

أمامى شاباً قوياً ضخماً وعلامات الصحة تتدفق داخله، لذا أكدت له أنه غير مريض بهذا المرض اللعين، ثم صاحبته إلى قسم الأشعة وطلبت عمل صورة أخرى له، وبالطبع ظهر أن صدره سليم تماما.

هناك حالة أصعب من ذلك - والتى صاحبتها العناية الإلهية - حيث تواجد فى قسمى مريض آخر يعانى أيضا من كحة، عند فحصه بالسماعة لاحظت الحالة غير الطبيعية لقمة رئته اليسرى، لذا أرسلته للفحص بالأشعة السينية. جاء فى التقرير ما يؤكد أنه "يعانى من ارتشاح بسبب إصابته بالسل فى رئته اليسرى.. أما اليمنى فهى سليمة". من المعروف أن النظام العلاجى لهذه الحالة مؤلم للغاية، لكنى عندما أمسكت بالأشعة فى الضوء وجدت شقا جراحيا فى رئته اليسرى، لكنى كنت متأكدا أن هذا المريض لم تُجرَ له جراحة سابقة، لذلك تيقنت أن هذه الأشعة لا تخصه بالمرة، فى كلا الحالتين كان هناك خطأ فى أسماء من أُخذت لهم الأشعة !

□□□

الفصل الثالث والعشرون
مستشفى حميات العباسية
وعدوى مرض التيفوس

بعيداً عن أحوال المستشفيات الجامعية، نجد أن الحالة المزرية لمستشفى حميات العباسية لا يمكن السكوت عنها بأى حال من الأحوال.

فى نفس الوقت الذى كنت فيه أعد تقريرى عن حالة المستشفيات الجامعية، أخبرتنى إحدى رئيسات الممرضات بمستشفى أوروبى بالقاهرة أن الحالة بمستشفى حميات العباسية أسوأ بكثير إذا قورنت بمستشفيات الدول الأخرى.

فى ذلك الوقت كان وباء التيفوس ناشرا جناحيه، وبدأ تدفق المرضى بالمئات، لكن ثبت أن التجهيزات لمجابهته لم تكن كافية.

قدرة هذه المستشفى ٥٤٩ سريرا، لكن أثناء انتشار وباء التيفوس سنة ١٩٤٣، الذى صاحبه أيضا حالات لمرض الجدرى، ارتفع عدد الحالات التى أُدخلت لتلك المستشفى لتصل إلى ١٦٥٠ مريضا.

فى النصف الأول من السنة كان عدد الإصابات بمرض

التيفوس المبلغ عنها ٣٢٠٠٠ حالة في مصر كلها، وهو ما يمثل ضعف عدد حالات النصف الأول من عام ١٩٤٢، وكان معدل الوفيات في حدود ٣٠٪ من عدد المرضى.

مدير مستشفى الحميات بالعباسية - وكان زميلا لى منذ خمس سنوات فى مستشفى فؤاد الأول - فعل كل ما فى وسعه لتحفيز الحكومة لتحديث مستشفاه ورفع مستواها، ولكن بلا جدوى.

أثناء المراحل الأولى من العدوى لم يتوافر بتلك المستشفى أى تجهيزات مناسبة، لذا اضطروا إلى استحضار أسرَّة من المديريات الأخرى، وعديد منها لا يصلح، لدرجة أنها كانت تتهشم وتتفكك بمجرد نصبها. كان هناك نقص شديد فى الخيام، طاقم العلاج، الممرضات وحتى القلل وأكواب الشرب لم تكن كافية، لذا عانى مرضى أكثر الأمراض وحشية وخطورة، حيث ترتفع درجة الحرارة إلى الذرى، مع عطش شنيع.

كان من المعتاد أن ترى مريضين وقد احتلا سريرا واحدا، أو أن يوضع أربعة مرضى فى سريرين ملتصقين. فى حالة الهذيان التى كانوا يعانون منها، كانوا يصارعون بعضهم البعض. أحد الرجال سقط من السرير ومات فى الحال من أثر الصدمة، آخر دُفع به فوقع على الأرض وجرحت رأسه جرحا بليغا.

هناك حالة سيدة حامل، ودرجة حرارتها لم تكن بالغة الارتفاع، أرسلت من استقبال القصر العينى، وولدت ابنها فى استقبال مستشفى العباسية، وتوفيت فى اليوم التالى.

فى غرفة استقبال الحميات هذه، يتجمع فيها كل من يعانى من حرارة مرتفعة، سواء أكان مريضا بالتيفوس أو الحصبة أو الحمى المعوية، هؤلاء كان عليهم الانتظار طويلا، ما عدا حالات الجدرى التى كانت ترسل فورا للقسم المختص بالمستشفى.

ولتزيد المصائب واحدة، انتشر مرض الجدرى بدءًا من أبريل ١٩٤٣، والتجهيز العاجز واجه هذا المرض الطارئ بنفس الأسلوب المتخلف، لذا اضطروا إلى استضافة اثنين من مرضى الجدرى فى سرير واحد. من الصعب تصور تواجد مريضين بهذا المرض الفظيع وقد غطت وجوههم البثور المتقيحة وقد تشاركا في سرير واحد. على الرغم من أن مصر لم تكن فى حالة حرب حقيقية، إلا أنها سمحت بحدوث مثل تلك الأمور.

تعرض أعضاء لجنة مكافحة مرض التيفوس الأمريكية لصدمة عنيفة عندما شاهدوا بأعينهم ما يحدث فى مستشفى حميات العباسية. كنت على معرفة وصلة بهم، وهم الذين

اقترحوا على أن أشاهد بنفسى ما يجرى فى تلك المستشفى، لذا لم أستطع مقاومة إغراء زيارتها.

من الواضح أن مرض التيفوس من الأمراض المتوطنة فى مصر، ويمكن أن يستدل على ذلك من تلك النسبة المرتفعة من المرضى به ويترددون على مستشفى فؤاد الأول. خطر العدوى لا يتعرض له فقط المخالطون بل أيضا المرضات والتمورجية والحراس والطلبة وسط الآلاف من المترددين الذين يرعى القمل فى أجسادهم وملابسهم. للأسف، فإن معايير مكافحة هذا المرض غير مرعية فى مستشفى فؤاد الأول. كان من الواضح أن هناك إجراءً حاسماً يجب أن يتخذ، ولأننى لم أجد أحداً قد تحرك سواء من الجامعة أو الحكومة، لذا قررت أن أفعل شيئا، لكنى أعترف بأننى فشلت.

لكن ما الذى يمكن أن تتوقعه من حكومة تتسلم من الحكومة الأمريكية هدية عبارة عن كمية من مصل مرض التيفوس للحفاظ على حياة طاقم العلاج والمخالطين، لكن كل ما يصنعونه هو أن يستخدموا الجزء الأكبر من الهدية لتطعيم كبار الموظفين وعائلاتهم، علما بأن فرصة تعرض هؤلاء للمرض تعتبر فى حكم المنعدمة!.

الأدهى من ذلك أن الممارسين فى القاهرة كانوا يستعملون هذا المصل الأمريكى فى عياداتهم الخاصة ويتقاضون ما بين

خـمسـة إلى عـشرة جنيـهات عن الثـلاث حقن الأسبـوعيـة. للأسف، فقد ادعى البعض أن هذا المصل كان يباع بمعرفة أعضاء من اللجنة الأمريكية.

مديرو الجامعة أيضا لم يفعلوا شيئا لمجابهة هذا المرض، بل كانوا عقبة فى سبيل مكافحته. فرئيس الجامعة، الذى ترك كلية الطب، لكنه أصـر على أن يتدخل باستمرار فى إدارة المستشفى، عين أحد مساعديه مشرفا على عميد كلية الطب، هذا كان يرسل التقارير الدورية إليه متخطيا العميد ومهملا له.

لقد احتفظت لنفسى بجزء من هذه الأمصال التى أعطيت لى بصفة شخصية بمعرفة الأمريكيين لمصلحة المستشفى التى أعمل بها، إلا أن هذا الرجل استولى عليها متحديا فى ذلك العميد عزمى باشا، معتمدا بالطبع على تعضيد رئيس الجامعة وبالتالى مجلسها. ما حدث يعتبر شيئا شاذا لم نسمع عن مثيله من قبل وتصرف لا يمكن احتماله.

كانت هذه الحادثة هى التى قصمت ظهر البعير، فالموقف أصبح مستحيلا ولا فائدة ترجى منه، فلا يمكن أن تدار مستشفى كبيرة بهذا الأسلوب الغريب، وكأستاذ فى الجامعة بذلت كل جهدى فى محاربة هذا الوضع الشاذ، وتقدمت باحتجاجات.. ولكن بلا فائدة، وكموظف فى الحكومة المصرية

صعب علىَّ أن اقتطع من عرق الفلاحين ٢٠٠٠ جنيه وهو راتبى السنوى، وكإنجليزى لم أبتلع هذا الوضع غير العادل الذى أراه أمام عينى مستمرا إلى ما لا نهاية. لم أشأ أن أكون ذاك الرجل الذى عبّر عنه كبلنج شعرا عندما قال:

أما نهاية المعركة.. فليس سوى شاهد قبر،
مسطر عليه اسم الفقيد الراحل،
على لوحة كتبت عليها بحروف شاخصة،
هنا يرقد إنسان غبى.. حاول أن يهز بلاد المشرق.
لكل هذا تقدمت باستقالتى.

طبقا للقانون، لا يستطيع الموظف أن ينتقد أو يهاجم عمله الحكومى طالما أنه ما زال داخل إطار وظيفته الحكومية، أما إذا نال حريته فإنه يصبح سيدا لمصيره وقائدا لروحه، ولن يتواجد حينذاك أى عائق يقف أمامه يمنعه عن مخاطبة الرأى العام مباشرة.

فى البداية لم أكن متحمسا لزيارة مستشفى حميات العباسية، لأننى وجدت نفسى مثقلا بما يكفى فى المستشفى التى أعمل بها، وليس هناك مبرر لزيادة أحمالى، لكن ما أن شاهدت بعينى ما يحدث فيها حتى تيقنت أنها بالفعل تستحق.

الرأى العام فى إنجلترا وأمريكا سيجدون بالطبع صعوبة فى تصور ما شرحته سابقا، لكن الحقيقة المرة هى أن الطبقة الحاكمة المصرية تنظر دائما للفلاحين كأنما هم أقل درجة من بهائم الحقل ويعاملونهم على هذا الأساس.

إذا احتاج أحد لدليل قاطع آخر، فلعل هذه الحادثة التى سأرويها تؤيد وجهة نظرى:

فى صيف سنة ١٩٤٣، كان أحد مساعدى يمر فى أحد شوارع جاردن سيتى - وهى الضاحية الفاخرة التى بها السفارة الإنجليزية - وجد رجلا بملابس رثة يرقد على الرصيف أمام منزل يقطن فيه أحد نواب البرلمان. كان هذا الرجل بائعا متجولا يعانى من عدة أمراض، منها البلاجرا والأنيميا والسل والالتهاب البريتونى والإسهال، كان راقداً فى مكانه هذا لمدة أسبوع سابق، قال البائعون فى المحلات المجاورة إنهم أخطروا الكراكون المجاور وكذلك رجل البوليس الذى يقف على ناصية الشارع الذى لا يبعد سوى عشرين مترا، وقد أطعمه هؤلاء بقدر استطاعتهم. فى ذلك الصباح أخطروا الإسعاف تليفونيا لإرسال سيارة إسعاف تحمله، وانتظروا حضورها فى أى لحظة، ثم تابع مساعدى طريقه بعدما استعلم جيدا عن الحالة. بعد أسبوع كامل، وهو مار فى نفس الطريق تملكه ذعر بالغ، عندما وجد نفس الرجل

ملقيا على الرصيف بنفس وضعه السابق، لكن حالته ازدادت سوءا عما قبل، وشرح له البقالون أن عربة الإسعاف حضرت بالفعل، لكن السائق امتنع عن نقله، ورفض حتى أن يمسه وقال بأن هذا الرجل حالته مزرية، ثم غادر المكان مسرعا. بعدها حاول الطبيب الشاب أن يستوقف سيارة أجرة، لكنه فشل، ثم حاول مع سائق عربة حنطور، لكن هذا أيضا رفض حمل الرجل. أخيرا نجح مسعاه مع قائد عربة كارو يجرها حمار وحملا المريض سويا واصطحباه إلى المستشفى.

بعد ذلك كتب خطابا إلى الصحف المصرية واصفا ما شاهده ورآه، ونشرت إحدى الصحف خطابه، لكنها حذفت الجزء الذى يقول إن الإسعاف والبوليس رفضا أن يتعاملا مع هذه الحالة، وإنهم تركا هذا المسكين ملقيا تحت لظى الشمس أسبوعين كاملين.

تتعمد الجرائد المصرية أحيانا عدم ذكر الأمور التى تختص برخاء ورفاهية الشعب، لأن هذا ربما يعتبر نقدا للمسئولين الحكوميين.

لو كان هذا الرجل كلبا لسارع المسئولون فى مستشفى رعاية الحيوانات لإسعافه، لكن من الواضح أن حياة الفقير المصرى لا تعدل أو توازى حياة جاموسة أو حتى جمل.

□□□

الفصل الرابع والعشرون
متفرقات عن مدينة القاهرة

بغض النظر عن أحوال مدينة القاهرة وأمراضها، لكن بها العديد مما يلفت النظر ويجذب الانتباه، فالسوق الشرقى المسمى بالموسكى له طعم وسحر طاغ يستحوذ على زائريه، فهو مطابق تماما لما نعرفه عن الشرق بشوارعه الضيقة وأبواب محلاته المفتوحة على مصراعيها، مثل تلك التى نقرأ عنها فى كتاب ألف ليلة وليلة. زيارة هذا الشارع مكلفة للغاية، لأن هناك الكثير الذى يمكن مشاهدته أو شراؤه، فأنت عندما تمر أمام محل ما، تجد صاحبه الواقف أمامه يرجوك أن تدخل وحتى بدون أن تشترى شيئا، فكل ما يرغبه هو أن تمتع عينيك بما يحتويه دكانه من الأنتيكات والسلع الشرقية، وما أن يبدو عليك التردد ولو للحظة حتى تضيع كلية.

الدكان التالى ستجده ممتلئا عن آخره بالسجاجيد الفارسية، هنا تجد صاحبه وقد ارتدى الملابس الأوروبية، لكنه كبس فوق رأسه ذلك الطربوش الأحمر، ثم يتقدم إليك مادا كلتا يديه مرحبا بك، وما أن تتردد حتى يبدأ مشوار الضياع.

لكنك بالطبع تعلمت الدرس الآن، لذا تندفع سريعا متجاوزا الدكان التالى المشهور بحرائره الجميلة، لتقف

مشدوها وأنت تشاهد الصناع البارعين وهم منهمكون أمام المصنوعات النحاسية، وهم منشغلون تماما وقد أمسكوا بآلاتهم الدقيقة يحفرون فى المعدن لصنع أجمل التحف

فى نهاية الشارع تجد السوق الفارسى، فتسرع الخطى، أو بالأصح تهرع زوجتك وأنت تتبعها، وبعد نصف ساعة ستظهر وأنت محمل برسم فارسى وحلية شرقية.

عندما تدور متجها ناحية اليسار، يواجهك محل أحمد سليمان للروائح العطرية، وقد اكتسى داخله جو شبه معتم. ما أن تدخل برجليك حتى تواجهك نافورة جميلة فى المنتصف تتدفق منها المياه، ثم تفاجأ بنور ملون ساطع يفترش أرجاء المكان ويحوله إلى جنة تسبح فيها بنات الحور، ثم يسرع إليك مساعد بياع ليقدم لك فنجانا من القهوة التركية، ويعطر أكمامك بخليط من عطر "ملكة الصحراء" والعطر الملكى وخليط آخر من العطور الشرقية الصميمة، فتسر زوجتك وتنفرج أساريرها، وتعودا إلى المنزل وقد وضعت هى فى حقيبتها قارورة عطر من الياسمين، لكنك لن تطيق نفسك، وسوف تظهر خلال الأسبوعين التاليين فى نادى الجزيرة وقد ارتديت أفضل ثان بذلة لديك.

مرة أخرى، بعد قيامك بزيارة قصيرة إلى محلات المشغولات الذهبية والجلدية، تعود إلى سيارتك وتقودها

مخترقا بها شوارع ضيقة مكتظة بالعربات التى تجرها الحمير المحملة بالفاكهة والخضراوات، ثم تلمح بطرف عينيك السيارات الفخمة المنتظرة، وألوفاً من المارة والسابلة، وبتنهيدة خلاص صادرة من داخل أحشائك، تبلغ بعد جهد جهيد لمكان واسع آمن يسهل عليك فيه السير بدون انزعاج.

كل شىء فى القاهرة وأنت داخل سيارتك يخضع للنسبية، فسائقو سيارات التاكسى العرجاء القبيحة لا يحترمون أبدا سواء الأفراد أو الممتلكات. هم كثيرا ما يقودون سياراتهم على الجانب الخطأ من الطريق، ويقفون فجأة، ويقطعون عليك الطريق، ويفعلون كل الأمور التى لا يجب أن تحدث. أما سائقو السيارات الحربية فحدث عنهم بلا حرج، فهم أسوأ وألعن من سائقى سيارات التاكسى ويفوقونهم فى كسر قواعد المرور، ولا يهتمون أبدا بإشارات المرور. إذا واجهت وأنت تقود سيارتك تكدسا مروريا، فإنك ستفاجأ بعشرات الكلاكسات تنفجر من خلفك طالبة منك أن تفعل المستحيل.

عساكر المرور مماثلون فى ذلك لكل قوى الضبط فى القاهرة، ليسوا ذوى فائدة تذكر، هم يقفون فى مفترق الطرق يبدو عليهم كما لو أنهم يتمنون وقوع مصادمة بين سيارتين. هم على كل حال لا يصنعون شيئا لمنع الكوارث، وحتى أربع سنوات سابقة كان كل رجال الكونستابلات جهلة. حتى اليوم،

هناك العديد منهم لا يقرأ ولا يكتب. يلزم تنظيم القوة البوليسية بكل فروعها داخل القاهرة من القمة إلى القاعدة، وهذا طلب عاجل وملح.

من وجهة نظر الإنسان المتمدين، فإن قيادة السيارة داخل ضاحية بولاق والأماكن الشعبية الأخرى تعتبر خطرا مؤكدا، وتحتاج إلى حرص وحذر يفوقان الوصف. إذا صدمت مصريا وأنت لست المخطئ بسبب أنه بكل استهتار ظهر أمامك فجأة، فإنك ستخاطر بفقدان حياتك، ويتكفل بذلك جمع غفير من المارة الغاضبين الذين ليس لديهم أدنى حس بوزن الأمور، وسوف تتحطم سيارتك وتتحول إلى شرائط معدنية.

بعد فترة قصيرة من وصولى القاهرة تقابلت مع مساعد مدير عام البوليس فى مأدبة عشاء أقامها لنا أحد الأطباء المحليين، ووجهت إليه هذا السؤال، "إذا صدمت أحد المارة فى أحد الأحياء الشعبية أو فى قرية، فماذا على أن أفعل؟" فأجاب، "إذا فعلت أنا هذا، فإننى بسبب معرفتى للغة العربية والملابس التى تدل على وظيفتى، سوف أسرع بحمل المصاب إلى أقرب مستشفى، لكن فى حالتك أنت، فإننى أنصحك أن تواصل السير فورا متجها إلى أقرب نقطة بوليس لتبلغ عن الحادثة".

حديثا أخبرنى أحد الأطباء المساعدين فى القصر

العينى، أنه صدم طفلا ظهر فجأة من أمام سيارة أخرى، فقفز من السيارة وأخذ الطفل بين ذراعيه. بسرعة تجمع حوله جمع غاضب، لكنه خاطبهم قائلاً: "أنا دكتور، إذا لم أحمل هذا الطفل فى سيارتى فإنه سيموت"، قال هذا وهو يرتعش، لكنه لو لم يكن قد حمل الطفل بين ذراعيه عندما تجمعوا حوله، لسقط قتيلاً فى الحال.

إليكم هذا الخبر الآخر الذى ظهر فى جريدة "إجبشيان جازيت" عدد ١٧ أكتوبر ١٩٤٣، "صدمت سيارة طفلاً صغيراً وأردته قتيلاً فى شارع المدبح وتعطل المرور لمدة نصف ساعة، وطلب سائق ترام كان متجهاً إلى السيدة زينب من الجمع أن يفسح له الطريق ليمر بترامه، لكنهم هجموا عليه وألقموه عدة ضربات، فتقدم الكمسارى ليساعد زميله، لكن هذا الأخير تعرض لطعنة فى رأسه، وجهها له جزار بسكينه فمات على الفور، وقد تم القبض على الجزار لاحقا".

لكن ما الذى يمكن أن تتوقعه من إنسان يعيش فى مثل تلك الأحياء الفقيرة، مثل حى بولاق مثلا التى يقع على بعد خطوات قليلة منه، حى الزمالك بقصوره الشامخة وثروات ورخاء قاطنيها؟ . لقد تجولت فى شوارع بولاق نهارا، حيث من الخطر على أوروبى أن يتجول فيه ليلا. لقد شاهدت بعينى

العديد من الأحياء الفقيرة فى لندن وأيرلندا وفى القارة الأوروبية، لكنى لم أصادف مثل ما يماثل فقر وقذارة حى بولاق فى القاهرة، فحواريها الضيقة تكتظ بصبية صغار بملابس ممزقة، بينما تعف على وجوههم وعيونهم ألوف من حشرة الذباب مسببة لهم إحدى اللعنات المصرية، هى رمد العيون، وتتأمل تلك المنازل والأكواخ المتهالكة التى تتعرض فجأة لعوامل الفناء الفجائية فتدفن فى باطنها ساكنيها، وهذا الأمر ليس من الحوادث النادرة. بولاق هذه كانت فى يوم من الأيام من الأحياء الراقية فى مصر، لكنها الآن ليست سوى بقعة ملعونة يلزم أن تزال من الوجود على أن يعاد بناؤها من جديد.

إننى لست بالأخصائى الاجتماعى. أعلم أن هناك من يقول أن هذا هو المتوقع فى الدول الشرقية، لكن مماحكات مثل هذه لا تحمل وزنا يلتفت إليه، فهذه الأحياء يمكن بل يجب أن تنظف وتهذب، وكلما حدث هذا فى أقرب وقت كلما كان هذا مصدر عزاء لضمائرنا نحن الذين نتكلم دوما عن الإصلاحات الاجتماعية.

لنتابع حديثنا: قيادة السيارات فى شوارع القاهرة ليست كلها عبارة عن قتل أو موت مفاجئ. كنت يوما أقود سيارتى

متجهاً إلى الكاتدرائية الإنجليكانية عندما فوجئت بصبى فوق دراجة يحوم أمام السيارة من جهة لأخرى، رافضا أن يترك الطريق لنا، فسألت سائقى عبده السودانى الذى جلس بجوارى، "ما الذى يفعله هذا الصبى بحق الشيطان ؟" فأجاب وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، "هذا الولد يركب دراجة قديمة مستهلكة ، إذا أنت تابعت طريقك بدون الالتفات لاستفزازاته، فإنه سيقفز فجأة جانبا تاركا لك الدراجة لتفعصها. هنا يمكن أن يطالبك بدراجة جديدة".

دائما ما تأتى المصادمات الخطيرة فى الشوارع بسبب قائدى الدراجات المستهترين، فأى صبى يمكنه أن يؤجر دراجة بشلن سواء عرف كيف يتحكم فيها أو أنه يجهل تماما قيادتها. من أعجب المناظر ذلك الشاب الغرير فوق دراجته فى يوم شديد الرياح وقد رفرفت حوله جلابيته الفضفاضة، إنه فى رأيى أخطر من جرعة لحامض الهيدروسيانيك.

فى الليل، تجد قادة الدراجات التى تفتقد الأنوار من الكثرة بحيث يصعب عدها، والبوليس يتجاهل مثل تلك الأمور، ولا يلتفت إليها بالرغم من مخالفتها لأبسط قواعد المرور.

من أكثر المناظر طرافة التى شاهدتها فى القاهرة، تتمثل فى غنى من أغنياء الحرب المصريين الجدد الذى امتلك

موتوسيكل (سيدكار) ويعيش فى منزل مجاور لى. فى كل صباح يحضر إليه سائق الموتوسيكل، فيخرج إليه هذا الرجل السمين نافخا أوداجه، ما أن يقترب حتى يقفز السائق من الموتوسيكل ويلف دورة كاملة ليفتح باب السيدكار لسيده، فيمتطى هذا ويحشر نفسه حشرا، ثم يرفع السائق يده بالتحية ويقفز على مقعده وينطلق بالموتوسيكل بكل مهارة وكبرياء.

السائحون الذين يزورون مصر للمرة الأولى ويقضون ليالى مكلفة فى فنادق فخمة أو فى نادى الجزيرة الرياضى، إنهم فى الواقع يشاهدون أقل القليل من هذا البلد. أخص بالذكر هؤلاء السائحات اللاتى يقرأن الروايات الغرامية السخيفة عن الشيوخ ذوى العيون البراقة ويسبحون فى أحلام رومانسية خادعة، وهن يتخيلن هؤلاء الرجال الذين يتكاثرون حولهن فى مداخل الفنادق وقد ارتدوا ملابسهم الفخمة الزرقاء المشغولة بالقصب والحرير والذهب، وكل الألوان التى نراها فى قوس قزح، كما لو كانوا هم شيوخ الغرام الذين قرأن عنهم فى الروايات. إنهن يشتقن أن يحملن فوق صهوة جواد عربى أصيل إلى خيمة عربية مفروشة بالسجاجيد العجمية، استنارت بعديد من الأضواء الخلابة مثل تلك التى

نراها فى الموسكى. كثيرات منهن تركن خيالاتهن الرومانسية تغلبهن فوق الحكمة والمنطق والعقل، هؤلاء النسوة غالبا ما يتم استغلالهن وسرقتهن بواسطة هؤلاء الترجمانات، والحصان الوحيد التى يمكن لإحداهن أن تمتطيه لن يزيد عن ذلك الحمار أو الجمل فى منطقة الهرم، ثم يتركن القاهرة وقد احتفظن لأنفسهن باستثارات رخيصة كلفتهن أكثر كثيرا من قيمتها الحقيقية.

السياح عموما يعتقدون فى الأسطورة التى تؤكد أن مكتشفى المومياوات الفرعونية سريعا ما يلاقون حتفهم. وهم يشيرون دائما إلى حالة اللورد كارنارفون ومستر كارتر اللذين اكتشفا مقبرة توت عنخ آمون، حيث إنهما لقيا حتفهما بعد الاكتشاف بفترة قصيرة، لكنهم قد يغيرون فكرهم هذا عندما يعلمون أن الطبيب الذى فحص وشرّح معظم المومياوات المصرية خلال خمسة وثلاثين عاما، حصل أخيرا على الجائزة الشهرية التي يمنحها نادى الجزيرة للمتفوقين فى لعبة الجولف، هو يبلغ من العمر السادسة والستين. أما الكيميائى الذى حافظ على مقتنيات توت عنخ آمون من التلف، فهو ما زال على قيد الحياة - وذلك قبل مغادرتى القاهرة سنة ١٩٤٤

بالمصادفة منذ سنوات قليلة ماضية فى أثناء حفل ما، شاهدت بعينى مومياء الطفلين اللذين وجدا فى مقبرة توت عنخ آمون، ورأيت عينة من الحبوب التى وجدت. عديد من الثقاة يؤكدون أن هذه الحبوب أثمرت فعلا نبات القمح عندما زرعت.

أؤكد هنا أن هناك القليل من الرومانسية فى مصر اليوم، كل من يشك فى كلامى هذا، أدعوه أن يزور الأحياء الفقيرة الغبراء لمدينة القاهرة والقرى البعيدة ويحكم بنفسه.

□□□

الفصل الخامس والعشرون
القوات البريطانية فى مصر

لدىَّ صديق فى لندن تجده دائما واقفا فى ركن بجوار محطة بادنجتون، ولمدة ست عشرة سنة اعتدت أن أشترى منه جريدتين يوميا، إحداهما صباحية والأخرى مسائية.

فى أحد الأيام من شهر مايو ١٩٣٧، قلت له، "حسنا، هذه هى آخر نسخة جرائد أشتريها منك ولأيام طويلة قادمة" فأجاب: "ولماذا يا سيدى، لعلك مسافر بعيدا ؟" فقلت له "نعم، أنا مسافر إلى مصر غدا" فصاح، "مصر، إننى أعرف هذا البلد جيدا، لقد عشت فيها ثلاث سنوات خلال الحرب الماضية (الأولى) ولم أنسَ أيضا بعض العبارات التى تعلمتها هناك، انه ليس بالبلد السيئ بالرغم من كثرة الرمال والذباب". استمر فى إلقاء محاضرته وحكى عما لاقاه هناك، وبمجرد إظهار عزمى على مغادرته حتى صاح (سعيدة)، فالتفت إليه قائلا: "ماذا تعنى هذه الكلمة ؟" فقال: "إنها الطريقة التى يمكن أن تقول بها هناك (شيريو)"، كانت هذه هى الكلمة العربية الأولى التى تعلمتها فى حياتى.

بالتأكيد حضر لمصر أكثر من مائة ألف من رجال ونساء بريطانيا وحلفائها وخدموا فى مصر أثناء الحرب العالمية الحالية (الثانية) أو الحرب السابقة، فى الحرب العالمية الأولى

كانت إنجلترا تحكم مصر حكما مطلقا، أما فى هذه الحرب الدائرة الآن فإن المصريين يحكمون أنفسهم، وأشك أن يجاهر أحد البحارة أو الطيارين بقوله، "مصر ليس بالبلد السيئ"، فالحلفاء تم استغلالهم إلى أقصى حد منذ بداية الحرب سنة ١٩٣٩، فتكاليف المعيشة ارتفعت إلى حدها الأقصى منذ بداية الحرب وزادت بواقع ٣٠٠٪. مع ذلك، فإن بريطانيا وأمريكا كانا يضخان النقود بكميات كبيرة فى هذا البلد. فى نهاية عام ١٩٣٩، كانت كمية النقود المتداولة تزيد قيمتها عن ٢٨ مليون جنيه إسترلينى، وبحلول عام ١٩٤٣ ارتفعت بمقدار ثلاثة أضعاف ذلك لتصبح حوالى ٨٢ مليون جنيه، وعندما قامت الحرب كان بمصر عشرون مليونيرا، أما بنهاية عام ١٩٤٢، فقد أصبح عددهم ١٢٥ فردا. معظم هذه الثروة المضافة كان مصدرها تلك الحرب وتواجد قوات الحلفاء بمنطقة الشرق الأوسط. لم أطلع على إحصائية عدد المليونيرات بعد ١٩٤٢، لكنى متأكد أن عددهم تضاعف حاليا، وجزءا كبيرا من ثروة هؤلاء الأثرياء الجدد تجمعت من الاحتكارات التى زينتها الطبقة الحاكمة لنفسها.

إذا توجهت لجنة من الخبراء الاقتصاديين من الحلفاء لبحث مصادر الزيادة الفجائية لثروة البعض فى مصر خلال السنوات الحالية، لا سيما فى مجال امتلاك الأراضى والإقطاعيات، فإنها ستواجه مصاعب وعقبات متنوعة، لكن

ليس من الطبقة الأدنى من المصريين الذين يعلمون تماما ما يحدث فى بلدهم، ويعرفون من هم الذين يدفعون الضرائب للدولة.. فى رأيى إنه بدون تعضيد الصحافة ومساندة الدول الأوروبية فإنهم سيظلون عاجزين عن تصحيح أى مسار.

لقد تم استغلال القوات المتحاربة من قبل طبقة التجار بشكل شائن، ولولا الخدمات الداخلية التى تقدمها القوات البريطانية لجنودها، لتعرضت عائلات هؤلاء الجنود للخراب العاجل.

فتجار الجملة والوسطاء وتجار التجزئة المنتشرون فى المدن ينحصر كل همهم فى الابتزاز، وقد أشارت الصحف الإنجليزية مرارا وتكرارا عن مستوى الأسعار الذى يتزايد بشكل جنونى بحيث بلغ حد الاستغلال البشع.

كان من المتع القليلة التى بقيت لجنودنا وسط متاعبهم الجمة، أن يرسلوا إلى ذويهم بعضاً من الهدايا البسيطة من القاهرة والمدن المصرية الأخرى، لكن بسبب الأسعار المرتفعة أصبحت تلك المتعة فى حكم المستحيل. كان هذا الاستغلال من السوء لدرجة أن النائب روبرت موريسون (من حزب العمال) سأل سكرتير الحرب فى البرلمان، "لماذا لا يتم التنبيه على أفراد القوات المتواجدة فى مصر أن لا يشتروا تلك الأنواع الرديئة من الجوارب النسائية، على اعتبار أنها من الحرير، وتباع بسعر استغلالى قدره ١٥ شلن للزوج، بينما

كان يباع نفس الجورب فى بريطانيا قبل الحرب بتسع بنسات فقط.

ليست الجوارب الحريرية هى التى ارتفع سعرها فقط، لكن كل أنواع الملابس والأطعمة وأسعار ركوب التاكسيات، كلها ارتفعت أثمانها بشكل مبالغ فيه.

كان يعمل لدى سائق يتقاضى منى شهريا خمسة جنيهات، ثم تركنى سنة ١٩٤٠ ليعمل على سيارة أجرة، بعد ثلاث سنوات امتلك سيارة أجرة وصرح لى بأنه يحصل على ثلاثة أو أربعة جنيهات يوميا، معظمها من أفراد القوات البريطانية.

كثيرا ما كنا نحتاج فى المستشفى لنقل دم، ولا نعثر على معطٍ مناسب، لذا كنا نلجأ إلى القوات البريطانية التى طالما رحبَت بالتعاون معنا، وقد فشلنا تماما فى إنشاء وحدة نقل دم فى مستشفانا، واضطررنا إلى اتباع الوسائل العنيفة، وهى البحث عن المرضى ذوى ضغط الدم المرتفع فى أقسام المستشفى المختلفة لننقذ مريضا آخر محتاج لنقل دم، وكان هذا الإجراء غير مرضى تماما، وكالعادة لم يكن يقاسى من هذا الإجراء الغريب سوى المرضى الفلاحين البؤساء.

وبغض النظر عن مصالح إنجلترا الحيوية فى مصر، فإنى أستأذنكم فى سؤالى أيها السادة: هل فعلتم ما فعلتم فقط لمنفعة اثنى عشر ألفا من كبار ملاك الأراضى، ومائتى ألف

من البيروقراطيين، وعدة آلاف من التجار الأغنياء ومرابى القرى، وعدد من البنوك الكبرى التى تعمل فى مجال المرهونات ولأجل خاطر كبار مصدرى القطن ؟ .. أم أن تضحياتكم وتضحيات هؤلاء الذين لن يعودوا أبدا من غياهب الصحراء، لمنفعة سبعة عشر مليونا من سكان مصر، بالأخص اثنى عشر مليونا من أنصاف الجائعين، أشباه العبيد الذين يعملون من الفجر حتى الغروب لقاء ستة بنسات فى اليوم ؟ ..

أعتقد أنكم لم تفكروا أبدا فى هذه المسألة من تلك الزاوية، لكن عليكم أن تفعلوا هذا الآن، فالفلاح المصرى إنسان طيب بمعنى الكلمة، هو سيقدر كل معونة تقدم له، لأنه هو حجر الأساس لهذا البلد. يشترك معه فى ذلك قاطنو وديان دجلة والفرات، فهم جميعا الحضن الأول للعنصر البشرى كله، لهذا السبب بمفرده أتجرأ وأقول إنهم يستحقون كل اعتبار من أمم العصر الحديث.

رجال الجيش الثامن على وجه الخصوص يتذكرون جيدا ما حدث فى "ثغرة العلمين"، ويتذكرون أيضا أن المصريين، بالأخص الريفيون منهم لم ينزعجوا كثيرا من الموقف المحرج على حدودهم الغربية، من احتمال نجاح الألمان فى دخول مصر. سبب ذلك ربما لا يعرفه الكثيرون، لكنه سبب مثير يحتاج لتوضيح.

فى المقام الأول لم يدرك المصريون بكافة طبقاتهم مدى تقدير الألمان لهم، فالنازيون كانوا دائما ينظرون لأنفسهم بنظرة استعلائية معتبرين أنفسهم جنساً قائداً سائداً وعظيماً، واعتبروا حتى الإنجليز والأمريكان كأنهم فى مرتبة أقل كثيرا منهم، فى هذه الحالة ليس من العسير تصور المرتبة الدنيا التى قد يضعون فيها أى جنس آخر غير أوروبى. الفلاحون بالطبع ليس لديهم الوعى الكافى لإدراك دقائق هذه المسألة ولكن كان جل اهتمامهم تلك الوعود التى كان يبثها الألمان عن طريق الراديو باللغة العربية، فى جهلهم وبراءتهم صدقوا دعايات جوبلز، ويوما بعد يوم كرر الألمان ادعاءاتهم بأنهم سيحضرون مصر كمحررين لهم، وأقسموا أنهم سيوزعون كل أراضى الإقطاعيين عليهم، وسيفرقون كل النقود المكدسة عند اليهود على الفقراء والمساكين.

كان وعد توزيع الأراضى على الفلاحين خطة بارعة ودعاية متقنة - بالرغم من أن الألمان لم يكن بالطبع فى نيتهم أن ينفذوا ما وعدوا به- بل سيصبح الفلاحون عبيدا حقيقيين لهم، يعملون بكل همة ونشاط فى خدمة هذا الجنس العظيم، أما عن ثروة اليهود فانه من السهولة بمكان تصور مقدار ما سيحصل عليه الفلاحون منها.

لكن الفلاحين صدقوا تلك الدعاية. فى يوم من سنة ١٩٤١، ذهبت إلى عزبة الدكتور عزمى باشا، لقد أنشأ هذا

المكان بجده واجتهاده من العدم، فهذه المزرعة كانت منذ عشرين سنة عبارة عن ١٧٠فدانا من الرمال، لكنه أنفق عليها أكثر من ٣٠ ألف جنيه مصرى، ليحولها إلى مزرعة يانعة، حيث بنى فيها مجارى مائية بالأسمنت المسلح طولها يتجاوز الثلاثة أميال تغذى بمياهها مئات من أشجار المانجو والبرتقال والفواكه الأخرى، بالإضافة إلى العديد من المنتجات الزراعية الأخرى، أما مبانى الفلاحين الذين يعملون لديه فهى تعتبر نموذجا يحتذى، وهو يعول ستين شخصا بعائلاتهم ويمنحهم أجورا تفوق المعدل العام للأجور فى كل أنحاء ريف مصر.

مع ذلك، فما أن استمعوا إلى الدعايات الألمانية حتى تمنى كل فرد من فلاحيه لو وضع يده على عدد من الفدادين التى يمتلكها الرجل. كان هذا الأمر منتشرا فى كل القطر، لذا كان الباشاوات والطبقة الغنية عموما لا يخشون الألمان أو الإيطاليين، لكن يخافون من فلاحيهم.

عندما أصبح الغزو الإيطالى لمصر محتملا إلى حد كبير فى الأيام المبكرة للحرب، تعلم عديد من الباشاوات والبكوات والأفندية اللغة الإيطالية واشتروا أعلام إيطاليا، وفى أيام العلمين اجتهدوا جميعا لتعلم اللغة الألمانية، واستعدوا للتلويح بأعلام النازى، وتدربوا على نداء "هايل هتلر". فى الإسكندرية على وجه الخصوص، كان هناك استعداد يجرى على قدم

وساق لاستقبال قوات المحور للترحيب بها.

لكن على أية حال كان الخوف من الأخطار التى تهدد حياة طبقة الباشاوات ليس مصدره احتمال الغزو الألمانى، لكن من الفلاحين.

هؤلاء الفلاحون الذين عوملوا منذ عهود موغلة فى القدم كالعبيد والدواب، هم مماثلون لفلاحى روسيا، ولو تولت جهة ما تنظيمهم فإن الله سبحانه يكون فى عون ملاك الأراضى والإقطاعيين وكل من ساهموا فى خلق حالة البؤس التى يرفلون فيها هم وعائلاتهم على الدوام.

من المعروف أنه فى أيام حدوث "الثغرة"، ابتعد الأغنياء عن مزارعهم. لعلهم اعتقدوا أنه من الأنسب أن يرحبوا برومل فى قصورهم المنيعة بالقاهرة والإسكندرية بعيدا تماما من إقطاعياتهم.

احتمال أن يتعرض كبار ملاك الأراضى لإعادة توزيع أراضيهم يوما، يعززه حقيقة أن أبناء الفلاحين يحصلون الآن على مناصب فى الجيش المصرى، وسوف يكون من سوء الحظ العاثر أن تُستخدم القوات البريطانية ضد الفلاحين لمنعهم من تحطيم تلك الطبقة الأرستقراطية العفنة المتجبرة.

□□□

الفصل السادس والعشرون
استقالتى من كرسى الطب الإكلينيكى

الڤيلا التى يعيش فيها الدكتور عزمى باشا تستحق ذلك النطاسى البارع الناجح، فهى ليست بالواسعة أو الضيقة، مفروشة كلها بالأثاث الفرنسى.

فى إحدى أمسيات شهر مارس ١٩٤٣، كنت أجلس فى غرفة الصالون بسرايته كما تعودت ونحن نتناقش فى وسائل تحسين الخدمات بالمستشفى لمصلحة الطبقة الفقيرة. دائما ما يحدث أنه ما أن يستقر بى المقام فى مقعدى، حتى يقرع عزمى باشا الجرس بجواره، فيدخل علينا السفرجى فورا حاملا صينية فوقها قنينة بها زجاجة من أفخر أنواع الخمور وبجوارها كأس من الكريستال، هذا طقس ثابت، لكن لأن الباشا والسيدة حرمه مسلمون، لذا فإنهما لا يشاركاننى الشراب. ما إن أخذت راحتى فى الجلوس، حتى قدمت لعزمى باشا خطابا قائلا له، "يا سيدى العزيز.. هو ذا خطاب استقالتى". أخذ الخطاب منى وتأمله قليلا ثم نحاه جانبا قائلا، "وأنا أرفض قبول هذه الاستقالة". هنا نهضت زوجته واعتذرت أنها ستنام، وتركتنا لمناقشاتنا. قلت له: "إننى فى غاية الأسف يا باشا، من المستحيل أن أستمر، لقد فعل كل

منا ما نقدر عليه، لكن الأحوال فى الكلية أصبحت لا تطاق بسبب التداخلات غير المقبولة أو المبررة من قبل إدارة الجامعة والحكومة أيضا، وبصفتى أستاذ إنجليزى يصعب علىَّ أن أتحمل ذلك، فالفساد والاختلال والفوضى والتضحية بمصالح المرضى والطلبة والمدرسين الصغار التى تعتبر فضيحة بكل المقاييس. هذه الأمور جميعا كما تعلم لا يمكن معالجتها داخليا، فالجهات العليا لها اليد الطولى، لو كنت أعلم أن الإصلاح سيؤتى ثماره لبقيت فى مركزى. ليس علىَّ الآن سوى أن أترك خدمة الحكومة، بهذا فقط أستطيع مخاطبة الرأى العام مباشرة، لأن ولا واحد يود أن يقوم بتلك المهمة، لذا قررت أن أباشرها أنا. الحال فى المستشفيات أصبح مشينا ويعتبر عارا على أى دولة أو أمة، فبدلا من حفظ وصيانة الأرواح داخلها يتم فقدها وتبديدها بمنتهى السهولة والاستهتار، يجب أن يعاد تنظيم العمل بهذه المستشفيات بدون أدنى تأخير".. كان حديثى طويلا بدون التقاط للأنفاس، لأن المناسبة تستلزم منى ذلك، فأجابنى الدكتور عزمى بكل هدوء: "إنى متفق مع كل كلمة نطقت بها، لكنى ما زلت مصمما على عدم قبول استقالتك.. لقد تكونت لجنة بمعرفة الحكومة لإصلاح الأحوال، دعنا ننتظر ما تسفر عنه أعمالها". قلت: "لكن الحكومة دائما ما تشكل اللجان التى لا تنجز شيئا، هل عقدت هذه اللجنة أية اجتماعات؟" فأجابنى بنعم، لأنه يعلم كل

شىء عنها بصفته عميدا لكلية الطب، فقلت، "وهل اتخذت هذه اللجنة أية قرارات ؟" فاعترف بأنها لم تفعل، قلت: "ولن تفعل، لأن الجامعة والحكومة هما المسئولان عن هذه الحالة المتردية بكلية الطب والمستشفيات التابعة لها، بالطبع فإن رؤساء هذه اللجنة هما رئيس الجامعة ووزير المعارف، فكيف بالله عليك يكون المتهم هو القاضى فى نفس الوقت ؟ . أنت تعلم يا أستاذ عزمى أن هذه اللجنة لم تنعقد سوى لذر الرماد عن العيون، وتكونت خصيصا لتجد مخرجا معقولا ترد به على الملاحظات والتساؤلات البرلمانية التى ساقتها اللجنة المالية بها. مشاكل المستشفيات الجامعية وردت فى كثير من الصحف، ولم يحدث أى إصلاح ولن يحدث إلا إذا تصدى شخص ما لهذه المسالة، ووضع رئاسة الجامعة والحكومة ذاتها فى موضع اتهام.. وهذه هى مهمتى أنا".

كان عزمى باشا محبطا، وقد ركبته الهموم منذ تعيينه عميدا لكلية الطب، وجابه معارضة نشطة مستمرة لكل مشاريعه الإصلاحية. لقد ساعدته بقدر استطاعتى، وما زلت أعتبره من أعز الأصدقاء.

أرجوك أن لا تتخذ قرارك على عجل.. فكر جيدا"، هذا ما طلبه صديقى، بالرغم من معارضته، فقد أصررت أن يقبل خطاب استقالتى، وعندما تقاعس عن تقديمها لإدارة الجامعة،

ألححت عليه، فأرسل الخطاب بعد عشرة أيام من لقائنا. بالمصادفة علمت بعد ذلك أنه تعرض للوم من السلطات، لأنه لم يعالج الموضوع بحكمة، وسمح لى بالاستقالة - مما جعل بعد ذلك فضائح المستشفيات الجامعية على كل لسان سواء فى مصر أو بالخارج.

إنها مأساة كبرى أن لا يترك عزمى باشا حرا عن الجامعة، لينظف ويعيد تنظيم تلك المستشفيات، وأجزم أنه لولا تلك التداخلات السافرة فى عمله لأمكنه أن يفعل الكثير.

فى يوم ٣ أبريل، أرسلت سلطات الجامعة الدكتور ديرى أستاذ التشريح ليلقانى ويثنينى عن تقديم استقالتى، وديرى هذا خدم فى مصر خمسة وثلاثين عاما. قال لى بأننى لن أكسب شيئا من استقالتى هذه، لأن الأوضاع فى مصر غير قابلة للإصلاح، ونصحنى بأن أستمر وأحاول أن أفعل كل ما باستطاعتى وإمكانى، لكنى رفضت.

بعدها بيومين أرسلوا لى الدكتور ولسون أميرتوس، وهو أستاذ الفسيولوجى فى نفس المهمة، علما بأن هذا الأستاذ الأخير قضى فى مصر ثمانية وأربعين عاما، وكان هو المدير المباشر على المستشفيات الجامعية سنة ١٩٢٥، لكنه أيضا فشل فى إجراء أية إصلاحات، ويقال إنه فى فترة عمادته كان يمسك بيده عصا غليظة يهدد بها كل صباح من يأتى متأخرا

من طاقم المستشفى، لكن هذا على كل حال كان تأثيره بسيطا، وكان من رأيه أيضا أننى لن أنتفع شيئا باستقالتى، وحتى إذا بقيت فى العمل فإننى لن أنجح فى خططى الإصلاحية. كان من رأيه أيضا أن المنافع المادية التى سأفقدها لا تستدعى ما أفعله، لكننى أيضا لم أتفق معه فى الرأى...بعد اجتماع مجلس كلية الطب فى ٨ أبريل، طلب العميد من الأساتذة الإنجليز أن يبقوا فى أماكنهم، كنت أنا سبب هذا الاستبقاء. كلهم نصحونى أن أعيد النظر فى قرارى، لأنه من المستحيل - حسب رأيهم- أن أحارب بمفردى فى مسألة كبرى مثل تلك.

شخصيا كنت أود لو أن الأساتذة الإنجليز قد عضدونى وتقدموا باستقالات جماعية، لكن للأسف لم يتطوع أحدهم بفعل هذا، وبالرغم أنهم كانوا دائما ما ينتقدون الأوضاع الخاطئة فى المستشفيات الجامعية. بالرغم أن كل إنسان حر فى إبداء رأيه، إلا إننى متأكد أنهم لو ساندونى لما خسروا شيئا ذا قيمة.

لو حدثت استقالة جماعية للأساتذة الإنجليز من كلية الطب والمستشفيات الجامعية، لكان هذا داعيا قويا لإرغام الحكومة المصرية على إجراء الاصطلاحات المطلوبة، وكانت هذه المبادرة الشجاعة قادرة على أن تمنع ما حدث بعد ذلك،

وهو إصدارى للنشرة (The pamphlet) وما أعقبها من رد رئيس الجامعة الذى أرجع جميع اتهاماتى لأسباب دينية ! وما تلى ذلك من انعقاد مجلس الوزراء بأكمله، وأيضا الاستجواب الذى تم فى البرلمان، واستغرقت مناقشته أربع ساعات كاملة.

إن التحجج بحالة الحرب الحالية، لم تكن بقادرة أن تقف أمام قيام كل الأساتذة الإنجليز بتقديم استقالاتهم، لو حدث هذا، لكان رد فعله مدويا فى جنبات الرأى العام، وأيضا ما كنا فى تلك الحالة مضطرين لنشر هذا الكتاب.

استمر سيادة العميد فى جهوده لإثنائى عن الاستقالة، لكن بدون أن يقدم لى ضمانا أكيدا بأن الحكومة ستقوم بالإصلاحات الجذرية فى المستشفى التعليمى فى وقت معقول.. اقترح عزمى باشا أن يسعى لدى المسئولين لرفع راتبى الذى أتقاضاه، لكنى أخبرته بأننى سعيد وراض تماما بمرتبى، إنها ليست مسألة نقود بل هو أمر متصل بالكرامة والذوق العام، ولا يفهم فى مثل تلك الأمور مثل ذلك الرجل النبيل.

وفى ١٠ أبريل، كتبت له بشكل رسمى أخطره فيه أننى سأرسل صورة طبق الأصل من استقالتى لإدارة الجامعة مباشرة، ورجوته بكل كياسة أن يرسل الأصل (الذى علمت

أنه لم يُرسل بعد)، لذا لم يجد بدا سوى أن يرسل خطاب استقالتى، بذلك لم يكن هناك ضرورة أن أرسل صورة منها. كان فشل العميد فى إثنائى عن الاستقالة داعيا لأن تفعل الجامعة - أو بالأحرى الحكومة - شيئا.

بعد أسبوع وأثناء فترة الغداء، دق جرس التليفون، كانت المكالمة من السفارة الإنجليزية تطلب منى الاتصال بها، لكنى رفضت مدعيا أننى مشغول فى الوقت الحالى. بصراحة لم يكن فى نيتى أن أدع طرفاً سياسياً للتدخل فى مسألة شخصية لها الصفة الأكاديمية.

كنت أعلم تماما أين مستقر وجيعتى. كنت أحس أننى قادر على مجابهة مسئولياتى دون أى عون خارجى. على أية حال، كنت موقنا أنه لو أدت الخارجية البريطانية واجباتها ومسئولياتها تجاه غالبية الشعب المصرى، لما اضطررت لتقديم استقالتى.

إن سياستنا الخارجية منذ الحرب العالمية الأولى كانت ضعيفة بشكل مشين، لقد سلمنا مصر لمجموعة من الأغنياء وطبقة الباشاوات الفاسدين، ونتيجة لذلك أصبحت مصر على ما هو عليه الآن.

إننى لست سوى طبيب، ولست برجل دولة، وأتحدى أى إنسان أن يوافق على ما تفعله أى حكومة أو طبقة حاكمة

بمثل ما يحدث للمرضى الفقراء من المصريين. إنها معاملة غير إنسانية بكل المقاييس للتحكم فى مصائر هؤلاء الناس، لا سيما الفلاحين منهم الذين تتفشى بينهم كل مظاهر الجهل والمرض، وليس هناك أبدا من يدافع عنهم أو يرعى مصالحهم.

حتى نهاية يونيو ١٩٤٣، استمر عملى فى التدريس ومباشرة الامتحانات، وبالرغم أننى متقدم باستقالتى، فإننى لم أترك حجرا لم أقلبه، لكى أحث السلطات على إجراء التحسينات فى نظام العمل فى المستشفيات عموما بالقاهرة.

كما شرحت سابقا، فإننى أقر هنا بفشلى فى جذب انتباه كل من رئيس الوزراء ووزير المعارف، ليتخذوا إجراء إصلاحيا، ولكنى لم أحبط أبدا.

ففى ٧ يونيو ١٩٤٣، كتبت خطابا مهذبا موجها للملك فاروق، أرجوه فيه أن يأمر بتشكيل لجنة ملكية تنظر فى مسألة إعادة تنظيم مستشفيات الدولة، وسلمت خطابى هذا لإحدى الأميرات لتوصيله، ورجوتها أن تسلمه لجلالته عن طريق أحد المقربين إليه. لا أعلم إذا كان هذا الخطاب وصل جلالته أم لا.

فى نفس الوقت حصلت على معلومات لما يحدث من رد فعل فى محيط إدارة الجامعة، فقد أخبرنى أحد الأساتذة المصريين المعضدين لحملتى، أنهم ينوون أن يتجاهلوا

موضوع استقالتي حتى تهدأ الأمور.

ثم علمت بعد ذلك أنهم أوعزوا للحكومة بأننى أثير عليهم الدنيا، لأننى أرغب فى تعيين أساتذة إنجليز آخرين فى كلية الطب، وأن يكون العميد أيضا إنجليزيا ! . ثم قال لى أستاذ مصرى أقدره بأنه يشعر بالخجل العميق، لأن طاقم المستشفى الجامعى تركونى أحارب بمفردى ولم يقف أحد بجانبى، وأضاف بأن ما أفعله من أجل بلده أمر يستحق كل التقدير.

فى الحقيقة لم أتلق أى تعضيد من أساتذة كلية الطب، لا سيما أننى انتقدت إهمالهم فى أداء واجباتهم بشكل مباشر، بالإضافة إلى أن الخوف تملكهم، فهم يخشون المسئولين فى الجامعة والحكومة، وإذا تجرأ أحدهم فى مناصرتى فإنه سيتعرض أولا لقطع عيشه، ثم يكون مصيره بعد ذلك زنزانة السجن أو سراية المجاذيب.

فى حوزتى خطاب كتبه لى أحد البكوات المصريين المعتبرين قائلا فيه، "بسبب تطبيق قانون الأحكام العرفية، يحظر مناقشة أى أمور تخص الدولة أمام العامة، علما بأن هناك كثير من الأفراد زُج بهم فى السجون لأسباب أقل من ذلك، أعلم حالة أحد الضباط الذى ما زال رهن الاعتقال، لأنه أراد أن يطبع ويوزع صيغة القسم الذى يتعهد فيه الضابط

على خدمة وطنه ومليكه!.

عندما تقابلت مع هذا البيه شرح لى بأن القبض على هذا الضابط بمعرفة البوليس السياسى، كان على أساس أن طبع هذا القسم يعتبر إجراءً ضد الحكومة وضد النحاس باشا.. إننى أرتعش كلما فكرت فيما كان يحدث لى لو كنت مصريا.

من الواضح أن الملك لم يتسلم خطابى، لذا بعد مرور شهرين من خطابى الأول كتبت لرئيس الأمناء بالقصر راجيا أن يدبر لى مقابلة مع جلالته، هذا ليس بالإجراء غير العادى، فمن المعتاد أن يستقبل الملك الموظف البريطانى حال مغادرته البلاد.

لكنى أيضا لم أتسلم أى رد منه، لا أدرى إذا كان هذا الطلب وصل لجلالته من عدمه. لقد كان فشلى فى مقابلة الملك من سوء الحظ المطلق.

بالرغم من كل هذه الإحباطات فلم تفرغ جعبتى، ففى ١٩ أكتوبر ١٩٤٣، ذهبت إلى قصر عابدين وسجلت اسمى فى دفتر التشريفات، وطلبت مقابلة الوصيف الأول للملك. قابلته بالفعل وأخبرته عن الحالة السيئة للمستشفيات الجامعية، وإنه إذا تعطف جلالته بتكوين لجنة ملكية لتقصى الحقائق فإن هذا سيؤدى إلى تغيير أمور كثيرة، ثم ألححت فى مقابلة الملك. كان هذا الوصيف إنسانا متفهما ولطيفا، ووعدنى

مخلصا بتدبير مقابلتى للملك وأنه سيكتب إلىَّ أو يخاطبنى تليفونيا فى حالة تحديد الموعد.

لكن ولسوء الحظ، تعرض الملك فاروق لحادث سيارة وتلقى علاجه فى مستشفى عسكرى بريطانى.

بعد ذلك أصبح من المستحيل أن ألجأ إليه وأثير أشجانه، وتركت موضوع الاتصال بالقصر الملكى نهائيا.

هو ذا طاقم المستشفى خائف، والعميد يخشى رؤساءه فى الجامعة والحكومة، ورئيس الوزراء لا يهمه هذا الموضوع بأى شكل من الأشكال، علما بأننى داومت ولمدة ثلاثة شهور متواصلة فى جهدى لمقابلته ولكن بلا جدوى، والآن هو ذا الملك راقد فى فراشه مجروحا.. كأنما الأقدار تدعونى لأن أحارب وحدى، وتأسس عزمى على تنفيذ ذلك.

فى بداية شهر أكتوبر ١٩٤٣، أخبرت عميد كلية الطب بأننى لن أنتظم فى التدريس مع بداية الموسم الدراسى الجديد، وإنه انقضت ستة شهور منذ تقديم استقالتى ولم تصلنى أية إخبار عنها من إدارة الجامعة.

فى ٥ أكتوبر، طلبنى الأستاذ الدكتور ويلسون تليفونيا وأخبرنى بأن هناك مسئولا كبيرا فى السفارة طلب منه رقم تليفونى (بالرغم أنه مسجل بكل وضوح فى دليل التليفونات)، قال لى بأن أذهب للسفارة فورا لمناظرته، لكنى بالطبع

رفضت.. كنت متصورا لما حدث، فبالتأكيد ذهب أحد المصريين المهمين إلى مسئولى السفارة، وأخبرهم أن هذا الأستاذ الإنجليزى يسبب إزعاجا فى كلية الطب، وأنه يهاجم الإدارة ويقدم التماسات للملك، عموما هو يتعمد إحراج الحكومة - ونحن كما تعلمون ما زلنا فى خضم حرب عالمية ناشبة أظفارها.

لكنى لم أكن مستعدا ان أناقش أمور الحرب أو حتى شئون المرضى المساكين مع السفارة، فأثناء إقامتى بالقاهرة لم يبدِ رجال السفارة أى اهتمام بتلك المستشفى بالذات، التى لا تبعد سوى بضع مئات من الياردات من أبوابهم، وقد اضطررت إلى تقديم استقالتى، لأنهم لم يبدوا أى بادرة اهتمام بطبقة مطحونة، ومؤسسة ضخمة جديرة بأن يهتموا بهما بسبب إقامتهم الطويلة فى مركز الحكم والنصح لذلك البلد.

لقد منحنا الحكم الذاتى للمصريين، لكن طالما نعتبر مدينة الإسكندرية كميناء عسكرى تحت التصرف البريطانى، وقناة السويس كالمعبر الهام نحو بلاد المشرق، لذا نحن مسئولون أخلاقيا أن نراعى مصلحة كل فئات الشعب المصرى.

منذ ثلاثين عاما مضت قال كرومر فى مذكراته، "إذا أخذنا فى الاعتبار عظم اهتمامنا بالشئون المصرية، يجب إذن أن

نقبل الحد الأدنى من سوء الإدارة، لنضمن حكما ذاتيا مثمرا".

مع ذلك، فقد سلمنا ـ بكل غفلة ـ شئون حكم هذه البلاد إلى حفنة من الباشاوات الفاسدين، لا نلمس منهم سوى سوء الإدارة ليس فى المستشفيات فقط، لكن فى كل ركن من أركان الحكومة المصرية.

كما حاولت توضيحه سابقا، فإن مصر تسقط فعلا فى فخ الفوضى والتسيب، بينما وزارة الخارجية البريطانية لا تفعل شيئا لملافاة ذلك.

لكل هذه الأسباب رفضت التوجه إلى السفارة البريطانية، بدلا من ذلك أرغمت الحكومة المصرية على قبول استقالتى. بهذا أصبحت حرا أن أشير بأصابع الاتهام فى وجهها. لم تكن تلك المهمة بالأمر الصعب، فبكل بساطة كتبت خطابا للعميد أذكره فيه إننى لم أخطر رسميا حتى الآن بقبول استقالتى، التى سلمتها له منذ ست شهور سابقة، وطلبت منه أن يتعطف بإرسال هذا الخطاب لإدارة الجامعة ووزارة المعارف بأسرع وقت لعلوميتهم حتى يمكن لهم أن يخاطبوا وزارة المالية، لتمتنع عن إضافة مرتبى الشهرى لحسابى الجارى بالبنك الاهلى فرع قصر النيل (١٦٧ جنيها مصرياً شهريا). أبلغته أيضا بأن عدم قبول استقالتى، ما هو إلا

إساءة بالغة موجهة لشخصى، لا سيما إننى استقلت لتحقيق مصلحة عامة، هى فى الواقع احتجاجا على المعاملة السيئة التى يلقاها المرضى من بنى جلدته فى مستشفياتهم.

بعد عدة أيام تسلمت هذا الخطاب من العميد:

"آسف أن أخبركم بأن الجامعة قبلت الاستقالة المقدمة منكم اعتبارا من الأول من أكتوبر ١٩٤٣ ، أتمنى لكم تمام الصحة، وأشكركم على خدماتكم لمعهدنا.. وتقبلوا فائق الاحترام".

فى اليوم التالى أشارت إحدى الصحف إلى هذا الموضوع قائلة: "استقال الأستاذ الدكتور ألبورت وقبلتها الحكومة المصرية.. وقدمت له كل الشكر والثناء على خدماته الجزيلة".

لقد كانت نهاية سيئة لتجربة مثيرة أشد الإثارة.

لقد فشلت فى تحقيق العدالة لمرضاى من الفلاحين، لم يبق سوى أن أحزم حقائبى متوجها إلى إنجلترا، لكننى لم أكن أبدا محبطا، فقد عقدت العزم أن أدبج كتابا عن المستشفيات المصرية، وبعودتى إلى إنجلترا ستتاح لى تلك الفرصة الثمينة.

□□□

الفصل السابع والعشرون:
النشرة (THE PAMPHLE خطاب مفتوح لعامة الناس)

نبوءة أشعياء فى العهد القديم تقول: "مزج الرب فى وسطها روح غى، فأضلوا مصر فى كل عملها، كترنح السكران فى قيئه". أشعياء ١٩:١٤

كان من السهل أن يذكر المرء أفضلية التوجه رأسا إلى إنجلترا، لكن فى وسط مظاهر الحرب الشنيعة الدائرة رحاها الآن، أصبح من العسير حتى التفكير فى تنفيذ تلك النوايا.

لقد ارتفعت تكلفة المعيشة فى القاهرة بشكل غير عادى، وأصبحت المعيشة فيها تفوق إمكانيات معظم الناس، لذا فكرت أن أسافر أولا إلى جنوب أفريقيا، ثم أحاول أن أعثر على باخرة مسافرة إلى إنجلترا.

بعد قبول استقالتى، أرسلت لبعض الصحف البيان التالى ونشر بالفعل، "استقال الأستاذ الدكتور ألبورت سيسيل رئيس القسم الطبى بمستشفى القصر العينى من وظيفته، احتجاجا على الأحوال السائدة فى تلك المستشفى، وقد قبلت استقالته".. هذا البيان لم يؤد فقط إلى تغيير كل خططى، بل

كلفنى الكثير من النقود. بعد إرساله بيومين، رن جرس التليفون عندى وكان المتكلم هو رئيس تحرير جريدة "إجبشيان جازيت"، قال إنه اطلع على بيانى المنشور فى جريدة "لابورس الفرنسية"، وأنه لم يتسلم منه نسخة - بالرغم من إننى كنت قد أرسلت له صورة من البيان - فأعطيت له نسخة، لكن عندما حاول نشرها عارض الرقيب. عندما استفسرت عن سبب الرفض هذا، علمت أن الحكومة مسلحة بالقانون العسكرى، أصدرت تعليمات بعدم نشر أى خبر يتصل بموضوع استقالتى، ناصرها فى ذلك الرقيب الإنجليزى ومقره السفارة البريطانية.

كان هذا أكثر من طاقتى على الاحتمال، فلم أكن مستعدا لأن أستكين وأتقبل هذا الأمر، فالمسألة كلها ليست ذات طابع عسكرى أو سياسى حتى يحدث هذا المنع، هى ليست سوى مسألة أكاديمية بحتة، ذات منظور إنسانى بحت. لأن تبادر الرقابة المصرية تساندها الرقابة الإنجليزية بمنع ذكر أى إشارة لأسباب استقالتى، ليست إلا وسيلة لذبحٍ لمواطن إنجليزى مع سبق الإصرار والترصد. أنا بالطبع لست مستعدا أن تضحى بى السفارة الإنجليزية بحجة أن المنع ما هو إلا إجراء مناسب وقانونى، والسفارة بالطبع لا تلام لأنها فى الواقع تتبع وصايا الخارجية البريطانية، التى تلزمهم

بعدم التدخل فى عادات وتقاليد أهل البلاد.

مع ذلك، فقد كان رد فعلى المباشر هو فى جوهره إنجليزى وديمقراطى، لذا جلست من فورى وكتبت "نشرة" موجهة إلى الناس جميعا فى مصر. ما أن انتهيت من كتابتها حتى توجهت إلى دار للطبع واتفقت معهم على طبع ١٠٠٠نسخة منها بثمن إجمالى قدره ٢٨ جنيها، لكن ما أن أخبرتهم بفحوى الموضوع - حيث يصعب على أن أخدعهم فى هذا الشأن - حتى رفضوا تماما حتى أن يلمسوها بأيديهم، فتوجهت إلى مدير تحرير جريدة "إجبشيان جازيت" وطلبت منه أن يدلنى على أى جهة مستعدة لأداء هذا العمل، لكنه أخبرنى أن الرقابة الداخلية دقيقة جدا فيما يختص بمثل هذه الموضوعات، وبشرنى بأننى لن أتمكن من طباعتها فى أى مكان، فاقترحت عليه أن يتجاوز هذا الرقيب ولا يلتفت إليه، لكنه كان فى حالة ذعر بيّن. فالتجأت إلى رئيس تحرير جريدة "لابورس إجبسيان"، لكنه أيضا رفض رفضا قاطعا، قال لى إنه إذا طبع أى شىء يختص باستقالتى أو الفساد فى المستشفيات، فإنه سينال حكما عسكريا بالحبس لمدة لا تقل عن ستة شهور - وهو غير مستعد الآن لذلك.

هذا هو الحكم العسكرى الذى تخضع له كل الجنسيات، ويخشاه الجميع أكثر مما يمثله لهم ما يسعى إليه روميل فى

الصحراء الكبرى. لا ألومهم بالطبع، فست شهور فى سجن مصرى تفوق فى رزالتها نفس المدة التى تنقضى فى معسكر اعتقال ألمانى.

فى ذلك الوقت تم تعيين قنصل إنجليزى جديد فى القاهرة، ولظنى كونه نافعا لمقصدى، ذهبت إليه وحكيت له كل المآسى فى المستشفيات المصرية، لكنى لم أوفق معه، كل ما سمعته منه هو، "الإنسان لا يمكنه أبدا أن يتوقع الكمال فى كل شيء"، وهو مثال يوضح اتجاهات المسئولين البريطانيين جيدا.

فى ٢٠ أكتوبر، حادثنى تليفونيا أحد الأصدقاء الإنجليز على صلة وثيقة بالأوساط السياسية المصرية، ثم طلب منى الحضور لمكتبه، لأنه يود أن يكلمني بشأن البيان الذى نشرته فى جريدة "لابورس"، فذهبت إليه وحصلت على عديد من المعلومات الإضافية المفيدة. مما قاله: "الرقابة الداخلية ليست إلا فضيحة من الدرجة الأولى، أعلمك أن الحكومة الإنجليزية لن تفعل شيئا فى موضوع المستشفيات التى تود إثارته بسبب الموقف السياسى العام، أيضا فإن الملك لن يساعدك، لكنه ربما يختزن موضوعك فى قلبه ويستخدمه فى الوقت المناسب، فقط ليطيح بالنحاس باشا.

أخيرا أسمعنى خبرا صغيرا وجدته مفيدا للغاية، حيث

أخبرنى بأن الرقيب الداخلى لا يهمه سوى المطبوع فى الجرائد، وأن نشرتى يمكن أن تكتب كل نسخها على الآلة الكاتبة، بدون حدوث مخالفة للّوائح والقوانين، لكنه نصحنى بتوزيعها يدويا، لأننى إذا أرسلت نسخا عديدة بالبريد، فهناك احتمال كبير أن تصادر.. كانت هذه الثغرة التى نسيت الحكومة سدها، نافعة تماما لى.

بعد استفسارات حثيثة، عثرت على مكتب إنجليزي يستخدم الآلات الكاتبة ويتميز بالكتمان، لأنه إذا وصل أى خبر للحكومة، فإنها ستصادر أيضا المكتوب بواسطة الآلة الكاتبة. كانت أسعار هذا المكتب هى كتابة ٦٠٠ نسخة بتكلفة قدرها ٤٠ جنيها، أى ما يماثل ضعف ثمن طباعة النشرة. الواقع أننى احتجت لمائة نسخة إضافية، بذلك ارتفعت التكلفة الإجمالية لتصبح ٥٠ جنيها (الجنيه المصرى يساوى جنيها إسترلينيا وست بنسات)

ثم طلب أحد الثقاة الفرنسيين مقابلتى. بعدما أثنى على شجاعتى قال لى إنه يشك أن يؤدى تصرفى هذا إلى إصلاح حقيقى فى نظم المستشفيات، "لأن العقدة هى فى طبيعة الشعب المصرى التى يصعب تغييرها.. يجب على الإنسان أن يكون عادلا ومستقيما، لكن من المطلوب منه أن لا يبالغ فى هذا الشأن".

لكنى بالطبع كنت متمسكا بما قرأته عن رسول الإسلام ومقولته الرائعة، "ساعة عدل واحدة أفضل وأكثر قبولا عند الله من سبعين سنة صلاة".

بعد عدة أيام تلفن لى أحد المراسلين الحربيين الأمريكان يطلب مقابلتى، بشأن المستشفيات، فسررت بمكالمته، لأنى رغبت أن أسمع كل الآراء من كافة الزوايا. هذا المراسل صُدم لما رآه فى القاهرة، ونصحنى بقوله، "لا تخش من مهاجمة أى فرد مسئول لما يحدث هنا، الرأى العام قد تغير، ويمكنك أيضا أن تسرد كل الحقائق وستجد من يستمع لك فى إنجلترا".

نحن الآن فى نهاية شهر أكتوبر ١٩٤٣، والنشرة تحت يد الكتبة على الآلات الكاتبة، وقد داهمنى السرور عندما تلقيت مكالمة تليفونية، تخبرنى بأن إحدى الأميرات استطاعت أن تدبر لى مقابلة مع ولى العهد الأمير محمد على. سُئلت عن الموعد الذى يناسبنى، فأجبت بأننى تحت أمره فى أى وقت يحدده، ولى عظيم الشرف. تقرر أن يكون الموعد فى اليوم التالى الساعة العاشرة مساء.

المكان الذى يستقر فيه قصر الأمير بجزيرة الروضة، يشغى بالعديد من الأشجار والنباتات النادرة، جمعها الأمير بنفسه من عديد من الأقطار، لأنه رحَّالة معتبر. الأمير ذو لحية

خطأً فيها البياض، هو إنسان مثقف يلذ للإنسان أن يتحاور معه.

كانت مقابلتنا تقريبا عبارة عن مونولوج مثير اختص به الأمير نفسه. بدأ بالقول بأنه اعتزل الاشتراك النشط فى الشئون العامة، لأن السلطة تنقصه (هو الآن فى السبعين من العمر). أخبرنى أنه مقتنع تماما أن حالة المستشفيات المصرية عموما فى أسوأ حال. قلت له بأننى لم أتحاور مع السفارة الإنجليزية عن أسباب استقالتى، لأننى أعلم يقينا أن السفارة تعلم أقل القليل عن أحوال عامة الشعب المصرى، خاصة المرضى منهم، لذا هم لن يقدروا أبدا وجهة نظرى. اتفق سموه مع رأيى القائل بأن صلات السفارة الإنجليزية تقتصر فقط على الطبقة العليا من المجتمع، إنهم لم يحاولوا أبدا الاقتراب مما يحدث للبلد عموما، وأن هذا خطأ فادح. بل والأكثر من ذلك، هم فشلوا فى تقدير الحالة الذهنية والنفسية للمصريين عامة. وقلت له: أعتقد أن قدراً كبيراً من متاعب العالم تعود إلى الهروب من الدين والتدين الحقيقى، فوافقنى وأضاف، بأن هذا الرأى صائب تماما مهما كان نوع الدين، فليس الأمر يعود إلى كثرة المساجد أو الكنائس أو المعابد، لكن المهم هو الطريق أو السبيل الذى يعيش المرء بمقتضاه، كذلك المعايير السليمة الراسخة التى تحقق العدل والإنصاف

والشرف. اعتبر سموه أن مركزى الذى كنت أشغله كأستاذ أول بكلية الطب، كفيل بأن يؤهلنى لأصبح حكما عادلا للحكم على الأمور، وما يختص بالمستشفيات أفضل من الحكومة والسفارة. ثم حكى لى قصة ظريفة حدثت فعلا منذ زمن، فقد استدعى اللورد كرومر ـ المندوب السامى البريطانى فى مصر ـ المهندس السير وليم ويلكوكس للتباحث معه فى مشكلة هندسية. بعدما استمع الأخير لما قاله كرومر، رد عليه قائلا: "أستطيع أن أجيب على شكواك هذه بثلاث جمل قصيرة هى: أنت تعلم كل شىء عن السياسة، لكن أنا مهندس. وأنت فيما يختص بالهندسة، لا تعلم شيئا"، وخرج من عنده فورا رافعا هامته إلى أعلى.

أخبرته عما فعلته الحكومة معى بمعاونة السفارة فى تطبيق أحكام الرقابة المشددة، فيما يختص باستقالتى وأسبابها، ثم أطلعته على نيتى المبيتة لنشر قناعتى على عامة الناس، على هيئة نشرة توزع عليهم، ذلك إذا وجدت الوسيلة المناسبة لذلك. فكّر سموه قليلا ثم قال لى، بأننى طالما مقتنع بهذه الفكرة فلا بأس من تطبيقها، واعتبر هو أن مستقبل المستشفيات فى مصر والنظام العلاجى للمرضى الفقراء، لا سيما الفلاحين منهم، ذو أهمية قصوى لمستقبل البلاد.

فى اليوم التالى زرت مستشفى جامعة فؤاد الأول حيث

أخبرنى أحد الأخصائيين أن طاقم المستشفى يفكر فى إقامة حفل شاى لتكريمي وتوديعى. أخبرته بأننى شاكر لهذه اللفتة الكريمة، لكنى لا أستطيع تلبيتها. كانت أسبابى هى أن هذا الطاقم فشل فى مساندتى فى جهودى للعمل على تحسين معيشة مواطنيهم، وأن الكثير منهم فشل أيضا فى القيام بواجباتهم المفروضة عليهم حيال مرضاهم، وكذلك طلبتهم، إضافة إلى ذلك إننى كنت أُعد لهجوم كاسح يلاحقهم هم أيضا.

بعد أسبوعين، تلفن لى العميد بنفسه وأخبرنى بأن الجميع يرغب فى إقامة حفل وداع لى، مع تقديم هدية بسيطة، وأن الحفل سيكون فى منزله هو (الدكتور عزمى)، لكنى وبكل أسف، رفضت دعوته بسبب ما ذكرته سالفا.

نحن الآن فى منتصف نوفمبر. النشرة قاربت على الاكتمال، كان من الضرورى عمل الترتيبات اللازمة لتوزيعها بأفضل وسيلة مؤثرة، بدون المخاطرة بتعرضها للمصادرة. قررت أن السبيل الوحيد لتحقيق ذلك هو أن أسلم نسخة من النشرة لكل صاحب قصر، أو ڤيلا كبيرة بضواحى القاهرة، لذا قضيت أمسية كاملة أسوق سيارتى خلال شوارع ضاحية هليوبوليس دارسا جغرافيتها.

فى اليوم التالى صاحبنى كولونيل إنجليزى كان عضوا

فى لجنة عسكرية قبل الحرب، وبسبب العديد من حفلات الكوكتيل والشاى التى حضرها أصبح على دراية كاملة أين يسكن ذوو النفوذ فى الزمالك. لقد تحمس هذا الرجل لمشروعى الخاص بمعركتى من أجل الفلاحين. من ضمن ما قاله لى: "الجندى المصرى إنسان دمث الأخلاق، أما الضباط المصريون الصغار فإنهم يتصفون بالمهارة فى تنفيذ المهام الموكلة إليهم، الكثير منهم أظهروا نبوغا يُعتد به". للأسف، غادر هذا الكولونيل مصر بعد يومين فقط، لذا فاته الكثير من أسباب الإثارة والمرح الذى عاصر توزيع نشرتى.

أيضا قُدت سيارتى فى أرجاء حى جاردن سيتى وضواحى مدينة الجيزة، وسجلت عناوين كل البيوت المهمة فى نظرى، بذلك أقول مطمئنا إننى كنت مستعدا تماما لافتتاح الفصل الأول من معركتى الخاصة بى وحدى، وسط المعارك المحتدمة فى أرجاء العالم كله.

□□□

الفصل الثامن والعشرون
توزيع النشرة

فى ٢٢ نوفمبر اكتمل كتابة النشرة بكل نسخها، وذهبت لاستلامها. علما بأن كل نسخة تحتوى على ٢٢ ورقة سميكة، لذا امتلأت شنطتا سفر بالسبعمائة نسخة التى تعاقدت على كتابتها. التعامل مع مثل تلك المحتويات تعتبر مهمة عسيرة، يصعب التخلص منها عند الضرورة.

قررت أن أجازف بإرسال خمسين نسخة عن طريق البريد، بالطبع إذا زاد العدد عن ذلك فإن هذا سوف يدعو للشك، ويعرضها للمصادرة. للتمويه، حرصت أنا وزوجتى على تطبيق النسخ المرسلة بطرق مختلفة، فالبعض ملفوف تماما والآخر سائب وهكذا .. ، ثم كتبنا عناوين المرسل إليهم بخطوط مختلفة،

استخدمنا الصيغ الفرنسية والإنجليزية فى كتابة العناوين. هذا الأسلوب حيّر الدكتور على إبراهيم باشا رئيس الجامعة، كما هو واضح فى مجال رده على النشرة باللغة العربية، فهو يقرر فى فقرة من رده، ".. أنه لم يجرؤ على التوقيع على هذه النشرة". مع ذلك، فإن اسمى ودرجتى العلمية كانت مسجلة وواضحة وضوح الشمس وبالخط العريض فى صدر الصفحة الأولى من كل نسخة.

هذه الفقرة لم يوردها اعتباطا، لكنه بالطبع يراهن على جهل الطبقة الدنيا المصرية لكى يمرر دفاعه المتهافت.

الخمسون نسخة أرسلتها للوزراء ونواب البرلمان ورئيس الجامعة، لكن كان مايزال فى حوزتى ٥٥٠ نسخة مطلوب أن تصل إلى جهاتها المعلومة فى نفس التوقيت. كنت على علم أكيد إنه طبقا للأحكام العسكرية، يمكن للسلطات أن تضع يدها على النشرة وتدمرها، وقد أوضحت الأحداث اللاحقة صواب هذا التفكير.

كانت أمامى مشكلة توزيع النسخ يدويا، وقد تغلبت عليها بالطريقة التالية: قبل ستة شهور وخلال أيام تقديم استقالتى، وجدت أننى لن أستطيع تحمل تكلفة أجر سائق خصوصى، لذا اضطررت إلى الاستغناء عن خدماته، بالرغم أنه كان إنسانا متميزا بكل المقاييس، وكان قد استمر فى العمل معى عدة سنوات. عندما كنت أقلب وجوه الفكر فى مسألة توزيع النشرة، وجدت أنه من الصعوبة بمكان أن أقوم بالتوزيع مع قيادة سيارتى فى نفس الوقت، لذا استعرت سائقى السابق من مخدومه الحالى لمدة يوم واحد، بالإضافة إلى أننى وظفت صديقا له ليساعدنى فى التوزيع، ووجدت أنهما، بالإضافة إلى الخادمين اللذين يعملان عندى، قادران على أداء المهمة بكفاءة وسرعة.

فى أمسية ٢٣ نوفمبر، أرسلت خمسين نسخة بالبريد. فى الساعة الثامنة صباح اليوم التالى خبأت باقى النسخ فى غرفة الجولف بنادى الجزيرة، ذلك خوفا من قيام البوليس بتفتيش شقتى، ثم بدأت فى أداء مهمتى.

أخذت أولا محمد الطباخ إلى شارع الكورنيش الموازى للنيل المواجه لمستشفى فؤاد الأول. كانت شنطة الخضار التى يحملها، معبأة بثلاثين نسخة. أثناء قيادتى السيارة، أشرت له على القيلات المهمة. فى نهاية الطريق، أنزلته وأمرته أن يعود قافلا ويترك نسخة لكل قيلا أشرت عليها، ثم أخبرته بإمكان عودته لمطبخه بعد أداء مهمته. توجهنا بعد ذلك إلى قصر الأمير محمد على، وتركنا هناك نسختين، ثم قدت سيارتى متوجها إلى هليوبوليس، وحرصت أن أصل هناك بعدما يكون رجال الأعمال قد غادروا منازلهم متجهين لأعمالهم، كنت أرغب فى أن لا يكتشف أمرى سريعا، وذلك بتوقيف سيارتى، ثم تفتيشها.

فى ضاحية مصر الجديدة يتجمع العديد من منازل النواب، ورجال الصناعة والأعيان. تتجمع منازلهم فى شوارع ذات أسماء رومانتيكية مثل: شارع سيزوستريس، ورمسيس، وكليوباترا، بينما تتهادى السيارة على يمين الطريق، وأنا فى

وسط مقدمة السيارة أوجه المسار، ومساعداى المصريان على الجانبين يدقان على الأبواب ويسلما، النشرة لمن يظهر لهما، لقد قضينا وقتا ممتعا ومثيرا. أمام ڤيلا هائلة لاحظنا أن كل منافذها مغلقة، عندما هممنا بتجاوزها، رأيت فتاة صغيرة لا يتعدى عمرها أربع سنوات تتجه نحو البوابة الرئيسية، فنادينا عليها وأعطيتها نسخة وطلبنا منها أن تعطيها لمن فى المنزل من الكبار، فضمت على صدرها أحزان المرضى المساكين بكل قوة، لعلها ظنت أن تلك هدية قيمة ملفوفة جيدا.

بعد توزيع تسعين نسخة فى مصر الجديدة، رجعنا بسرعة إلى منطقة الزمالك وكررنا ما فعلناه، وأمكن لنا أن نوزع ١١٠ نسخة فى وقت قياسى، ثم أخذنا فسحة من الوقت لتناول غذائنا. فى فترة بعد الظهر، مسحنا منطقة جاردن سيتى، ووزعنا نُسخاً للسفارة البريطانية ومنازل البهوات والباشاوات، ثم جاوزت ڤيلا النحاس باشا لأننى كنت قد أرسلت له نسخة بالبريد، لكنى سلمت ثلاث نسخ لكلوب محمد على، مقر الأرستقراطية المصرية وسلمت عددا مماثلا لنادى السباق - الذى ليس له أى صلة بسباق الخيل - وعدة نسخ أخرى لنادى الجزيرة الرياضى والاتحاد المصرى البريطانى. وما تبقى من نسخ، احتفظت به كاحتياطى.

كان الجهد الذى بذلته لإثارة وإيقاظ ضمائر المصريين أكبر بكثير مما توقعت، هو مؤشر وتوجيه لما يمكن فعله وعمله لتحقيق تقدم مصر، إذا تم تناول مشاكلها بكل الحزم الواجب والتصميم الأكيد.

كانت الخطة التى انتهجتها لإرسال النسخ بالبريد أكثر من ناجحة، فقد وصلت جميعها إلى المرسل إليهم فى نفس اليوم الذى وزعت فيه الباقى باليد. لقد حاول النحاس باشا وحكومته منعى من مخاطبة عامة الناس، لكنه فشل فى ذلك تماما. لم تكن مصر فى حالة حرب، لكنهم استخدموا الحكم العسكرى المتعسف، ليخفوا سقطاتهم الإدارية، لقد تمادوا فى إهمال شئون الشعب وتحقيق رفاهيته، بالرغم من ادعائهم أنهم يمثلونه وفى خدمته. فى الحقيقة هم لا يمثلون سوى أنفسهم ومصالح طبقتهم. طبقا لخبرتى ومن المعلومات التى سمعتها، فإن حكومة النحاس باشا ستسقط سريعا - إذا تركها دعم الخارجية البريطانية- أكثر من ذلك، فبسبب المخازى التى تسببت فيها تلك الحكومة، أعتقد أن أفضل سياسة يجب أن تتبعها بريطانيا العظمى، هى أن تنقل تعاطفها وتأييدها من طبقة الباشاوات إلى الشعب.

لأننى استخدمت خدمة البريد بالطريقة التى شرحتها

سابقا، سارعت الحكومة بإصدار حظر شامل على مراسلاتى وإخضاعها للرقابة بواسطة رقيب إنجليزى، بذلك أضافوا صفة الإرهاب إلى صفة الاضطهاد.. وبسبب تلك الإجراءات التعسفية، تملك الخوف معظم المصريين المعجبين بما فعلته وامتنعوا عن الكتابة لى أو زيارتى.

مع ذلك، لم تطل الرقابة على البريد رئيس الجامعة، فرده المفتوح على اتهاماتى استخدم فيه خدمة البريد بكل حرية مطلقة، بل رأيت على بعض نسخها خاتم الدولة بدلا من طابع البريد العادى.

كانت الإثارة التى استتبعت توزيع نشرتى وشرحت فيها الأحوال المتردية للمستشفيات المصرية - التى يعلم بها الجميع، لكن لا أحد يفعل شيئا - تركتنى مشغولا لمدة شهر كامل، أرد على تليفونات وأكتب خطابات وأجرى مقابلات. عدد كبير من جنسيات مختلفة طلبوا منى نسخا، أناس لا أعرفهم استوقفونى فى الشارع وتناقشوا معى، أشخاص معتبرون أخذ كل منهم ١٠ نسخ لتوزيعها على أصدقائهم، آخرون طبعوا من النشرة نسخا ووزعوها، وترجمت النشرة إلى اللغة الفرنسية والعربية والتركية.

فى اليوم التالى لتوزيع النشرة، حضر لمنزلى أحمد عبد

الغفار باشا وقال لى، إنه قرأ تقريرى ولم يغمض له جفن تلك الليلة، هو كان يعرف المهازل التى تجرى فى مستشفى القصر العينى، لكنه لم يكن يدرى أنها بلغت هذا الشأو العجيب من السوء، ذكر أيضا أن الجدير بتقديم استقالته، هو رئيس الجامعة وعميد كلية الطب وليس أنا، ثم طلب منى البقاء فى مصر، ووجه لوما للسفير البريطانى لما يسببه من متاعب للملك. قال إن السفير يعامل الملك كأنما هو أبوه، لكن الملك يمتعض من ذلك. ووعدنى بأنه سيتقابل مع طه حسين رئيس جامعة الإسكندرية، وهو إنسان لامع ومثقف فى المجتمع المصرى على الرغم من أنه كفيف، أيضا وعدنى بأنه سيقابل رئيس البلاط الملكى وعديد من الوزراء. ثم غادرنى مصطحبا معه سبع نسخ ليقوم بتوزيعها. أخذ أيضا نسخة من الخطة الخمسية لإصلاح التمريض فى مصر.

علمت أنه ذهب إلى كلوب محمد على، وجهر بصوته قائلا بأنه يجب محاكمة الباشاوات المسئولين عن المستشفيات المصرية، وعلى عهدة الأمير محمد على، الذى أكد لى أن هذا الباشا انشغل تماما بهذه المسألة، حتى أن صوته كان يسمع فى عرض الشارع !

تلفن لى عدد من طلبة الكلية المجاورة لمنزلى طالبين منى

كيفية قيامهم بالمساعدة فى القتال فى سبيل الإصلاح، فرجوتهم أن يهدءوا فى الوقت الحالى، وإننى سأدلهم على الطريقة المناسبة فى وقت لاحق، لقد خشيت أن يبادروا بتحريك مظاهرة، بذلك يتعرضون للأذى من قوات البوليس.

فى صباح اليوم التالى، تلقيت خطابا من أحد الضباط الإنجليز من مكتب الاتصال الخارجى طالبا إمداده بعدة نسخ ليرسلها للخارج، قال إنه عندما قرأ النشرة، "تملكته حالة من الذعر"

فى المساء حضر إلى المحامى عبد الفتاح الشلقانى، عضو البرلمان المصرى، قال لى إنه سيثير الموضوع داخل مجلس النواب، وفعلا نفذ بعد ذلك ما وعد.. أعطيته اثنتى عشرة نسخة وعدد من المستندات التى تختص موضوع الفضائح بالمستشفيات.

فى صباح اليوم التالى، تقابلت مع أرملة إنجليزية كانت زوجة لأحد الأساتذة المصريين بكلية الطب. أخبرتنى أنها قرأت النشرة وأضافت، "إذا لم تكن قد فعلت شيئا مفيدا فى حياتك، فإنه يكفيك ما فعلته الآن". كانت هذه تحية مشجعة منها تستحق كل تقدير.

بعض من فتيات نادى القاهرة النسائى، طلبن منى بعض

النسخ ليترجمنها إلى اللغة العربية، بالإضافة إلى عديد من المصريين قصدونى للغرض ذاته، لكنى حذرتهم جميعا بأن الحكومة ستدمرهم إذا ضبطوا، لذا يجب أن يكونوا فى منتهى الحذر.

وفى ٢٨ نوفمبر، دعانى الأسقف جوين لمقابلته فى الكاتدرائية الإنجليزية. هذا الرجل قضى معظم حياته فى مصر. قال لى، "إن كل مشاكل مصر هى من صنعنا نحن الإنجليز".. هذا الأسقف من أفضل الشخصيات التى خدمت فى هذا المجال، فهو إنسان مهذب ورياضى ووطنى، لكنه من نوع خاص، ويختلف تماما عن ذلك الإنجليزى الآخر الذى قابلته بعد ذلك.

هذا الآخر هو مفتش مدرسى يخدم فى الحكومة المصرية. عندما قابلته أبدى تعاطفا معى حتى أنه عرض أن يساهم فى تكلفة كتابة النسخ، لكن ما أن غادرنا حتى كتبت فى مذكراتى الآتى، "هذا الرجل مهذب جدا، لكنى رفضت عرضه لأنى أود أن أتحمل الموقف كله بمفردى". بعد ثلاثة أسابيع قابلت نفس الرجل فى أحد الشوارع، لكنه ثبّت نظره إلى الأمام ولم يلتفت إلى، لذا تابعته واعترضته قائلا، "أنا الأستاذ ألبورت، ألا تذكرنى ؟" فأجاب، "أتذكرك بالطبع" فتساءلت، "ما الخطأ

إذن؟ تبدو كما لو كنت مستاء منى" فرد بقوله، "نعم أنا كذلك، إننى أعتقد أن وصفك للمبانى الجديدة للقصر العينى فى جزيرة الروضة تجاوز الحقيقة ومشين" فاحتججت قائلا، "لكنك فى مقابلتنا السابقة لم تذكر هذا الموضوع" فقال، "لم أكن قد قرأت رد الدكتور على إبراهيم عليك، ولم أكن أعلم أن مبانى مستشفى فؤاد الأول قد بناها الإنجليز، لم يكن لائقا بك أن تنتقد المبانى التى بناها البريطانيون !" كان كل ما فعلته مع هذا الرجل هو أننى تركته فى كمده وغادرت المكان سريعا.

فى ٢٩ نوفمبر، حضر إلىَّ لجنتان من الطلبة، الأولى مكونة من سبعة من طلبة الطب فى السنوات النهائية – يرغبون فى الحصول على معلومات وعلى النشرة – أعطيت لهم واحدة. أما اللجنة الأخرى، وهى الأكثر أهمية، فهى مكونة من طالب طب نابه برفقته اثنان من طلبة كلية الحقوق، أحدهما ابن لعضو برلمانى، وبدا على جميعهم أمارات النباهة والذكاء – هو نوع من الشباب يستطيع بعد جيل أو أكثر أن يتدربوا ليصبحوا من رجال الدولة القادرين على حكم بلدهم بنزاهة وكفاءة –. كانت مهمتهم سرية، فهم فى الواقع ممثلون لكل طلبة الجامعة، فهم كانوا جزءاً من لجنة كبرى يتكون رؤوسها من أساتذين بكلية الحقوق، وقد تكونت لجنة صغرى

خصيصا لترجمة نشرتى إلى اللغة العربية. كانوا يرغبون فى الحصول على نسخ إضافية من النشرة، وأبدوا رغبتهم فى انضمام أستاذ من كلية الطب إلى لجنتهم هذه، ثم طلبوا منى شخصيا أن أنضم، لكنى اعتذرت، لأنه من الأفضل أن يتناول المصريين بأنفسهم معالجة ما جاء بالنشرة، ورشحت لهم أستاذا فى كلية الطب كنت أعلم أنه مهتم بإصلاح أحوال المستشفيات.

كان الشبان الثلاثة مثيرين للغاية، يبدو على قسمات وجوههم اهتمام بالغ، بدا وكأنهم مستمتعون بكونهم من المتآمرين. بالفعل هم مغامرون ومعرضون لأشد أنواع العقاب، سواء من إدارة الجامعة أو من الحكومة. أعطيت لهم النسخ المطلوبة ودعوت لهم بالتوفيق. بعد عدة أسابيع، علمت أن ترجمة النشرة إلى اللغة العربية قد اكتملت، ثم وجدوا أنفسهم فى مأزق، فكيف يمكنهم طباعة النسخ العربية، وليس هناك مؤسسة طباعة تقبل ذلك، خوفا من الأحكام العسكرية، إذن ماذا هم فاعلون ؟ .

لذا طلبونى تليفونيا فأرسلتهم إلى المؤسسة الإنجليزية التى كتبت النشرة على الآلات الكاتبة. إننى فى قمة السعادة والسرور، لأننى علمت أن النشرة العربية وزعت بالفعل بعد

مغادرتى مصر بوقت قليل.

إن هذا الكتاب الذى أدبجه الآن سيصادر حتما إذا وصل مصر، لكن إذا تسربت منه بعض النسخ، فإننى أُجزى هنا عظيم تقديرى لهؤلاء الفتية الصغار، الذين أبدوا حماسا وتفهما واعيا وتعاطفا بليغا مع بنى جلدتهم من مواطنيهم الأقل حظا فى الحياة.

يعلم النحاس باشا الذى حرص على مصادرة النشرة، أننى أعطيته الفرصة تلو الأخرى، لينظف المستشفيات، مما يتيح له أن يسجل اسمه بالخط العريض فى صفحات التاريخ المصرى كمصلح اجتماعى وراع أمين للفقراء من المرضى، لكنه للأسف، فوّت على نفسه تلك الفرصة.

□□□

الفصل التاسع والعشرون
الرأى العام والنشرة

الاستثارة التى سببتها لسكان مدينة القاهرة استمرت فى شحنتها الموجبة، وقد عُقد مجلس كلية الطب وصدر عنه ذلك القرار:

"وجد المجلس أن معظم الأمور التى وردت فى النشرة التى قام بتوزيعها الدكتور ألبورت، كانت دائما مسارا للمناقشة داخل المجلس فى عديد من الاجتماعات، وقد أرسلنا وجهات نظرنا إلى الجهات الأعلى المسئولة. وقد تم إخطار المجلس إنه تم تكوين لجنة وزارية منذ الصيف الماضى، تبحث فى إجراء الإصلاحات الضرورية فى نظم المستشفيات، وأن تقريرها جاهز. المجلس يبدى عظيم أسفه للروح البادية فى نشرة الدكتور ألبورت، كذلك إشارته لأمور تختص بالسياسة أو الدين".

الشيء الوحيد الواجب أن يأسف له مجلس الكلية هو أن معظم أعضائه أهملوا واجبات وظائفهم لعديد من السنوات. إنهم كأساتذة فى الكلية، لم يفعلوا شيئا لإصلاح المعوج من الأمور، على الرغم من أنهم يعلمون تماما المعاملة السيئة التى يعانى منها المرضى من قبل التمورجية. هم فشلوا أيضا فى

مساندة جهودى على الرغم من أننى أستاذ إنجليزى ضحى بوظيفته واستقراره فى سبيل تحقيق معاملة حسنة للفقراء من مواطنيهم.

ما أن غسل أعضاء اللجنة أيديهم من أى ذنب، حتى نهضوا بكل همة ونشاط متوجهين إلى عياداتهم الخاصة.

فى ٣٠ أكتوبر، ذهبت لزيارة الدكتور عزمى باشا فى منزله فوجدت عنده نائب العميد، قال عزمى بأنه شاء تقديم استقالته، لكن رئيس الجامعة رفض ذلك، لأن الأمر كله فى يد القصر.

قال نائب العميد، إننى سببت إزعاجا بالغا لإصدارى تلك النشرة لمعلومية "الخارجيين"، وإنه كان واجبا علىَّ أن أتقدم بشكواى ومطالبى إلى المسئولين بالمستشفى والبرلمان والسفارة فقط، لكنه اعترف بأن محتويات النشرة دقيقة، وأننى سبق وتحاورت معه عن الأحوال السيئة السائدة فى المستشفى. قال أن الوسيلة الوحيدة لمراقبة التمورجية هى أن نعين عددا من أعضاء المراقبين السريين ونضع واحدا منهم فى كل عنبر يبدو كأنه مريض، بحيث عندما يمارس التمرجى البلطجى مهمته فى ضرب وابتزاز المريض الفقير، ينتفض هذا الرجل ويقبض على المجرم ويصطحبه إلى الكراكون، لكنه شرح أن هناك صعوبة فى تنفيذ هذه الخطة، لأن رجل

البوليس سيقتسم الغنيمة مع التمرجى، أو أن يضطر المريض إلى إعطاء البقشيش لرجل البوليس، ليحميه من التمرجى !

فى أول ديسمبر، ذهبت إلى قصر المنيل. بينما انشغلت زوجتى فى مشاهدة متحف العائلة ومقتنياتها والتحف التركية الجميلة فى الدور الأرضى للقصر، كنت أنا فى معية ولى العهد الأمير محمد على، الذى قال لى بكل تعاطف بأننى أديت خدمة جليلة لمصر. قال إنه سأل رجال السفارة البريطانية عن أسباب فرض الرقابة على استقالتى ومسبباتها، ولماذا لم يعضدونى على الرغم من أننى من مواطنيهم. أجابوا بأن السبب يعود إلى أننى لم أستجب لطلبهم فى الحضور إلى السفارة للمناقشة، لكن الأمير أوضح لهم السبب الحقيقى وهو أنهم يحاولون جعل الأمور سلسة مع الحليف بسبب مقتضيات الحرب. كان سموه على حق بالطبع، فإنهم بعدما ووجهوا برفضى مقابلتهم، استخدموا الرقيب الإنجليزى بكل عنف لخدمة زمرة الباشاوات الحاكمين وليمنع ظهور الحقيقة الخاصة بالمعاملة السيئة التى يلقاها المرضى الفقراء، وأن لا يعلم الرأى العام عن مدى بشاعتها، لذا كنت على حق فى تجنبهم.

سألنى الأمير عما إذا كنت مستعدا لمقابلتهم فى السفارة، فرفضت ذلك بشكل قاطع، لأن السفارة لم تهتم أبدا

بالمستشفيات ولم تستشر مرة واحدة الأساتذة الإنجليز من الأطباء عن الأحوال السائدة هناك، ولا يعلمون بالطبع أى أمور تدخل فى دائرة اختصاص وزارة الخارجية البريطانية.

ثم أخبرنى سموه بأنه رأى مدام عبود باشا - وهى الزوجة الاسكتلندية لأحد أعمدة الصناعة المصريين - وعلم منها أنها طبعت ١٠٠ نسخة من منشورى لتوزعها بمعرفتها. ثم ختم حديثه بقوله أن الإصلاحات التى اقترحتها يجب أن ترى النور وتكون محلا للتنفيذ.

بعد المقابلة تجولت فى متحف القصر. شاهدت الأنواع الفاخرة من السيراميك والأوانى الفضية الجميلة، والسجاجيد العجمية الرائعة التى تساوى ثروة طائلة. يوجد فى القصر مفرش للسفرة مرصع باللآلئ والجواهر. من معالم المتحف أيضا مصاحف مذهبة مكتوبة باللغة العربية والتركية، فالأمير رجل مسلم متدين.

فى ظهر نفس اليوم تلقيت رسالة تليفونية، تخطرنى بأن الأستاذ الطبيب الذى رشحته لينضم إلى اللجنة السرية التى ستترجم النشرة إلى العربية وتوزعها، أبدى تخوفه ورفض الانضمام.

فى المساء المتأخر لهذا اليوم، دعيت لزيارة أحد أصدقائى المصريين، وتقابلت مع عدد من الأفراد، كان ضمنهم نائب

برلمانى سابق، ووعدنى هذا الأخير بمقابلة الملك، وبأنه سيقوم بترجمة النشرة والمساهمة فى توزيع ٢٠٠٠ نسخة منها، لكن لسابق دراستى للعقلية المصرية، أدركت أن هذا الرجل لا يملك سوى الكلام وأنه يحاول التأثير فىَّ فقط لا غير.

فى أكثر من مناسبة أدركت أن بعض المصريين الذين قابلونى وأبدوا تعاطفهم، ليسوا سوى جواسيس للحكومة. كنت فى تلك الحالة ما أتردد أبدا فى قول ما أعتقده بشن الأعمال الشائنة لتلك الحكومة.

٢ ديسمبر: ذهبت لمقابلة عميد سابق لكلية الطب إنجليزى الجنسية. سألته عن رأيه فى الأحداث الجارية، إلا أنه بدا خائفا أن ينبث بشيء، لأنه فى الواقع من ملاك الأراضى فى مصر. وقال لى أن أفضل سياسة يتبعها المرء هذه الأيام، هى أن يستبقى رأيه لنفسه.

إنه شىء غير طبيعى أن المصريين والأوربيين الذين يشغلون مراكز وظيفية متميزة، يرفضون أن ينتقدوا الحكومة وأعمالها الفاسدة البادية أمام أعينهم، لأنهم فى الواقع يخشون الوقوع ضحية لحكومة تسندها السفارة البريطانية. هذه الأمور ربما يصدقها المرء لو حدثت فى ظل الحكم الدكتاتورى فى ألمانيا، لكن كيف تحدث فى مصر وحكومتها تدَّعى أنها ديمقراطية ؟ . فى واقع الأمر، مصر تعانى من

حكم دكتاتورى يشبه ذاك الذى يتحكم فيه الجستابو الألمانى.

٤ ديسمبر: تقابلت مع محمد شاذلى باشا رئيس مجلس النواب في غرفته بالبرلمان. سألنى عمن يعتبر مسئولا عن تلك الأحوال السيئة فى المستشفيات التى شرحتها فى نشرتى ؟ أجبته بأنه هو المسئول بالإضافة إلى جميع حكام مصر، الذين يعلمون ماذا يحدث فى بلدهم ولا يفعلون شيئا. لكنه وبعد تفكير عميق، ألقى اللوم كله على السفارة البريطانية، ونصحنى بأن أذهب لمقابلتهم.

إذا كان الشاذلى باشا - المنتمى لحزب الوفد - يعتقد أن السفارة تستطيع عمل شىء ما أو لا تستطيع، فهذا لا أعلمه. لكن ما أعلمه هو، أن المصريين الوطنيين يلقون كل اللوم على بريطانيا بسبب الأحوال السائدة في بلادهم. هم يتعاطفون مع الملك وينظرون لحكومة الوفد بنظرة انتقادية، ويعتبرونها حكومة فاسدة، لا يبحث أعضاؤها سوى على مصالحهم الخاصة فقط.

٦ ديسمبر:ذهبت إلى مكتب المراسلين الصحفيين بالقاهرة. قابلت مراسل جريدة التايمز اللندنية. أخبرنى أنه تقابل مع عدد من الأطباء المصريين الذين أخبروه بعلمهم بما يجرى داخل مستشفى القصر العينى، وأن لا أحد عمل شيئا لملافاة النقص والعيوب. طلبت منه أن يوزع نصف دستة من

نشرتى على زملائه المراسلين، ففعل كذلك.. كلهم حاولوا الاتصال بجرائدهم لمدها بالأخبار الخاصة بموضوع المستشفيات المصرية، لكن الرقيب وقف حائلا دون تحقيق رغباتهم.

بعد ذلك قدت سيارتى إلى مستشفى القصر العينى، هناك أخبرنى أحد الطلبة بصدور أوامر تحذر قيام أى طبيب بتوزيع النشرة وإلا كان مصيره الرفت من الكلية، وأن رئيس الجمعية الطبية، رفض السماح بأن يستمع الطلبة لمحاضرة كانوا قد طلبوا منى إلقاءها، خاصة بما جاء بالنشرة. على أية حال، رفضت من قبل أن ألقى مثل تلك المحاضرة، رغبة منى فى عدم خلق مشكلة سياسية، ولا أنوى الآن أن أغير رأيي هذا. بدلا من ذلك وزعت على الطلبة المتواجدين فى فناء الكلية ثلاثين نسخة تصادف أن كانت بسيارتى.

بعد ظهر هذا اليوم، تلقيت خطابا من المشرف العام الإنجليزى ـ سابقا ـ على مستشفى الدمرداش - هو الآن برتبة ميجور فى الجيش البريطانى - قال فى خطابه "قرأت نشرتك المفتوحة بكل اهتمام وحماس، لقد قضيت ثلاثين عاما فى ذلك البلد محاولا التأثير فى زملائى سواء بالفرض أو المثال، لكى أغرس فى عقولهم بعض الاعتبار للناس واحتراما للواجبات، لكنى أصبت بإحباط وضيق شديد لإخفاقى."

تسلمت أيضا عديد من الخطابات الأخرى، فيما يلى بعض الفقرات من بعضها - كتبت لى سيدة مرموقة من القاهرة تقول: "أشكرك من أجل تقريرك، هو فى مجمله ليس به جديد، فإن أى إنسان له صلة بعالم المستشفيات فى القاهرة لا يجهل ما يحدث"

فى خطاب لطيف أرسلته لى سيدة من الطبقة الراقية فى المجتمع قالت: "أشكرك على تلك المستندات الدامغة التى أرسلتها، إننى سعيدة بنجاحك، وليساعدنا الله ويحقق لنا النصر المبين على تلك الحكومة الظالمة ذات القلب المتحجر"

أخيرا أشير إلى خطاب وصلنى من الإسكندرية. كاتبته هى أرملة ضابط إنجليزى كان قبل نشوب الحرب العالمية الأولى أستاذا لمادة الباثولوجى بالقصر العينى. أثناء الحرب الحالية كان زوجها يشغل منصب رئيس الهلال الأحمر المصرى، ثم ذهب فى مأمورية عمل إلى سالونيكا باليونان، وأثناء عودته تعرضت سفينته للإصابة بطوربيد، وللأسف فقد حياته. فيما يلى بعض فقرات من خطابها:

"تقريرك عبارة عن قطعة بليغة من اللغة وفى الصميم، تكشف بكل وضوح مدى تغلغل الفساد وعدم كفاءة القائمين على شئون المستشفيات الجامعية. كما تعلم فإن النمر لا

يمكن له أن يغير جلده، أيضا لا يمكن للموظف المصرى أن يقوم بواجبات وظيفته بدون الحصول على أكثر مما يستحق. كل ما كتبته اكتشفه زوجى منذ سنوات بعيدة، عندما كان يعمل بمستشفى القصر العينى. هنا فى الإسكندرية كل ربة منزل تعلم تماما أنه يصعب إقناع خدمها بالتوجه إلى المستشفى الحكومى فى حالة المرض، حيث يقول هؤلاء إنهم لا يستطيعون مواجهة سيل الطلبات للبقشيش أو للإهمال الذى يتعرضون له إذا لم يكن البقشيش مرضيا. لقد عرفت هذا الأمر منذ ٤٨ سنة، ولعله سيستمر ٤٨ سنة أخرى بعد وفاتى، إنه أمر مخجل أن يضطر إنسان مثلك لتقديم استقالته لأن احتجاجاته لم تجد أذنا صاغية، لكن ما الذى يمكن أن تفعله غير ذلك ؟"

وصلنى الكثير من تلك العبارات المعزية المعبرة، التى تجعلنى متأكدا أن ما فعلته من فضح لمشاكل المستشفيات المصرية هو الصواب بعينه.

□□□

الفصل الثلاثون
رد رئيس الجامعة على ما جاء بالنشرة

ما الذى يفعله على إبراهيم باشا ؟ إنه يلعب بالنار"

هذه الملاحظة قالها النحاس باشا بعد قراءته لرد رئيس الجامعة على النشرة، وهذا ما علمته من أوثق المصادر.

مع بداية شهر ديسمبر، تلقيت رسالة تليفونية من أحد أفراد طاقم التدريس بكلية الطب، يخبرني فيها أن رئيس الجامعة كلف من يبحث عن سابق أعمالى قبل تعيينى فى مستشفى سانت مارى. أحد المكلفين بهذه المهمة كان هو الأستاذ الذى لا يكلف خاطره بحلاقة ذقنه قبل توجهه للعمل، والآخر هو أكسل أستاذ وله فضائح متعددة. قلت لمن بلغنى، أن سابق خبرتى منشور على الملأ فى الكتابين اللذين قمت بتأليفهما سابقا، هما "بيت الفضول" وكتاب "الجوانب خفيفة الظل فى الحرب

بعدها بأسبوع، تم توزيع رد رئيس الجامعة فى نسختين، الأولى مكتوبة بالعربية والأخرى بالإنجليزية. كلتاهما كانتا مخيبتين للآمال، حيث بنيت أركانهما على المستوى الشخصى من همز ولمز وشتائم متنوعة.

فيهما سلك ذلك الأسلوب المعروف لذاك المحامى الذى يترافع فى قضية خاسرة، فينتهج أسلوب الهجوم الشخصى على المدعى. هو لا ينكر الحقائق، لكنه يتمسك بأعذار غير مقنعة مبنية على أسس واهية. هو لم يشرح أبدا لماذا ترك كلية الطب والمستشفيات الجامعية تنحدر إلى هذا المستوى المتدنى الفاضح، على الرغم من أنه كان مسئولا عن كليهما مسئولية مطلقة تزيد على خمسة عشر عاما. أضعف جزء فى رده، هى أعذاره عن الإهمال وطرحه لكل المسئولية على كاهل الأساتذة، الذين يهملون فى واجباتهم التى يتقاضون عنها أجوراً مجزية تتراوح ما بين ٦٠٠ إلى ١٢٠٠ جنيه سنويا.

فى نسخته الإنجليزية يقول عنى "إننى قد فتحت بابا مواربا بعرضى لمثالب أمام أعين الناس جميعا، على الرغم من أن الجميع يعرفون أنها سائدة منذ سنوات طويلة". أى قارئ للنسخة الإنجليزية يدرك فى الحال أن محررها إنجليزى الأصل. لقد علمت أن كاتبها هو إنجليزى محترم، عضو فى الاتحاد الإنجليزى المصرى. بالطبع كل إنسان لما خلق له.

فى الطبعة العربية التى دبجها رئيس الجامعة بنفسه، لتكون تحت نظر المصريين كافة، أعلن الباشا حالة الجهاد (HAD) ضدى. رفع هذه الراية من الثوابت الشرقية القديمة.

كانت خاتمة الرد عبارة عن تحفة ميمونة من الشتائم المنتقاة على المستوى الدينى. تلك ترجمة لبعض ما ورد فى رده:

"التفسير الوحيد لحملته علينا هو أنه مريض نفسيا، مريض بكراهيته للإسلام والمسلمين. هو يرغب أن يبز زملاءه والمعهد الذى يأويه خصما من سمعة مصر بين الأمم. إنه يتصور باطلا أنه مرسل العناية الإلهية كأنما هو أدولف هتلر، بينما إمكانياته الفنية والإدارية متوسطة أو أقل من ذلك. إننى متأكد أنها منّة من الله سبحانه أن خلصنا من هذا المتعصب الذى كان سيسبب أضرارا جسيمة، لولا حكمة وبصيرة الجامعة ورجالها. لا أحد ينكر أهمية الإصلاح اليوم وغدا وفى المستقبل البعيد، لكن ليس هذا مبررا كافيا لأن يهاجم أو يعلن على الملأ مثل تلك الأمور."

إشارته بأننى أفرق فى المعاملة بسبب الدين يجحده حقيقة، أن المساعدين اللذين اخترتهما للعمل معى ولمدة ست سنوات ونصف التى قضيتها فى مصر كانا مسلمين، كنت قد فضلتهما، لأنهما أصلح الموجودين.

عباراته فى كلا النسختين تنقصهما صفة الدقة. لعل هذا يؤيد مقولة أحد الثقاة الغربيين عاش طويلا فى بلاد المشرق عندما قال: "خاصية عدم الدقة فى القول التى قد تنحدر حتى

تصل إلى مستوى الكذب، هى من الصفات الأصيلة فى العقلية الشرقية قاطبة".

هذا الرجل ينظر إليه دائما كأكثر الرجال استنارة وذكاء، ممن أنجبتهم مصر. يعتبرونه من أفضل المنظمين والمديرين، لذا كان هو أول مصرى يتقلد عمادة كلية الطب، لهذه الأسباب أيضا انتخب ليكون رئيسا للجامعة.

لكنه فى الواقع هو مماثل فى كل شىء لأغلبية الباشاوات المصريين، هذه الطبقة التى تأخذ بخناق اثنى عشر مليونا من البشر وتتحكم فيهم وفى مصائرهم وأسباب سعادتهم وكل مستقبلهم. هؤلاء البشر تتكون أغلبيتهم من البؤساء والفقراء، الذين بالكاد يحصلون على قوت يومهم من رجال ونساء وأطفال الفلاحين.

٦ ديسمبر: قبلت دعوة مدام عبود الاسكتلندية الأصل وذهبت لسرايتها. أخبرتنى أنها قرأت رد رئيس الجامعة. هى تعتبره ردا فاشلا يبحث فيه فقط عن تبريرات لنفسه.

١٠ ديسمبر:كنت راقدا فى فراشى وزورى ملتهب - لعله بسبب المقابلات والمناقشات المستمرة - عندما تلفن لى محمد خطاب بك، عضو مجلس الشيوخ. أخبرنى بأنه سيثير مسألة المستشفيات فى المجلس، ثم طلب منى نسخ إضافية من

النشـرة والمعلومـات.. هـذا الطلب شـفـى المرض من حلقى تقريبا.

هذا المساء أيضا، حضر إلىَّ موظف صغير من السفارة البـريطانيـة، طالبـا عـدة نسخ من النشـرة. هو لديه بعض وجهات النظر المحددة فيما يختص بالأحوال فى مصر. أرجو أن لا يتأذى فى وظيفته بسبب الإشارة إليها. قال لى أنه يجب على إنجلترا أن تصر على إجراء تحسينات للمستشفيات، ووجه اللوم لوطنه لأنه لم يسعَ لتعليم الفلاحين فى الماضى. سألنى عما إذا كنت قد أرسلت نسخة من نشرتى إلى مستر تشرشل، الذى كان فى القاهرة فى ذلك الحين ؟ ، ثم نصحنى بالاتصال بمستر كاسى. هذا الرجل الأخير هو فى الأصل استرالى ويشبه فى الشكل مستر أنتونى إيدن، لكنه لم يتعلم فى جامعة إيتون، وقد أحضروه من نيويورك ليصبح الوزير البريطانى المختص بشئون الشرق الأوسط. كان إلى وقت قريب بسبب معرفته الوثيقة بأدق الأمور الشرقية، حاكما على إقليم البنجاب.

١٣٠ ديسمبر: تقابلت هذا الصباح مع مصرى مثقف ذى ميول تعاطفية مع إنجلترا. كان يعلم بكل الظروف التى أحاطت باستقالتى. قال لى: إن الطبقة المصرية الحاكمة كلها

معادية تماما لإنجلترا، فهم يكرهون ويحتقرون الإنجليز. هناك صديق يونانى أعرفه له علاقات تجارية مع مصر قال لى: لو أن ألمانيا أو فرنسا احتلت مصر لأمكن لأى منهما أن ينظفا مصر تماما، بينما إنجلترا تعاملهم بكل حنو، وهم لا يدركون هذا ! فبسبب ضعف السياسة الخارجية لبريطانيا، تدنت سمعتها إلى الدرك الأسفل فى مصر.

١٥ ديسمبر: تقابلت مع مستر دسمور من منظمة الشبان المسيحيين الأمريكية. أخبرنى أنه مستاء من حالة المستشفيات المصرية، وأنه أخذ أربع نسخ من النشرة ليوزعها على المراسلين الأمريكيين. قال لى: إن أمامى مهمة عظمى وتمنى لى النجاح.

عندما استمعت للفظة "مهمة"، تذكرت ما كتبه اللورد كرومر منذ زمن بعيد: "يجب على الإنجليز أن ينظروا لمهمتهم فى مصر، على أنها العمل على منفعة السواد الأعظم من الناس، حيث يرقد تسعة أو عشرة مليون فى أقصى مكان من السلم الاجتماعى. هم فقراء جهلاء وعلى الفطرة، لكن عنصرهم طيب. لقد استمروا لمدة ستة قرون تحت إدارة حكومات ظالمة، يستعبدهم عديد من الحكام من الفراعنة حتى الباشاوات، إن مهمتنا هى أن نمد يد الصداقة والتشجيع

لهم، وأن نعمل على رفعتهم ماديا ونفسيا من الحالة السيئة التى هم فيها الآن".

للأسف فإن الخارجية البريطانية هذه الأيام تصنع عكس هذا الكلام، لقد مدوا أيديهم إلى طبقة الباشاوات الظالمة المستغلة.

أنا شخصيا أفضل طبقة المصريين الفقراء، بغض النظر عن الأمراض والقذارة التى تفتك بهم، لقد نلت شكرا واعترافا بالجميل من فلاحين بسطاء، فى العنبر الذى كنت مسئولا عنه يفوق بمراحل ما حصلت عليه طوال حياتى المهنية.

لعل الحكاية التالية توضح مدى دماثة خلق هؤلاء الناس، لقد كانت عادة محمد السفرجى ذى المنبت الصعيدى أن يجمع القليل من القروش من باقى خدم المنطقة، ليمنحوهما إلى ملجأ للأيتام فى منطقة بولاق. كانوا يقيمون حفلة شاى بسيطة للأطفال فى شهر نوفمبر من كل عام، والباقى من النقود يوزع على الحالات الخاصة. كان هذا الرجل يطلب منى أن أشارك، فكنت أعطيه ثلاثة أو أربعة شلنات. فى يوم قبل رحيلى من مصر مباشرة، طلب الرجل من زوجتى أن تسمح له بإجازة بعد الظهر ليذهب لبولاق، ليعطى ما جمعه من نقود إلى شيخ المنطقة. عندما استعرضت زوجتى قائمة

التبرعات معه، لم تجد اسعي مسجلا، فسألته: "لماذا لم تضع اسم الدكتور في قائمة التبرعات ؟" فأجاب، "لا أستطيع يا مدام، لأن الدكتور خالي شغل حاليا

٢٢ديسمبر: تلفن لي محمد خطاب بيك. أبلغني أن السؤال الذي تقدم به عبد الفتاح الشلقاني في مجلس النواب. قد تغير في شكله تماما، أصبح مخالفا للأصل. ولأنني كنت عازما على مغادرة القاهرة بالطائرة في اليوم التالي، لذا ذهبت لمقابلته. وجدت عنده الأستاذ المساعد في جامعة الإسكندرية، وهو الطبيب الخاص للنحاس باشا.. علمت أنه حضر لمناقشة خطّاب بيك في تفصيلات استجوابه الذي سيقدمه في مجلس الشيوخ، وللأسف حضر في وقت غير ملائم. قال لنا، أن اللوم يجب أن ينصب على رئيس الجامعة وليس رئيس الوزراء، وأن هذا الأخير مستاء من وزير الصحة، لأنه لم يعرفني علي معاليه السنة الماضية. لكنه لم يفسر لي: لماذا أصرّ رئيس الوزراء علي فرض رقابة لصيقة عليّ؟.

قال لي عضو مجلس الشيوخ: إن كل إنسان مثقف يجب أن يؤازرني في حملتي. وسألني عن رأيي فيمن يعتبر مسئولا عن الحالة المتردية للمستشفيات. أخبرته بأن كل رجل في

البرلمان بمجلسيه يعتبر مسئولا فى هذا الشأن وليس فقط رجال الكلية والجامعة. لكنه قال أن الموضوع أُثير أكثر من مرة فى المجلسين، وأنه إلى أن يتقدم رجل مثلى باتهامات محددة موثقة، سيكون الرد غالبا، أن الاتهامات ليست إلا أكاذيب محضة.

أخبرنى العضو المحترم أن رئيس الجامعة أرسل رده على اتهاماتى للمسئولين فى الخارجية البريطانية، ليقوموا بدورهم بإرسال نسخة منها إلى الكليات الملكية - أدعو الله أن تنال رضاهم وإعجابهم !

تلقت معركتى فى سبيل المرضى الفقراء كل دعم وتأييد من الرأى العام، لكنها للأسف لم تلاقِ نفس المصير مع السلطات المصرية أو الإنجليزية أو الطبية، أما الأساتذة الإنجليز فى كلية الطب فقد فشلوا تماما فى مناصرتى وتأييدى، يماثلهم فى ذلك مسئولو الكليات الملكية البريطانية، الذين سكتوا عن الأحوال السيئة فى المستشفيات التعليمية المصرية، بالرغم من حضور رئيسها إلى مصر ومقابلاته مع كل المسئولين الكبار، لكنه لم يحاول أبدا أن يتقابل معى على الرغم من أننى الأستاذ الأول للطب وزميل الكليات الملكية. لقد تجاهلنى تماما وآثر الوقوف مع الحكومة والجامعة، لعله فى

ذلك يماثل شخصية مستر بكويك الشهيرة فى إحدى روايات دكنز، عندما نصح صديقه مستر سنودجراس قائلا: "أحسن سياسة في أحوال المنازعات، هى أن تقف مع الغوغاء" فرد زميله: "لكن ما العمل إذا كان هناك مجموعتان من الرعاع ؟"، قال بكويك: "إذن قف مع أعلاهم صوتا".

أنا فى الحقيقة لا أعلم عن الفائدة التى تربط بين الكليات الملكية والجامعات المصرية، إذا لم تكن هى فى مصلحة المرضى فى المستشفيات وكذلك طلبة الطب.

المصريون قادرون تماما، أن يماثلونا فى القدرات العقلية، والتحصيلية، وإن كانوا أقل من ناحية التمسك بالمثل والمبادئ. مع ذلك، نركز كل جهدنا على الامتحانات فقط ونفشل فى استخدام تأثيرنا ومركزنا فيما ينفع الناس والمرضى.

سياسيا حصلت على القليل من التعضيد، فالسفارة وضعت يدها ذات القفاز الحريرى فى يد حكومة الوفد. ولم يهتموا أبدا بالمستشفيات، بل بذلوا كل جهدهم لقمع حملتى التى تكشف الحالة المزرية للمستشفيات، وحاولوا منعها من الوصول إلى أعتاب الرأى العام.

فى إنجلترا ترغم الحكومة الأغنياء على مساعدة الفقراء بأسلوبها، لكن فى مصر عندما يستعبد الأغنياء الفقراء، فإن

حكومة الإنجليزية لا تفعل شيئا. يماثلها في ذلك مسئولو كليات الملكية البريطانية.

كان آخر تليفون تلقيته في القاهرة الساعة الواحدة صباحا يوم ٢٣ ديسمبر، قبل أربع ساعات من لحاقي بالطائرة آتية من صديق مصري، يخبرني بصوت مرتعد أن رئيس الجامعة، قال إنه حصل على معلومات مؤكدة من مسئولين بالكليات الملكية البريطانية، أن هذه الأخيرة ستشطب اسمي من سجلات الزمالة بعد شهر من تاريخه. شكرت صديقي هذا، لكني أخبرته بأن لا يقلق لأن ما سمعه ليس سوى إشاعة ، ثم ذهبت مرة أخرى أستأنف نومي قرير العين هادئ البال.

□□□

الفصل الحادى والثلاثون
مغادرتى مصر
والاستجواب فى البرلمان

تأخر موعد مغادرتى مصر لمدة شهرين كاملين، بسبب الإجراءات الروتينية لأجهزة الحكومة، كذلك لعدم تأكيد الحجز على الطائرة لى ولزوجتى، بالإضافة إلى ضياع عدة أيام ألهث فيها وراء الباسبورتات بسبب التباطؤ المدهش فى الأداء بالمصالح الحكومية المختصة. كل من تعامل مع الجهة المختصة بإصدار تصاريح المغادرة، سيتفق معى أن هذه الجهات ليست على المستوى المطلوب من الكفاءة.

لكن كانت مشكلتى الكبرى هى كيف أخرج أوراقى ومذكراتى خارج البلاد، وهى معرضة بالطبع للمصادرة. لعلاج تلك المأساة تركت شنطة صغيرة بها كل الأوراق، التى ساعدتنى بعد ذلك فى تأليف هذا الكتاب لدى شخص مسئول بالقاهرة. كان هذا الشخص يرتعد خوفا، لكنه وعدنى بأنه سيحاول إرسالها لى فى أقرب فرصة لمحل إقامتى بكينيا. فى الحقيقة فشل هذا الرجل فى تحقيق وعده. بعد انتظار طالت مدته لتصبح ثلاثة شهور كاملة، رجوت أحد الضباط

المسافرين للقاهرة أن يصطحب معه شنطتى أثناء رحلة عودته، بالفعل تمكن بمهارة من إخفائها عن الرقيب العسكرى وسلمها لى بعد يومين.

عندما وصلت إلى مطار هليوبوليس يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٤٣، وجدت هناك الأسقف جوين مشتركاً فى نقاش حاد مع ضابط الجمارك المصرى، الذى أصر على تفتيش حقيبته، عندما فتحها له وجد الأخير أنها مليئة بالعظات، لذلك سعدت لأننى لم أصطحب معى "عظاتى".

أثناء إقامتى فى كينيا، قضيت ثمانية أشهر أدون تجربتى الخاصة بدفاعى عن الفلاحين المصريين. لم أتلقَ خلال تلك الفترة الطويلة سوى ثلاثة خطابات من مصر، لكنى تمكنت من الحصول على تقرير شامل عن المناقشات، التى ثارت فى مجلس الشيوخ المصرى عما أثرته من مواضيع.

الآتى تقرير صدر بجريدة "إجبشيان جازيت" فى يناير ١٩٤٤

"بعد مناقشات استمرت خمس ساعات ليلة أمس، صوَّت مجلس الشيوخ فى شأن الثقة بسياسة الحكومة، عما أظهره التقرير الذى أعده الدكتور سيسيل ألبورت حال تقديم استقالته من الجامعة. حضر كل النواب بما فيهم رئيس المجلس، قال النائب محمد خطاب بيك بأنه يتكلم بصفته

مصريا وليس كرجل أحزاب، أكّد الاتهامات التى كالها الدكتور ألبورت وتخص مستشفى القصر العينى وفؤاد الأول. دكتور ألبورت هذا كان أستاذا للطب بجامعة القاهرة ومديراً للقسم الطبى بمستشفى فؤاد الأول".

قال سعادة النائب إن أى إنسان لا يستطيع أن يغامر، ويرسل أحد أفراد عائلته للعلاج فى أى من المستشفيين، بل يرسلهم إلى مستشفى أجنبى، لأنهم على علم تام بما يجرى داخل مستشفيات الحكومة. أقسم أنه يعرف حالة مريض طُرد من إحدى تلك المستشفيات، بالرغم من تردى حالته الصحية، ولم يستطع النائب إعادته إلا بعدما أبلغ بعض المسئولين الحكوميين البارزين.

قد استقال الدكتور ألبورت فى ٣٠ مارس ١٩٤٣، لكن الحكومة لم تقبل استقالته إلا بعد ستة شهور لاحقة. قال الدكتور فى نشرته إنه عندما تقدم باستقالته تقابل معه بعض المسئولين، ووعدوه بزيادة فى مرتبه قدرها ٢٠٠٠جنيها فى السنة، كانت إجابته - كما قال سعادة النائب- أنه لن يستمر فى العمل إلا إذا حصل على وعود أكيدة بإجراء إصلاحات شاملة فى المستشفيات المصرية.

من ضمن ما شكا منه الأستاذ ألبورت، هو أن الغذاء الذى يقدم لمرضى المستشفيات فقير للغاية، وأن الممرضين

يستولون على حقن البنسلين ويحقنون المرضى بالماء، وأن طاقم المستشفيات بالكامل يتصفون بالإهمال الجسيم فى أداء أعمالهم. كتب الدكتور ألبورت أيضا أنه استطاع شراء أدوية من خارج المستشفى، بالرغم أنها لا تستعمل فى أى مكان آخر سوى المستشفيات التعليمية. كتب أيضا أن الممرضات والتمورجية يهددون المرضى ويسرقون نقودهم ويضربونهم ويسرقون أدويتهم وغذاءهم. قال فى تقريره أيضا، إن اللحوم المقدمة للمرضى ليست سوى بعض من العظام والشغت، أما اللبن المقدم فكميته ضئيلة ومغشوش بالماء.

ثم أشار النائب خطاب بيك إلى التقرير الذى كتبه على إبراهيم باشا، ردا على نشرة الدكتور ألبورت. قال سعادة النائب، أن نسختى الرد العربية والإنجليزية لا تتطابقان، وأن النسخة الإنجليزية أقل حدة وعنفا من النسخة العربية. دكتور على إبراهيم اتهم الدكتور ألبورت بالتعصب الدينى والعنصرية تجاه المصريين، لكن هذا الاتهام غير حقيقى، لأن اهتمام هذا الطبيب كان يجرى جميعه فى صالح البشرية بغض النظر عن العنصر أو الدين.

إننى أود أن أسأل الدكتور على إبراهيم – وما زال الكلام للنائب– لماذا يتهم الآن الدكتور ألبورت بأنه متعصب ومهووس، بالرغم من مرور ست سنوات ونصف منذ تعيينه؟

تابع سعادة النائب كلامه وقال بسخرية: هذه "الشخصية البذيئة"، كما يصفه الدكتور على إبراهيم، بذل كل جهد ممكن، وتعرض لمتاعب جمة للحصول على أمصال لمرض التيفوس من أصدقائه الأمريكان، وقدمها كلها للمستشفى الذى يعمل به.

كان رد الحكومة الذى ألقاه وزير المعارف، نجيب الهلالى باشا هو:- "مصر قادرة أن ترعى نفسها بدون مساعدة من أحد. نحن لا نريد من رجل أتى من جنوب أفريقيا أن يأتى ليعلمنا واجباتنا، إذا كان هذا الرجل يحب مصر فعلا فلم سلك هذا الاتجاه. هو فى الواقع ينحو نحو الهدم وليس البناء". وواصل الوزير اتهاماته قائلا، "مما يؤكد تعصب هذا الطبيب ومحاربته للشريعة الإسلامية قوله، أنه يستنكر اعتبار النساء أقل درجة من الرجال، وأنهن يجب مساواتهن بالرجال فى المعاملة بالمستشفيات !" ثم اتهم الوزير الدكتور ألبورت بأنه رجل مغامر، أضاف بعدها بأن عقد هذا الرجل انتهى بعد خدمة خمس سنوات، وأن طلبه التجديد لخمس سنوات أخرى قد رفض. مع ذلك، تم التمديد له لمدة سنتين. الاتهامات التى كالها لنا، ليست سوى لتحقيق رغبته فى الشهرة، لأسباب خاصة تكتنف وجدانه وضميره.

اتهم الوزير الدكتور ألبورت بأنه رجل "مجنون"، لأنه ألقى

مرة محاضرة عنوانها، "وسائل تحسين صحة الطبقة الحاكمة في مصر"، فيها ذكر أهمية الرياضة، وأنه على الوزراء أن لا يهملون الجرى على مدارج النوادى والملاعب.

بالإشارة إلى ما ذكره هذا الطبيب عن السرقات التى تحدث للمرضى، قال سيادة الوزير، إن السرقات منتشرة فى كل مكان، ونحن نبذل كل جهد لمنعها فى المستشفيات.

ردا على ادعاءات هذا الطبيب بأن التمورجية يضربون المرضى، فقد اعترف الوزير بتواجد بعض تلك الحالات - وقد عوقب الضاربون - لكن معظم هذه التهم كاذبة.

أشار الوزير بأن الأدوية التى تصرف من مستشفى القصر العينى، تباع أيضا فى بعض الأماكن، عندما سُئل أن يحدد بعضها، تحجج بأنه لا يتذكرها الآن - بالطبع لا توجد مثل تلك المحلات.

بالنسبة إلى الشكوى التى تدعى أن طعام المستشفيات أسوأ من طعام السجون، قال سعادة الوزير بأن الشخص المسئول عن الأغذية بالمستشفى هو زميل للدكتور ألبورت، كان واجبا على الأخير أن يتقدم بشكوى له، لكن هذا لم يحدث بسبب بسيط وواضح، هو أن الطعام ليس به عيب على الإطلاق.

ثم أعلن الوزير فى النهاية، أنه تم تكوين لجنة لبحث

الاقتراحات اللازمة لإجراء تحسينات فى نظم المستشفيات، إحدى هذه الاقتراحات هى، أن يمنع الأطباء من الخدمة خارج المستشفيات على أن يعوضوا عن ذلك تعويضا مجزيا.

نال نجيب الهلالى باشا تصفيقا حادا فى نهاية رده، ثم رفع الأعضاء أيديهم عاليا بعد التصويت معلنين تأييدهم له ورضاءهم عنه."

فى مساء نفس اليوم، قرأت مقالا فى جريدة "إجبشيان جازيت"، فى صدر صفحتها الأولى مكتوب:-

"كل إنسان مهتم بالصالح العام لمصر، يأسف لما حدث فى مجلس الشيوخ، فبينما حصلت الحكومة على تصويت بتجديد الثقة، بعد مناقشة ما جاء بنشرة الدكتور ألبورت عن الأحوال السيئة بمستشفى القصر العينى، استمعنا إلى دفاعات حكومية، تنصب فى مجملها على الهجوم الشخصى على شخصية الدكتور ألبورت، بينما أُزيح صلب الموضوع جانبا. ادعت الحكومة أن هذا الرجل مجنون أو متعصب أو مغامر، بالطبع ليس هذا هو الرد المناسب على الاتهامات الموضوعية التى ذكرها الدكتور فى نشرته. هذا ما قرره خطاب بيك، كأنهم اكتشفوا تلك الصفات المعيبة فى الرجل بعد سبع سنوات من خدمته فى المستشفيات الحكومة.. المأساة أن خلف هذا الساتر من الدخان الكثيف ضاعت الحقيقة، فكثير

مما ذكره الدكتور ألبورت فى تقريره صحيح. مثلا شكواه من المعاملة السيئة التى يلقاها المرضى من التمورجية، قرأنا عنها فى رواية مستر نيتل المسماة "دكتور إبراهيم"، حديثا أصدرت اللجنة المالية لمجلس النواب فى مجال تعليقها على الموازنة العامة للدولة الآتى:

"ما زالت اللجنة تطلب من سعادة وزير المعارف، أن يجد حلا للمشاكل التى تحيط بمستشفى فؤاد الأول، فالإنسانية جمعاء تتعذب مما يحدث فيها. هناك جهد شاق مطلوب بذله للقضاء على أسباب الشكاوى، التى تقدم بها أفراد وجمعيات وصحف ومرضى وأصحاء أيضا. يعلم الوزير جيدا أن التعليم هناك لا يلقى الاهتمام الكافى من الأساتذة، وهناك قسوة فى المعاملة الإنسانية للمرضى، أما العلاج فهو فى أسوأ حالاته. استمرت اللجنة فى تقريرها لتقول، إنه لا يمكن للحكومة أن تغض النظر عما يحدث وإنه يجب البحث فورا عن حلول جوهرية وفعالة. مرة أخرى، فى الشهر الماضى فقط أعلنت جريدة "جورنال دى إيجبت"، أن عدة مئات من الأمتار من الأسلاك الكهربائية قد سرقت من المستشفى، واكتشفت السرقة عندما لاحظ أحدهم أن الساعات الكهربائية لا تعمل.

"وبالرغم من أن كل تلك الأمور تحت معلومية الجميع، إلا إنه عندما يتقدم أحد طالبا الإصلاح، فإنه يتلقى التأنيب

والقدح جزاءً له. ليس الدكتور ألبورت وحده هو الذى يتهم الحكومة الحالية بأنها المذنب الأول فى هذه القضية، فالأمور تفاقمت وتأزمت على مدار سنوات عديدة. نأمل أن تواجه الحكومة الأمور بشجاعة، وتنظر بتفحص وتمعن لمشاكل المستشفيات كلها على مستوى القطر.

هناك شكاوى عديدة تصلنا خاصة بمستشفيات العزل ومستشفيات أخرى، وبما أن موجة الإصلاح فى أوج استعارها، لذا يجب بحث كل حالة على حدة بكل دقة متناهية، ويا حبذا لو قامت بذلك هيئة مستقلة تناضل، لتحدث تغييرات إيجابية بأسرع وقت ممكن"

لقد أثلج صدرى ذلك المقال الشامل الذى حرره كاتب جريدة الجازيت، لكنى أسفت لأن الوزير الهلالى باشا سار على درب رئيس الجامعة ولم يختط لنفسه سبيلا منفردا.

كانت نتيجة المعركة البرلمانية - بغض النظر عن ظفر الحكومة بثقة المجلس النيابى- تعتبر فى حد ذاتها سببا فى إجراء بعض الإصلاحات التى طالبت بها، وهذا مأخوذ من تقرير ظهر فى جريدة "إجبشيان جازيت" فى ٢٣ يناير ١٩٤٤:-

"ظهرت نتائج التقرير الذى أصدرته اللجنة، التى تكونت للتحقيق فى أحوال مستشفى القصر العينى ومستشفيات

جامعة فؤاد الأول. لعلنا نذكر أنه أثناء المناقشة البرلمانية التى تناولت ما جاء بالتقرير، الذى أصدره الدكتور سيسيل ألبورت المعنون (خطاب مفتوح لفضح مخازى مستشفيين جامعيين)، قال الوزير إنه أمر بتكوين لجنتين للتحقيق. كان التقرير قد وضّح أن هناك إهمال جسيم من جانب بعض من هيئة التدريس الطبى بالجامعة، وأن عدداً كبيراً منهم لا يحضر للتدريس بالمرة، وآخرون يغادرون قبل المواعيد المحددة، وأن السنة الدراسية لا تتجاوز الستة شهور بسبب الإجازات المتعددة، وإن هناك وقت كبير تستغرقه الامتحانات.

فيما يختص بعدم انتظام الأساتذة فى التدريس، بسبب انشغالهم بعياداتهم الخاصة، هناك اقتراح تحت البحث لنقل تبعية المستشفيات الجامعية لوزارة الصحة، بدلا من وزارة المعارف، وسوف تكون الإدارة بتلك المستشفيات، عبارة عن مدير عام ومعه ثلاثة مساعدين يشرفون على مستشفيات القصر العينى، وفؤاد الأول، ولورد كتشنر. سوف يتم اختيار المدير العام ومساعديه الثلاثة من خارج هيئة التدريس، ويكونون مسئولين عن نوعية الطعام المقدم للمرضى. وتوزيع الأدوية عليهم، كذلك ترى اللجنة أن تزداد مرتبات هيئة التدريس، طالما أنهم سيعملون وقتا كاملا، هو ست ساعات لمدة ستة أيام فى الأسبوع.

يجب تخصيص وقت أطول لتدريب طلبة كلية الطب، على أن تلحق السنة الإعدادية لكلية الطب، وليس لكلية العلوم، كما هو حادث الآن.

"من المتوقع أن يتقدم الوزير بطلب موافقة البرلمان، يعطى الحق لمجلس الوزراء فى تحديد أعضاء اللجان وتعيين العميد وطاقم التدريس بكلية الطب."

ربما يظن أى إنسان لم يتعامل مع المسئولين المصريين من قبل، أنه قد حدث تغيير مفاجئ فى العزم والضمير، وأن هناك نظرة عطف وتفهم، قد نبتت وترعرعت تجاه الفقراء من المرضى من جراء مجهوداتي. لكن ما أبعد الحقيقة عن ذلك، لقد أجبرت الحكومة تحت ضغط الرأى العام أن تتقدّم بتنازلات، لكن ما إن تهدأ الأمور حتى تعود المستشفيات لسابق عهدها.

الأطباء من الباشاوات الأغنياء، كذلك الأخصائيون والجراحون، أصدقاء الوزراء وكبار الموظفين لن يغيروا فجأة مفاهيمهم وأساليبهم، بمجرد تدخل رجل إنجليزى ملعون، أثار تلك المواضيع.

أيضا لن يحدث أى تطور أو تغيير مأمول، إذا لم يتم التخلص تماما من فئة التمورجية، ويسرى نظام حديث للتمريض.

أنا شـخـصـيـا لن يملأ قلبى الرضـا، إلا إذا وصلت المستشفيات المصرية، التى عملت فيها لمدة تقرب على السبعة أعوام، إلى مستوى المستشفيات العريقة، كسانت مارى والمستشفى الملكى بأدنبره.

مع ذلك، فإن هذا لن يحـدث - وأنا على يقين من ذلك - بدون حدوث تغيير شامل فى الاتجاه والروح، وإلى أن تحكم البلاد حكومة يكون ديدنها العدل والرحمة.

المعلومة اللاحقة تلك أضفتها لهذا الكتاب بعد الانتهاء من كتابته، وقد أضفتها هنا، لأنها تلقى ضوءاً باهراً يبرز طريقة عمل وعدالة الحكومة المصرية الحالية، ومن أمدنى بالمعلومة هو طبيب مشهور كان قد أرسل لى خطابا عن طريق الحقيبة الدبلوماسية لدولة أوروبية، بذلك نجت من تعنت الرقيب. هو يقول فى خطابه:-

"تم التجديد لرئيس الجامعة للبقاء فى منصبه، أما عزمى باشا عميد كلية الطب، فقد تعب من كثرة انتظاره لقرار التجديد من وزير المعارف، لذا تقدم باستقالته فى عشر صفحات.

قال فى صدر استقالته، إنها كانت بسبب التقارير التى كان مصيرها سلة المهملات، واللجان التى لا تنعقد أبدا، كذلك العقبات الفظيعة التى وضعت كعوائق أمامه خلال السنوات

القليلة الماضية.. بالطبع لم تذكر الجرائد اسم الدكتور عزمى.

بذلك استقر السير على إبراهيم باشا فى مركزه، وهو الذى كان عميدا لكلية الطب لمدة إحدى عشرة سنة، ثم وزيرا للصحة لمدة ستة شهور، ثم رئيسا للجامعة خلال الثلاث سنوات الماضية، على الرغم من أنه يعتبر المسئول الأساسى عن الهوة المؤسفة التى رسفت فيها المستشفيات، بينما عزمى باشا الذى شغل منصب عمادة كلية الطب خلال الفترة من سنة ١٩٤١ حتى ١٩٤٤، والذى بذل كل جهد مستطاع لتحسين الأحوال فى المستشفيات، يُجبر أخيرا على تقديم استقالته.. يا للعجب.

□□□

الفصل الثانى والثلاثون

اقتراحات بناءة

يعتبر الموقف السياسى للمسألة المصرية خارج اختصاصى، لكن فليكن واضحاً أمام أى إنسان مهتم فعلاً بمبادئ الحرية، أنه من الضرورى عمل شىء ما لمصر والمصريين. المسئولية الأولى تقع على عاتق بريطانيا العظمى، التى سلمت خمسة عشر مليوناً من البشر إلى حضن حفنة من الباشاوات الجشعين.

كان من المفترض أن يكون الاتجاه السياسى لهذا البلد ديمقراطياً فى مبناه، لكن للأسف، انتهى إلى الوقوع تحت سنابك حكم مطلق، وذل اقتصادي يعانى منه الفلاحون نصف الجياع لمدة لا تقل عن مائتين أو ثلاثمائة سنة.

عندما احتلت إنجلترا مصر منذ ستين عاما، كان المستقبل مشرقا ومبشرا أمام الشعب المصرى، لكن للأسف لم يستفيدوا شيئا من وضعهم بدون ذنب ارتكبوه. كانت التجربة اللاحقة التى حدثت، وهى إعطاء المصريين حق حكم أنفسهم، تجربة فاشلة بكل المقاييس، وكان مقدرا أن يحدث هذا لهم. إن هذا الشعب اعتاد طوال تاريخه أن يتعرض لسوء المعاملة،

والقهر والاستبداد من حكامه ذوى الخبرة الضئيلة فى مجال الديمقراطية الحديثة، والحكم باستخدام مبادئ العدل والإنصاف، والعمل على تحقيق مصالح ملايين البشر من الفلاحين الفقراء الجهلاء.

كما هو متوقع، استلم الحكم مجموعة من الأغنياء وبعض المتعلمين، الذين تنقصهم التقاليد الراسخة، والذين عملوا جاهدين على استغلال الطبقة العاملة أسوأ استغلال مراعين مصالحهم الشخصية فى المقام الأول، ومصلحة أصدقائهم وأقاربهم.

إن مصر محتاجة إلى إعادة تنظيم وتنظيف، ولا ينتظر من طبقة الباشاوات ذوى الأخلاق الوضيعة أن يفعلوا هذا. هناك أقلية منهم تستحق الاحترام، لكن الأغلبية منهم ينقصها التمسك بمبادئ الأمانة والشرف.

أخبرنى أحد الأطباء الثقاة، أن معظم الوزراء ورجالات الجامعة يرجع منبتهم الأصلى إلى القرية المصرية. لعلهم شاهدوا بأعينهم الفظائع وأمارات اليأس التى تعيش فى ظلها القرى، لكنهم ما أن يصلوا للمناصب الرفيعة، حتى يكون همهم الأوحد هو جمع المال بأى وسيلة، لكى يتأكدوا تماما هم وعائلاتهم أنهم لن يعودوا مرة أخرى للقرية، وإلى حلقة البؤس

التى كان يرفل فيها آباؤهم وأجدادهم.

كثيرا أثناء محاضراتى كنت أنصح الطلبة أن يذهبوا لخدمة القرية بعد التخرج، كان كل ما يفعلونه هو أن يهزوا رءوسهم، فالمهايا التى تدفعها لهم وزارة الصحة متدنية للغاية، والفلاحون لا يستطيعون سوى دفع القليل من القروش نظير خدماتهم.

أما المعيشة هناك فهى شبه مستحيلة، فلا توجد هناك حياة اجتماعية، أو نواد أو أى مجال للتسلية، بالإضافة إلى أن المستوصفات والممرضات هناك فى حالة بدائية متخلفة، لذا فإن ممارسة الطب هناك لا تجذب أحدا.

إلى حد ما، يصعب توجيه اللوم لهم. ومع ذلك، فإن وجودهم هناك يعتبر ضرورة قصوى، لكنهم لن يتجهوا ناحية القرى إلا إذا أرغموا على ذلك، أو إذا لحقت بتلك القرى سمات الحضارة والتمدين.

إن تسعة أعشار الشعب المصرى من الغلابة، الذين ليس أمامهم أى بارقة أمل فى المستقبل، إذا تركوا فريسة سهلة تحت رحمة الطبقة الحاكمة الحالية. على إنجلترا التزام أن تتخذ خطوات جادة لتمكين حكم هذه البلاد بواسطة حكومة عادلة متنورة، وباتباع الأسلوب الديمقراطى الصحيح.

من اصعب تصور إنجلترا وهى متمسكة ومتحكمة بقناة السويس، أن تترك خمسة عشر مليونا من البشر فى تلك الحالة المؤسفة التى يرسفون فيها الآن.

إن إنجلترا لا ترغب فى مصر.. هذا إلى حد علمى ! وآخر ما ترغبه هو أن تتجشم مؤنة حكمها المباشر مرة أخرى، لكنها تستطيع أن تتخذ خطوات فعالة، لتدريب الشباب المصرى على أساليب الحكم والإدارة، وأن ترسخ القواعد الأخلاقية والتنظيمية لأى مجموعة واعدة منهم قادرة على تسيير مصالح مواطنيها بكفاءة وعدل.

كيف يتم هذا الأمر ؟

أقترح بعد انتهاء هذه الحرب- أن تنشأ جامعة سياسية فى القاهرة، وتكون منفصلة تماما عن جامعة فؤاد الأول الحالية. هذه الجامعة تكون مماثلة لجامعة كامبردج أو جامعة هارفرد الأمريكية. يكون طاقم التدريس من الإنجليز والمصريين الذين تعلموا فى كامبردج أو أكسفورد، ويكونون قد تشبعوا بالتقاليد الراسخة لهاتين الجامعتين العريقتين.

سوف تكون هذه الجامعة الوليدة هى الرائدة فى الشرق الأوسط، وسوف تجذب إليها الشباب ذوى الطموحات البرلمانية، والذين ينشدون الرفعة فى مجالس الحكم فى

بلادهم، بالطبع تستفيد من خدماتها البلدان العربية الأخرى المحيطة.

بعد التخرج يقضى الشاب سنة أو اثنتين فى بعثة فى إحدى الجامعات الإنجليزية أو الأمريكية. بعد عودته يلحق بإحدى الإدارات الحكومية فى مواقع المسئولية. الفتى الذى يفشل فى التمسك بالمبادئ الأخلاقية والثقافية التى رسمتها له الجامعة، أو ذاك الذى لا يتماشى مع حيثيات الحكومة الواعية المستنيرة المتطورة يفصل فورا.

لا يشملنى أى قدر من الشك فى إمكانية تدرب الأجيال الجديدة، ويحيطنى قليل من الشك فى إمكانية خلق تغيير حقيقى فى عقلية، وقلب وأسلوب الأجيال المتقدمة نوعا فى السن.

لقد أتيحت لى الفرصة أن أدرس عن قرب الشباب المصرى، ما بين سن العشرين والخامسة والعشرين من العمر، وأفئدتهم ما زالت متفتحة لتلقى العلم، وراعنى وأذهلنى أنهم ليسوا فقط بارعين وقدراتهم تماثل الأوروبيين، لكنهم أيضا قادرون على القيام بأداء واجباتهم - إذا كان المثال شاخصا أمامهم - بكل ضمير حى وكفاءة ومقدرة.. هم لديهم غريزة تلقائية للتقليد، الذى يمكن أن يكون خيرا أحيانا وشرا

مستطيرا أحيانا أخرى.

من خلال تجربتى ومعرفتى بأخلاق هؤلاء الشرقيين المثقفين، أثق أن الكثير منهم يمكن تحويله ليصبح ذا ضمير حى، ومدير من الدرجة الأولى، لكن من الضرورى أن يدربوا باتباع المثال الذى يرسخ فيهم القيم الأخلاقية والاجتماعية، وما يثبت لهم أن التمسك بتلك الأمور أكثر فاعلية ومنفعة شخصية، بديلا عن الانغماس فى المؤامرات الرخيصة والرشوة والفساد، وإهمال الواجبات والكذب والتصرف عموما كأنهم أنصاف متحضرين.

إذا أمكن لهتلر أن يحول عشرين مليونا من الشباب البادى التحضر إلى أكبر العصابات بربرية، لذا فإنه ليس من المتعذر تحويل عدد كاف من الشباب المصرى بعد جيل واحد، ليصبحوا حكاما لمصر بأحسن السبل الديمقراطية.

إن تمويل مشروعات تعليم الفلاحين لا تمثل مشكلة حقيقية، فمصر اليوم تعتبر من أغنى الدول مقارنة بحجمها. معظم النقود وردت من بريطانيا بسبب ضرورة الدفاع عن مصر خلال حربين عالميتين، والباقى يرد من الزراعة.

الباشاوات يدفعون أقل قدر من الضرائب، أما الفلاحون فهم الذين يدفعون النصيب الأكبر منها.

عندما حضرت إلى مصر لأول مرة كنت أدفع ضريبة قدرها ستون جنيها على مرتب سنوى قدره ٢٠٠٠ جنيه، بعد فترة قصيرة صدر قانون جديد للضرائب، وتوقعت أن أدفع ٢٠٠ جنيه سنويا، لذا كم كان مقدار دهشتى عندما أخبرنى البنك الأهلى أن الضريبة السنوية على مرتبى أصبحت ٥٨ جنيها، أى أقل بمقدار جنيهين عما كنت أدفعه سابقا. السبب فى ذلك فى منتهى الوضوح، فهم إذا فرضوا ضريبة ثقيلة على الموظفين الإنجليز، فإنهم بالطبع مضطرون إلى احتساب نفس الفئة الضريبية على أنفسهم - هم بالطبع ليسوا على استعداد لفعل ذلك.

للحصول على الأموال اللازمة لإنشاء جامعة سياسية، والصرف على التعليم والخدمات الصحية والاجتماعية، يجب إقرار نظام عادل لتحصيل الضرائب.

□□□

الخلاصة

الاقتراحات التى تقدمت بها، تهدف إلى خلق مستقبل واعد للطبقة الوحيدة من البشر، الذين أصفهم بأنهم على قدر كبير من التهذيب والعطف والكرم، مع قدرة عجيبة على نضاء ساعات طويلة تحت نير العمل الشاق. أى مشروع مهما كان نوعه ومخصص بالفعل لخدمة الفلاحين، يحتاج إلى رقابة ومتابعة دقيقة من رجال موثوق بهم، وعلى درجة عالية من الكفاءة، ليقفوا سداً عالياً أمام محاولات استغلال الفلاحين من فئة الموظفين معدومى الضمير وفئة المرابين وما شابههم.

الحكومة العادلة القادرة على إنصاف الفقراء المصريين، تعنى تلك التى فى مقدورها واستطاعتها أن تعتق هؤلاء المساكين من ذل العبودية على مدى ثلاثين سنة، وليس ثلاثة قرون. هذا يدعو بالضرورة إلى ابتكار الوسائل لتحقيق ذلك.

إن على بريطانيا واجباً حتمياً، هو أن لا تترك دول الشرق الأوسط بعد الحرب فى حالة من الارتباك والفوضى، للحفاظ على مصالح ملايين الفقراء المصريين. وترقية حياتهم. يستلزم ذلك انتخاب حكومة وطنية مستنيرة على أسس ديمقراطية سليمة.

وبهذا تنتهى مسألتى وقضيتى التى تتمثل فى الدفاع عن الفلاحين، والمرضى الفقراء لأقدم حضارة فى التاريخ.

ختام

من أكثر الأمور طرافة، أن القدر يلعب دوره بقسوة عندما تتهيأ له الظروف المتصلة بحياة البشر، فبعد سنة من استقالتى من خدمة مصر، سمعت بكل الأسف والأسى خبر وفاة الصديق العزيز أستاذ الصحة العامة فى جامعة القاهرة بمرض التيفود.

منذ عدة شهور سابقة، كان قد تقلد منصب وزير الصحة فى وزارة الوفد، وأعلن فى الصحف أنه قد تم القضاء نهائياً على وباء مرض التيفود فى مصر. كان هذا الرجل من أكثر الوزراء ثقافة وتقدماً، ومعايير مكافحة هذا المرض باتباع وسائل المعيشة الصحية، تقع كلها على كاهله. كأستاذ لمادة الصحة العامة فى كلية الطب، كان مسئولاً عن تدريس الطلبة الشبان قواعد التطعيم والوقاية من هذا المرض. ولكى يتمتع هو بالمناعة من هذا الوباء، كان لزامًا عليه أن يطعم باللقاح الذى اكتشفه الدكتور ألمورث رايت المسمى T.A.B ،الذى يطعم به كل جندى عبر البحار كإجراء روتينى. مع ذلك، فإن المسئول الأول عن صحة المصريين ومكافحة أمراض المناطق الحارة مات من التيفود.. عجبى.

الفهرس

رقم الصفحة	الفصل
٣	مقدمة المؤلف
٥	مقدمة المترجم
٩	**الفصل الأول:** مصر والطب الإنجليزى
١٩	**الفصل الثانى:** لماذا أصبحت مدرساً للطب
٣٥	**الفصل الثالث:** مصر القديمة والمصريون
٥١	**الفصل الرابع:** الطلاب المصريون هذه الأيام
٦٤	**الفصل الخامس:** مصر الحديثة والفلاحون
٨٧	**الفصل السادس:** المجتمع الإنجليزى فى مصر
٩٩	**الفصل السابع:** قصر الملك
١٠٨	**الفصل الثامن:** السفارة الإنجليزية- النحاس باشا- الكتاب الأسود لمكرم عبيد
١٢٦	**الفصل التاسع:** شخصيات من كلية الطب
١٤٠	**الفصل العاشر:** مجلس كلية الطب
١٥٠	**الفصل الحادى عشر:** الطب المصرى قبل كرومر
١٥٧	**الفصل الثاني عشر:** مستشفى فؤاد الأول
١٦٧	**الفصل الثالث عشر:** التمورجية الذكور فى مصر

الفصل الرابع عشر: الأوبئة فى مصر ١٨٩
الفصل الخامس عشر: الأقسام الخارجية للمستشفى ٢٠٣
الفصل السادس عشر: طلبة الطب المصريون والامتحانات ٢١٥
الفصل السابع عشر: طاقم التدريس فى المستشفيات الجامعية ٢٢٥
الفصل الثامن عشر: الاعتراف بجامعة فاروق بالإسكندرية ٢٣٦
الفصل التاسع عشر: فضيحة تبادل الكراسى ٢٤٦
الفصل العشرون: نساء مصر ٢٥١
الفصل الحادى والعشرون: الطبيبات المصريات ٢٥٧
الفصل الثانى والعشرون: أحداث متفرقة خاصة بالمستشفى ٢٦٦
الفصل الثالث والعشرون: مستشفى حميات العباسية
ومرض التيفوس............ ٢٧٦
الفصل الرابع والعشرون: متفرقات عن مدينة القاهرة ٢٨٤
الفصل الخامس والعشرون: القوات البريطانية فى مصر ٢٩٤
الفصل السادس والعشرون: استقالتى من كرسى الطب
الإكلينيكى ٣٠٢
الفصل السابع والعشرون: النشرة ٣١٦
الفصل الثامن والعشرون: توزيع النشرة ٣٢٦
الفصل التاسع والعشرون: الرأى العام والنشرة ٣٣٨

الفصل الثلاثون: رد رئيس الجامعة على ما جاء بالنشرة ٣٤٧
الفصل الحادي والثلاثون: مغادرتي مصر ٣٥٨
الفصل الثاني والثلاثون: اقتراحات بناءة ٣٧١
الخلاصة ٣٧٨
ختام ٣٧٩

رقـم الإيـداع
٢٠٠٩/٣٩٩٦
I.S.B.N
977-07-1336-8

هذا الكتاب

حضر الطبيب الإنجليزى سيسيل ألبورت زميل الكليات الملكية البريطانية، إلى مصر عام ١٩٣٧، ليدرس الطب الإكلينيكى بكلية طب قصر العينى، واستمر يجاهد فى عمله هذا لمدة ست سنوات.

فى هذا الكتاب، يصور الطبيب لنا، قدر المعاناة التى وقع فى براثنها الفلاح المصرى والفقراء، ويشرح الحالة المزرية التى آلت إليها المستشفيات المصرية فى ذلك الحين . ويستنجد بمواطنيه أن ينظروا بعطف، ويمدوا يد العون لهؤلاء البشر الذين كانوا من أوائل من أرسوا قواعد الحضارة الإنسانية.

بأسلوب شائق طريف وجذاب، يحكى لنا سلوكيات الشارع والطلبة وزملائه من المدرسين، أيام الملك فاروق والنحاس باشا.

عندما تقرأ الكتاب، سوف تدرك أنه لم يتغير الكثير فى بلادنا، بالرغم من مرور أكثر من سبعين عاما منذ كتب هذا السجل الواقعى الذى يرصد فيه حال الفلاحين والمرضى الفقراء من المصريين، فى ذلك الزمان.

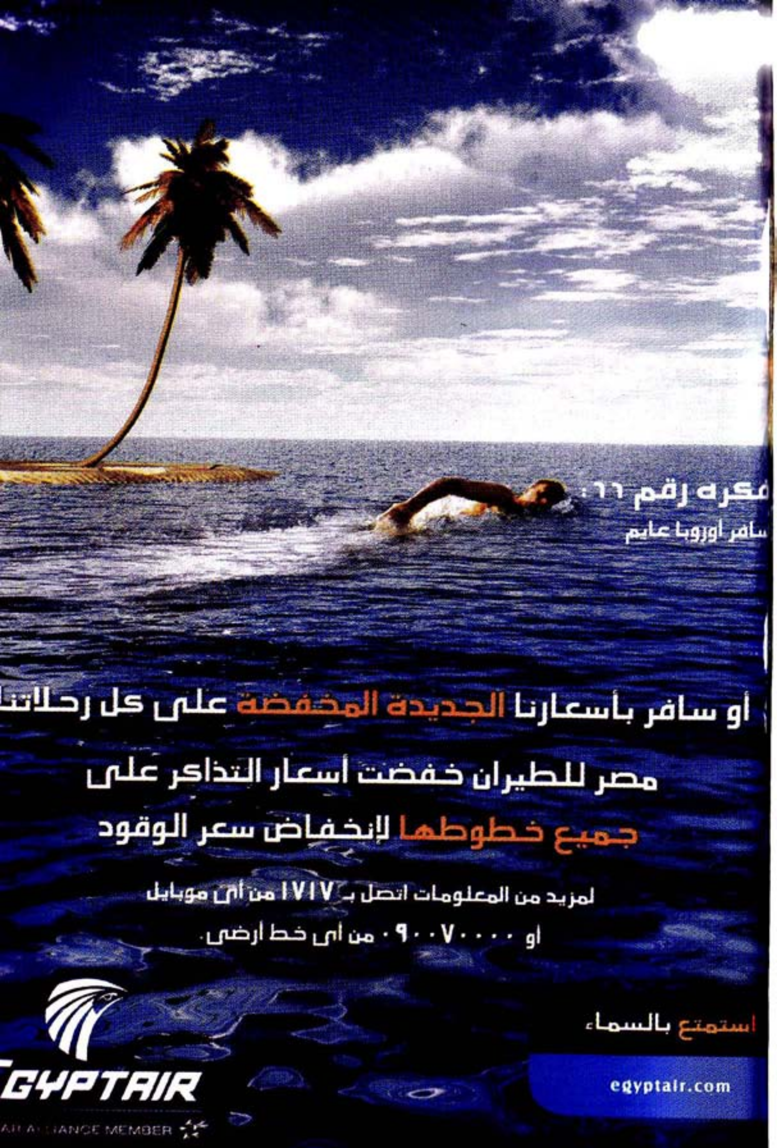

فكره رقم ١٦ :
سافر أوروبا عايم
أو سافر بأسعارنا الجديدة المخفضة على كل رحلاتنا
مصر للطيران خفضت أسعار التذاكر على
جميع خطوطها لإنخفاض سعر الوقود
لمزيد من المعلومات اتصل بـ ١٧١٧ من أى موبايل
أو ٠٩٠٠٧٠٠٠٠ من أى خط ارضى.
استمتع بالسماء
egyptair.com
EGYPTAIR

روايات مصرية للجيب

شـــلال متدفِّق من الروايات

أكثـــر الروايات باللغـــة العربيـــة
إثارة ، وأحفلها بالمتعة والثقافة

تـــذوق متـــعـــة القـــراءة مـــع
أحلى القصص وأجمل الروايات

المؤسســـة العربيـــة الحديثـــة للطبـــع والنشـــر والتوزيـــع 10 ، 16 ش كامـــل صدقى الفجالـــة ،
4 ش الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة - ت : 26823792 - 25928202 - 22586197
فاكـــس - 202/25966650 ج.م.ع ، 4 ش بدوى محـــرم بك - الإسكندريـــة ت : 03/4970840 - 03/4970850